A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

مجلد صالح الدفر
تلفون ٢٢٩٧٧

A.U.B. LIBRARY

CA
915.69
V92ot
V.1-2
c.1

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ هيب البرقي

الجزء الاول

المقول محفوظة

الطبعة الفجرية
بمطبعة ...

تقديم

الاستاذ حبيب السيوفي قلم سيال في خوض المواضيع التاريخية الاديبة . وقد طالع قرّاء مجلتنا « الرسالة المخلصية » التي الكثير من ذلك . وها هو اليوم يتقدم لنا في هذا الجزء الاول موضوعاً شائقاً عن بلادنا واحوالها وسكانها في القرن الثامن عشر ، وبطرفنا في جزء ثانٍ بحث جليل عن تقسيم هذه البلاد الى ايالات وولايات وعن افادات اخرى كما رواها احد مشاهير الغربيين الرحالة النقادة قولني .

فقد اقتضب السيد السيوفي هذه النبذة المختصرة من كتاب المؤلف المذكور بجزئيه ، بلغة عربية متينة سائغة ، تشهد له بطول الباع في الترجمة والتلخيص والايضاح ... وقد تكرم علينا اعزّه الله بهذه النبذة لتقدمها للرأي العام مطبوعة فتكون ذخيرة لخزانة الادب والمتأدبين . وقد جعلنا هذا الجزء منها هدية « الرسالة » لهذه السنة فعسى ان يروق القراء الافاضل . ويسبلون ستار العذر على ما وقع فيه من الاغلاط المطبعية فيصلحونها قبل القراءة . والكريم من عذر .

فهرس الكتاب

صفحة	
	تقديم
١	توطئة
١	المؤلف
٩	سكان سوريا
١٣	التركمان
١٥	عرب البادية
٣٢	الاكراد
٣٣	النصيرية
٣٦	الموارنة
٤٤	الدروز
٥٤	حكومة الدروز
٦٣	المتاولة
٦٥	الشيخ ظاهر العمر
٩١	علي بك المصري
١٠٦	وصف ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

توطئة

تتضمن الصفحات التالية ما كتبه عن سوريا ولبنان وفلسطين ، رحالة بل عالم فرنسي شهير ، جاء هذه البلدان منذ مئة وخمسين سنة ، واقام فيها ثلاث سنين ، فدرس احوالها ، والمّ بشؤونها ، وقلما يفوته شيء مما رام الوقوف عليه ، خالط سكانها ، وتعلم لغتهم وألف عاداتهم . فالمعلومات التي توصل الى احرازها ، سطرها في كتاب تنقله معربين بعضه بتصرف ، ولخصنا البعض الآخر بدقة . بيد اننا اهملنا الكثير من آراء المؤلف ، وهو اهمال متعمّد ، لم يكن لنا عنه مندوحة . وقد ضربنا ايضاً صفحاً عن جانب الكتاب الخاص بجغرافية هذه البلاد ، وشرح طبيعتها . واما الحوادث التي جرت في عصر المؤلف ، والتي شهدها بأم عينه ، ووصفه الرائع لما وقع بصره عليه ، فذلك كله يجده القارئ ، كما قلنا ، اما معرّبا بتصرف ، او ملخصاً بامانة .

المؤلف

هو قسطنطين فرانسوا « ڤولني » [1] ولد في « كفروان » احدى مدن فرنسة ، في ٣ شباط سنة ١٧٥٧ واسم اسرته « شاسبوف » [2] . غير ان الاب ابى ان يدعى ابنه بهذا الاسم ، فسماه « بوابجيه » [3] .

---

(1) François de Volney, comte et pair de France membre de l'Académie Française, membre honoraire de la Société Asiatique séant à Calcutta.

(2) Chasseboeuf

(3) Boisgirots

وكان الاب محامياً لدى المحاكم ، فرغب ان يكون ابنه محامياً مثله ، لكن الابن لم يرَ في مهنة المحاماة ما كانت تصبو اليه نفسه . ولما اتمّ دروسه ، وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، رحل الى باريز ، وبدلاً من ان ينصرف الى اللعب واللهو ، قضى في دار الكتب اكبر جانب من وقته ، مكبّاً على الدرس ، عاكفاً على قراءة المؤلفات التاريخية والفلسفية . ثم اختار الطب مهنة له ، فدرسه ثلاث سنين ، مثابراً في ذلك واحداً على التردد الى دور الكتب ومطالعة المؤلفات المفيدة . ووضع في تلك السنين كتاباً في علم التاريخ وعرضه على الاكاديمية الفرنسية التي خطّأت رواياته فيه لبعض الحوادث ، فبادر الى اصلاح خطأه ، بكتاب آخر دعاه « ابحاث تاريخية جديدة »

وكان التفكير الطويل يقد له ، وتشوق نفسه الى بلوغ اقصى درجة الرقي في اقصر ما يستطاع من الوقت . وقد جاءته فرصة سانحة لادراك امانيه ، وهي انه ورث سنة ١٧٨٣ عن عمّه ذهب . فعقد من ساعته النية على انفاقها في سبيل سياحة طويلة في انحاء مصر وسوريا . وكان الاوربيون الى ذاك لا يعرفون من ذينك القطرين الا القليل اليسير . ولم يثنه ما كان سيصادف فيهما من الاخطار ، ويتجشمه من المتاعب والمشقات ، فقضى سنة بتمامها في التأهب للسفر ، مشرناً على تحمل التعب والجوع والعطش ، وعلى السير الساعات الطوال ، وتسلق الاكام والجبال ، والانحدار في الاودية والوهاد ، وامتطاء صهوة جواد بلا سرج ولا لجام .

واما الاسم واجداده فانه لم يقع لديه موقع الاستحسان فعزم على ابداله بغيره ، وفاتح في امره عمه ، فاتفق كلاهما على الاسم « فولني » وهو الاسم الذي اشتهر به بعدئذ .

ففي السنة ١٧٨٩ ركب البحر من مرسيليا ، غير عامل عمه سري بعض

الملابس القطنية وزنار من جلد محل فيه السنة الآلات وريش التي وزنها

فما وصل الى مصر ، توجه الى [illegible] واتخذ فيها بصفة شهر ، براقما عادات سكانها واخلاقهم ، مختبرا [illegible] كل شيء [illegible] كل قول ، وبعد كل [illegible] كان يزور [illegible] الكبير [illegible] سافر الى [illegible] ثم الى [illegible] يعني السكان الصوان في [illegible] وعادات [illegible] ولم يبرح الدير الا بعد [illegible] الى [illegible] وصار [illegible] بارشاد دليل صار معه في [illegible] على شاطئ [illegible]

فعندما بلغ [illegible] هدى [illegible] فسار بقرب [illegible] واقام [illegible] فعند [illegible] وقد [illegible] فاستكثر [illegible] عليهم [illegible] وصار [illegible] في [illegible] ثم [illegible] واحب [illegible] عند [illegible] وبقي [illegible] فيها [illegible]

واعجب « فولني » بالمعاملة الطيبة التي [illegible] من [illegible] العرب [illegible] فاقام [illegible]

وقد [illegible] في [illegible] واشتاقهم [illegible] فاشرح [illegible] له « فوني » [illegible] في [illegible] ثم [illegible] عاد ثم [illegible] هي على جانب كبير من الجمال [illegible] « فوني » فيها مدة [illegible] حتى اتت صدور [illegible] والصدران [illegible] فسار [illegible]

ورد [illegible] كان يستصيح ان يطيل [illegible] في [illegible] غير انه كان

[illegible] في اليوم الواحد

[illegible]

الاهرام العظيمة وخرائب تدمر العجيبة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وصدق وطنية .

[illegible]

الى حريه ذريكا ... وكان ... في ... ... وقد
... قواي ... ...
... وهو في ... ... في ... ...
... ...

... ... واحدث الفرضي قضيت في ... ...
... ...
... ...
... ...

فهو مواطني وزميلي ؛ واذا وعيته [illegible] الى تناول الطعام على سفرتي غداً ؛ [illegible]

وفي غضون المأدبة اصغى «[illegible] اليوم [illegible] ثم قال : «[illegible] مجلس الادارة (Directoire) [illegible] «[illegible] «وزن الدخلية » فرفضها ايضاً .

ومع ما كان عليه من طبع مستقل وعصبي [illegible] قال ، ولم تنقصم علاقتها الا [illegible] فان الباعث عليه [illegible] الطاعة والولاء بين يديه [illegible] به ؟ لاجل ذلك ظل [illegible]

[illegible] من ايامه صاحبا مالكا لجميع
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] قبل اوانه من مطالعة بعض
[illegible]
[illegible]

[illegible] ولد من العمر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سكان سوريا

على [illegible] سكان [illegible] الذين كانوا خاصين لهم
[illegible] عليها ، بما فيها سوريا باعتبارها [illegible] ثم جاءهم [illegible]
فالمكدونيون ، فالروم .

[illegible] سوريا [illegible] ، ثم [illegible] ، وعلى [illegible] ، وعلى
[illegible] ، وقد
[illegible] ثم [illegible] ، ومن بين هؤلاء [illegible]
[illegible] ، ثم فتحها الاتراك .

[illegible] في سوريا شعباً [illegible] ذلك شعب
[illegible] ، وهم دراري
الذين اخضعهم العرب بفتح بلادهم ، ودراري العرب الفاتحين ، والاتراك
المسيطرين الآن على سوريا .

وفي سكان سوريا من غير هؤلاء [illegible] ثلاثة شعوب رئيسة

عزة الى الاسكندرون

فان طباع سكانها قد تكيفت بطباع ... الذين بعدما اقاموا فيها منذ

[illegible] البلاد [illegible]

[illegible] لغتهم [illegible]

[illegible] في الكلام [illegible]

[illegible] هو داء عام لا مراء فيه في اكثر [illegible]

[illegible]

[illegible] الحلبية ما زال سكانها يتكلمون بالسريانية [illegible] حقيقة الامر الا من احد اكد له ذلك [illegible] وصيدنايا يتكلمون بلغة فاسدة [illegible]

[illegible]

[illegible] كانوا [illegible]

[illegible] الله كان [illegible] والبعض من سكان سوريا [illegible] اليها في [illegible]

[illegible]

اهل اليمن والساحل الجنوبي اكثر عددا

[illegible] وهي المتدة من [illegible] ساحل البحر الابيض عرضاً .

[illegible] طولاً من [illegible] كلب الى حدود صور ، وعرضاً من البحر الى وادي التقاع

[illegible] بلاد متاولة [illegible] حتى صور . غير ان هذا الشعب كاد يمحي من الشعوب الحائلة من حو[illegible]ا

[illegible] النصارية في الحال ما بين نهر عكار وانطاكية ، مؤلفين عدة [illegible]

[illegible] هم سكان [illegible] وهم رجل [illegible] مصاريعه في [illegible] الى [illegible] اليهم [illegible] الى [illegible] على حدود البحر [illegible] وهم [illegible] في [illegible] واطلاقه [illegible] طرابلس والتقاع والحصن

التركمان

[illegible] على [illegible] في [illegible] الى [illegible] الاسطبلات [illegible] في [illegible] وهم رجل كالثور [illegible] مخطوب [illegible] والكلا [illegible] وسيوفهم رعي اغنامهم من غير ان يتعرضوا على [illegible]

الصحراء

وكان [illegible] بسبب سيطرته العادات المألوفة
[illegible] وكل منهم مقصور على نقد
[illegible] ملكوت من المال
[illegible] في المال و
[illegible] وعلى
[illegible] مصدرها منذ القدم
[illegible]
[illegible]
[illegible] الذين يؤلفون [illegible] فليس لهم التعرق الذي يؤلفهم له

[illegible] وهما الولايتان اللتان
[illegible] ويرحل اكثرهم في فصل الصيف
[illegible] المعتادة في

[illegible] واما اخلاقهم فلا
[illegible] ويقال عنهم انهم كرماء
كالعرب [illegible] عيبا [illegible] في ماض من
[illegible] الذي

عرب البادية

[illegible] في مصر [illegible] حدث [illegible]
كتابه عن مصر ، لانه كان عندئذ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] من العرب [illegible]
[illegible] والذم وطباعهم وعاداتهم ، وهو [illegible]
[illegible] يقيمون في أماكن
[illegible]

واما البدو الرحل الذين لا [illegible] بأرض [illegible]
[illegible] ولا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] واما [illegible]
[illegible] حتى
[illegible] في [illegible]
[illegible] عرب [illegible] الاكرم اصلا

والاقدم عهداً ، وقد [illegible] الى هذه الامم ، اللفظة « [illegible] » التي [illegible]
سكان البادية .

وليس من [illegible] ان [illegible] عرق العرب [illegible] ان [illegible] على [illegible] ان [illegible] واحد [illegible] وفي [illegible] والتي [illegible] في [illegible] اليمن واحد [illegible] في [illegible] في عهد [illegible] من [illegible] العصبة [illegible] ومن [illegible] حافظوا على [illegible] حتى ان [illegible] اليوم في [illegible] اقدم [illegible]

وقد [illegible] الحرارة التي تحمل [illegible] من [illegible] لا [illegible] حتى ان [illegible] في [illegible] الوقت الذي [illegible] في [illegible] من المكر في الام [illegible] على [illegible] من [illegible] الى [illegible] في المقام الاول [illegible] الى [illegible] من [illegible] كانت [illegible] دون حيوان واحد ما ينبت منها في بقعة كذا [illegible]
[illegible]

والعامل الآخر فساد الحكم [illegible]
لتي يتردد [illegible] الاكراد [illegible] على تخوم سوريا ، وفي جهات ديار بكر

ونواحي الاناضول ، تصلح للفلاحة والزراعة ، بل هي خصبة ايضاً . لكن الدولة التي لا تتكاثر لمصير رعاياها ، تتكدر عيشتهم معسرة عليهم سبل الارتزاق ، بارهاقهم ظلماً ، وتركها اياهم يتخطفون في طلح الفوضى و الاضطراب وهي ادأ المسؤولة في الاصل عن عدم استقرار تلك القبائل في صقع واحد . ومن لا ريب فيه ان هؤلاء الرحل يؤثرون الاقامة في مكان واحد ان تهيأ لهم ان يعيشوا فيه بامان و طمأنينة ، فيصبحون مع ذلك اخصب ، وبالعكس اذا دفع لاستبداد سكان قرية الى اليأس ، يهجرون حقولهم ودورهم ، ويفترحون عن ديارهم ، لاجئين الى الجبال ، وطامين في السهول ، ماقين مكانهم من مكان الى آخر ، وبينهم اجتناب ما يكدر صفاء عيشهم وكثيراً ما يصبح بعضهم لصوصاً وقطاع طرق .

وطبيعة الصحراء هي التي تحمل البدو على ان يكونوا رحلاً ، وكي نعرف ما هي تلك الصحارى ، علينا ان نتمثل سهولا عظيمة الاتساع ، لا منازل فيها ولا ماء ولا جبال ، تطلها دوماً سماء حارة اموّة صافية الاديم . يصيع البصر في افقها المتساوي كالبحر الذي لا نهاية له ، او عليها ان تتمثل اماكن تعلو ارضها وتهبط على التوالي كالامواج ، او تحمل على سطحها الحصى والصخور ، وهي عارية على الدوام ، ليس عليها سوى نباتات متفرقة ، او شجيرات عرعرية متشعثة ، لا يعيق مرتقاها الا بعض الجرذ و الثعبان او الارانب والغزلان .

تلك هي على وجه التقريب البلاد الواقعة بين حلب وبحر العرب ، وبين مصر وخليج العقبة في نقعة عارها نحو شمشة فرصيد ، وعرضها نحو ثلاثة . فهي هذه الشقة الفسيحة ليست التربة واحدة ، بل هي خصبة على الحدود السورية وشاطئي الفرات ، وجيرية بيضاء في الداخل من الجانب الجنوبي ، وصخرية

في برية التيه و حضر ، ورملية في الجانب الشرقي من اليمن .

فهي الاماكن الخالية البيت ، تتجاول القبائل وتتباعد مصادرها ، وحيثما تكون الارض جيدة التربة ، تُردد فيها القبائل وتتخذ مجالها .

ومحل الصحراء ناحم على الاغلب من قلة الينابيع فيها ، فطر الشتاء لا يوجد العيون فيها ، ولا يحدث حد ول دائمة ، لذلك سكان تلك الانحاء يتفرون الى الماء في شهر الصيف ، فعطاف واحد يذهب بعدة سنة كاملة ، مخلفاً الخل والجوع والعطش ، وليس خبر الامر هذا بالامر الصغير ، إذ إن الماء ينجس على عمق يسير ، غير انه رغماً عن هذه الصعوبات ، وانتشار الجوع والعطش ، فخير السكان اراضيهم وارغامهم تقديمهم وتضحيتهم عن ديارهم .

فبلاد هذا هو شأنها ، حالتها غير مستقرة ، وحكومتها غير حسنة ، يُفضل اهلها عيشة الرحيل على عيشة الملازمين الثابتي السكن .

وفي ارض الصحراء و الرملية تنبت الحشائش على اثر سقوط المطر ، ويحيا العوسج والشيح والحرمل ، ويحدث في الاماكن المنخفضة مستنقعات يتمرغ فيها العشب و تنمو ، ويكسي حينئذ السهل بحلة خضراء ، فيكون الفصل فصل خير وفيض للقطعان واصحاب القطعان غير ان ذلك كله يزول ويضمحل برجوع القيظ ، فلا يبقى حينئذ على تلك الارض الباهتة لونها سوى سوق قاسية كالحطب لا تقوى الماشية على رعيها ، فتصبح البادية غير صالحة للسكن ، ويضطر اهلها الى الرحيل عنها .

على ان الطبيعة تدارك الامر ، فوجدت في البادية حيواناً حسن الطباع ، قنوعاً ، زاهداً في الاكل والشرب ، وذلك الحيوان هو الجمل ، وهو الوحيد الذي يناسب هواء تلك الاصقاع مزاجه ، فخالق البر وجل قد جعل تحكمه الاولية طبع هذا الحيوان ثلاثة صفات البادية واحوالها فوضعه في اراضي جدبة ،

وكونه بشكل يساعده على تحمل التعب ، وتحمل عذاب الجوع والعطش . فلم يعطه شكل البقر ، ولا طبيعة الخيل ، ولا هيئة الفيلة ، بل جعل له رأساً صغيراً في آخر عنق طويلة ، وفكاً قوياً يمكنه من سحق اصلب العلف . وانه يأكل كثيراً ضيق له معدته ، وصيره مجترا وجرد سيقانه واعضاءه من العضلات التي لا تفيده في حراكه ، وكما قدمه بكتلة من اللحم ، فقدمه تأتي على الوحل ولا تقوى على تسلق المرتفعات ، فلا يستطيع السير الا على ارض حامة مستوية . وهذه سبحانه وتعالى ليكون عبداً صبوراً خضوعاً . فذلك وسيلة ما يتاب للدفاع بها عن نفسه ، ولا حمل له قرن الثور ، ولا حافر الفرس ، ولا ناب الفيل ، ولا خفة الأيل فاذا يستطيع الجمل عند اذا هجم عليه الاسد او اراد سرقته . ولئلا تفنى اصيلته واوراه في الفراري الفسيحة الارجاء حيث لا نبات ، ولا شجر ، ولا خضرة تحلب اليها العرائد فلا تدنو منها الوحوش الضارية المفترسة .

ولما دجن الجمل صار الواسطة التي جعلت تجلب ارض صالحة للسكن ، هو واثاثه يدان صاحبها بكل ما يحتاج اليه ، فحليب اثناء يغذي البدوي وعياله ، وكثيراً ما يأكلون لحمها ايضاً ، ويصنعون الغال والسروج من جلدها ، والاسن واخية من وبرها . واذا نجات الارض بعلف على الفرس التي يعرفها البدوي ، بادرت الناقة الى تغذيتها بحليبها ، ولم يحملا صاحبهما بدل ذلك كله سوى الشيء اليسير من العوسج والشيح ونبتة برى مسعرقة .

فتلك هي اهمية الجمل في الفراري والصحاري ، فلو اقتصره عليها بادرها جميع سكانها ، وهم الذين يعتمدون عليه وحده دون سواه ، وبلغت ايضاً في حالة البدو التي خصهم الله به ليجعل منهم شعباً فريداً بمزاياه وعاداته فهذه الصفات المميزة جعلت حتى جارتهم السوريين ينظرون اليهم بعجب وعزة . ابدوهم على الاخص قبائل عنزة وشيخها وطبي . ولما جاء بعضهم

عكسا في ايام الشيخ ظاهر العمر ، كان لمنظرهم تأثير غريب على ما كانوا عليه من نحافة حضر ، وخول جسم ، واصفرار بشرة : فعيقاتهم الدموية الدقيقة لم يكن فيها سوى عضلات ، وعظامهم كانت تبدو كأنها لاصقة بصدورهم . وأما شعرهم فمجعد كشعر الزنوج . وهم ايضاً قد دهشوا مما رأوا فكانوا يسألون بذهول كيف تستطيع البيوت والأبراج البقاء منتصبة في الهواء ؟ وكيف يحرز الناس على الدوام الإقامة تحتها ، وهم يرضون بالسكن في مكان واحد ، ولا ينتقلون الى غيره . والأمر الذي أثار دهشتهم منتهى الدهشة البحر ، فإن مظهره فاق كل ما امكنهم تصوره . وقد عدوهم من الجوامع والمساجد والوضوء والصلاة ، فكانوا يسألون عما يعني كل ذلك ، ومن هم موسى وعيسى ومحمد ، ولماذا الشعب الذي لا يؤلف عدده قليل يجتمع لعدة رعاة .

واما العرب المقيمون بالوادي او القمة على الحدود فانهم اكثر خبرة من بدو الصحراء ، فبعض قبائلهم الصغيرة تقيم في سهل البقاع ووادي الاردن وبلاد فلسطين ، لا كبير فرق بينهم وبين الفلاحين ، غير ان بدو الصحراء ينظرون اليهم بازدراء ويعدونهم عرباً غير أقحاح وعبيداً للاتراك .

والبدو على العموم صغار القامة ، نحيف الجسم مسمر البشرة وهذه الصفات اكثر ظهوراً في بدو الصحراء منها في العرب المقيمين بالوادي الواقعة على الحدود ، وأقوى في هؤلاء منها في جيرانهم الفلاحين . وقد نجد مثل هذا الفرق حتى في حي واحد ، فالشيخ ابي الأعين ، وحدهم هم في القالب اكثر رشاقة واصول قمة من غيرهم . ويمكن عزو ذلك الى عدائهم ، وتمرينهم اليومي للرجل الواحد من قامة الشعب لا يتجاوز وزنه عادة مئة وثلاثة وثمانين غراماً ، وهو امر يصعب تصديقه . وهذا الزهد في الاكل يبلغ اقصاه في عرب نجد والحجاز : فمنذ أو سبع تمرات مفتتة في السمن ، ومقدار ضئيل من الحليب

او اثنين يقوم بمؤونة المرء في اليوم الواحد . واذا تيسر لاحد ان يضيف الى ذلك شيئاً من الطحين الخشن والارز ، حسب نفسه سعيداً . واللحم لا يأكلونه الا في المواسم ، ولا يذبحون احداً إلا في الاعراس والمآتم . فزهد كهذا من شأنه ان يجعل البدوي العادي يقدم على أكل اسقر الطعام ، حتى انه لا يمتنع من أكل الجراد والحرذان والحرادين والأفاعي المشوية ونفس هذا الزهد هو الذي يسوق البدوي الى التعدي على الزرع وسلب السابلة . فزهدهم في الأكل ، بل فقرهم ، يحملهم تحت الجوع على الغارة ، تحاف السير واما دونهم فلا يخلو من المغالاة ، ويفتقر الى الحر الشديد لكي يصل سابلاً . وبكلمة طاهر نقي . لذلك الامراض عندهم اقل وقوعاً منها في البلاد العامرة .

وذن ليس زهد البدو في الاكل والشرب فقط ، وليس هواء بلادهم هو وحده الذي يضطرهم اليه . ولا ريب ان طريقة تعديتهم تحول دون تعدد معدهم . فشكوهم من تحمل هذا الزهد او التقتير الذي سنه الاول والأكبر عندهم كما عند غيرهم ، هو من الضرورة التي تفرضها عليهم طبيعة أرضهم ، واما حالتهم الاجتماعية كما سيأتي شرحه .

قد مرّ بنا ان البدو يؤمون عدة قبائل ، تتخذ كل واحدة منها أرضاً فسيحة تعدها ملكاً لها ، لكي تستطيع ان تجد مواشيها المراعي التي لا غنى عنها على مدار السنة . وكل قبيلة تؤلف مخيماً او عدة مخيمات متفرقة في تلك الارض ، واذا ما رأت انتجاع مرعى على بقعة من العشب ، ساقتها الى بقعة اخرى . وقد يتكرر هنالك بعض البقع التي ترى تارة مأهولة وتارة مهجورة . غير انه لا غنى للقبيلة عن تلك الارض بكاملها كل عام السنة . فاذا قبيلة اخرى او بعض الأفراد دخلوا ارضاً ليست ارضهم عوملوا

معاملة اللصوص و لاعداء ؛ فتنشب حينئذ الحرب فيما بينهم ؛ وما ان تقيد قرابة او تعقد محالفة ترتبط بين قبيلة واخرى ، فتلك تصبح الحرب شاملة ؛ اما ما حدث عندئذ : عندما يعلم رجال القبيلة بوقوع التعدي على ارضهم يتجمعون حيادهم ، ويجدون في اثر المعتدي ؛ فيلاقي الفريقان ، ويتعاركان ؛ وقد يتصادمان ؛ والاسلحة بتهاجمان ، ويتضاربان وهما محربين ، تتهي المعركة وراحهم منكوسة ، وقد يتواثبان بها مع هي عليه من طول ؛ فيهزم عندئذ احدهم ، وتصدمه الاولى هي فاصلة ، وهو يفر بسرعة من وجه القاتل ، ويواريه عامة سواد الليل ، فالقبيلة المغلوبة تسارع الى قلع خيامها ، وتتعقد سائر الليل بها ، اما على عجل ، وتطوف الذي تكون قد قلع مرابطه ، يتوجه على اقصى سرعته ، والمنتصرون على اثره ، وهم جميع عندئذ انما يهزمون الى ارضهم . واذا وقع قتلى في المعركة من احد الفريقين ،

ان هذه الحوادث الاولى في تلك القبائل اوجدت عند اقدم العصور شريعة عامة توجب عندئذ دم القاتل ثأراً لدم القتيل ، وحقوق الاحد باثار تعود الى اقرب الناس من القتيل . فاذا تهاون في ذلك لحق به العار والشنار . لاجل ذلك يعمل بتحيين الفرص للانتقام ، واذا هلك عصبة من جراء عوامل طبيعية عدة ، فذلك لا يشفي غليله ؛ فيأخذ عندئذ ثاره من اقرب الناس الى الخصم . وتلك الاحقاد تتوارثها البدو خلفاً عن سلف ، ولا تخمد الا بتقريض احد الفريقين ، او بالتصالح على قتل المدنب ، او دفع الدية من مالاً وان مواشي . وفي ما خلا ذلك لا يجرم صلح ولا تعقد هدنة ، ولا تتم مصاهرة بينها او بين القبيلتين المتنمين اليهما ، فيقول بعضهم لبعض عند كل سانحة وبارحة « ثيار دم » فهذه العبارة هي تعزة حاضرة لا تكلف عرقة . وان الحوادث التي من هذا القبيل تزداد مع الايام ، لذلك يصل النزاع قائماً بين معظم القبائل

التي تمشي في الحالة حرب دائمة ، وهو امر يجعل افرادها رجال حرب متأهبين لخوض المعامع في كل ساعة .

وطريقة نصب خيامهم تجعل لحلتهم شكل حلقة غير متساوية الاستدارة مؤلفة من جملة خيام بعدد متفاوتة ، فيضربونها على ثلاثة او خمسة اثوبة طولها خمس او ست اقدام . وتجيء كهذا يرى من بعيد كأنه تلع سوداء ، غير ان عين البدوي الحادة النظر لا يفوتها بعده .

وكل خيمة تقع بحيث يشطرها حجاب شطرين ، يخصص احدهما بالنساء . والقسم التي في وسط الحلقة الكبيرة يخطرون فيها مواشيهم ليلاً ، وليس هنالك مشاريس حولها لحمايتها . وكلابهم هم الحرس والحراس ويبقون جميعهم مسرجة معدة للركوب لدى اول اشارة شر بدنو خطر . وهم ان لا توثب عدوهم ولا نام ، فيسهل على العدو مباغتة مخيماتهم التي لا تقوى على وقاية الذب فيها . لاجل ذلك يحدث كل يوم نهب وخطف وسلب ، فالسلب والنهب هم شغل العرب الشاغل .

والقبائل التي تقيم في جوار المدن والقرى حالتها احكم واصعب من غيرها ، فالحكام الذين يعدون انفسهم سادة البلاد ، يعتقدون ان العرب رعايا متمردون او اعداء مقهورون ، ويضيقون عليهم ويضطهدونهم ، او يجشمونهم بجملة ارض احكروهم بها ، او يكرهونهم على دفع اموال لا يحق لهم مطالبتهم بها ، وان نشب نزاع ما بين شيخ وشيخ ، ابدوا تارة هذا وتارة ذاك ، وهكذا يتوصلون الى القضاء على الاثنين معاً . وكثيراً ما يستعين او يغتالون الزعماء ذوي الشجاعة والدراية .

والعرب يعدون الاتراك خونة ومغتصبين ، ويسعون جهدهم في إلحاق الاذى بهم ، فاذا دارت رحى القتال بينهم ، وقعت النكبة على الاولياء ، واصابت

الفلاحين الاصرار التي يحدثها القتال ؛ فيتلف الزرع ، وتخلف المواشي ، وتقطع الطرق ، ويقف دولاب التجارة .

تلك هي حالة العرب خارج البادية ؛ فهي معرضة لشتى الصوارى . وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة تسود وتقوى ، بينما قبيلة اخرى قوية تأخذ في الانحطاط او التلاشي ، لا لبس بعضاً افرادها بل بانضمامهم في قبيلة اخرى .

والقبيلة قد تتألف من اسرة واحدة او من اسر عديدة لبعض افرادها لقب « شيخ » او « امير » ؛ فهم يشهدون من هذا القبيل اعيان دوما القبيلة ، او اشراف اوربا الحديثة . وواحد من هؤلاء الشيوخ او الامراء هو الاول ، هو المتولي عليهم . وكلما ازداد عدد افرادها وامتد وعلا شأنه ، قويت شوكته ، وعلا شأنه . وله طائفة من الخدم يلازمونه ويعاشرون في بيته . وقد يلتف حوله اسر صغيرة لا تمل هذا ان تعيش مستقلة عنها ، فتطرأ الى صفوفها ؛ فهي تعتقد ان حماه وحله . وذلك هو السبب في شاكلته يعرفون باسم رجل ، او يكتسبون اسم الاسرة التي تنتمي اليها . فيقال فيهم فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية ، وهم ليسوا من دومة واحدة ؛ بل هذا الفعل هو نتيجة اولاد علي .

ان الحكم عند اهل البادية هو في رجل واحد حربي وشرعي ومطبق ، من غير ان يكون في الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، فهو شرعي لان للشيخ الرأي الاول في كل امر من الامور ، ولا يجري شيء الا برضى وموافقة الاغلبية وهو حربي لميله الى الاعيان ، لما ان اسر المشايخ تحمي بديهيات لا يستطيع احرازها الا من كان صاحب حماه وباس . ثم هو استبدادي اذ الشيخ المتقدم على الجميع له سلطة واسعة ، بل مطلقة ، فهي وسعه ان يمس في السلطة ، ويتمادى في الحكم مستبداً في رعيته . غير ان هناك ما يردعه عن الاستبداد

في العسف والاستبداد . فان ارتكب فعلاً جائراً ثقيلاً ، كقتل احد ، صعب عليه التملص من العقاب ؛ فشدة حريته لا يحققها علو مقامه ، بل لا بد ان يثأر منه واذا توالى في تأدية الدية قتل لا محالة . وقد ليس بالامر العسير نظراً الى نوع المعيشة التي يعيشها الشيخ في وسط اقوامهم وان اغلب رعاياه واساء معاملتهم هجروه وانضموا الى قبيلة اخرى . واقاربه انفسهم يتحينون عند ثذ الفرصة لاسقاطه واستبداله عليه . وليس في وسعه مقاومتهم ، اذ ما من احد من خارج القبيلة يأتيه لشد ازره وهو ايضاً يعجز عن التفريق بينهم او عن اشغالهم جميعاً موالياً له ، بعد ان فريق منهم بعدايا و عطايا ، وهو لا يملك من حطام الدنيا الا شيئاً يسيراً مثقلاً بالنفقات .

وعلى شيخ كل قبيلة ان يقوم بواجب الضيافة نحو زوار القبيلة وقاصديها ؛ فهو الذي يستقبلهم جميعاً . والى جانب خيمته فضاء واسع ينزل فيه كل غريب او كل عابر طريق . وفيه يعقد المشايخ والاعيان جلساتهم واجتماعاتهم لاجل السمر والتفاوض في مختلف الشؤون ، كعقد محالفة ، او ابرام صلح ، واعلان حرب ، او فصل بين قضايا الافراد ، ومعالجة ما يحدث بين قبيلة واخرى من المشاجرات ، وما الى ذلك من الامور . فعلى شيخ القبيلة ان يقدم هؤلاء الوفود القهوة والطعام والاثر ، واحياناً الحدي والحمل المشوي ، اي انه يضطر في اغلب ايامه دوماً ولاجل المحافظة على سلطته ونفوذه ، يتحتم عليه ان يكون كريماً ، وفي نظر البدوي الجامع فضيلة الكرم رأس الفضائل . وقد اثبت الاختبار ان الشيخ الخسيس قصير النظر . ولتقديم تلك النفقات لا يعتمد الشيخ الا على قطعانه ، واحياناً على بعض الحقول المزروعة ، او على ما يجمعه في الغزوات ، او على الاتاوى التي يتقاضاها من عابري الطريق . ولعمري ان دخلاً كهذا لضئيل هو .

ان الشيخ الذي قصد اليه فرنني ، ونزل ضيفاً عليه ، كان يعد من حيث الثروة والمنى في طليعة مشايخ تلك الاصقاع ، مع ان عقاره لا تتجاوز في مجموعها ما ينفقه عادة فلاح ميسور الحال ، فما يملكه مقصور على بعض الاعنة ، والسجاد ، والسلاح ، والخيل ، والابل ، وقيمة كل ذلك لا تزيد على الخمسين الف قرش . فلاحن ذلك كلمتا « مولى » و « امير » اللتين هما بعض المتداول لدى بعض الاوربيين . وقد تكونان على صواب فيما اذا شملتا الشيخ والامير باصحاب المزارع الواقعة في الاصقاع الجبلية في فرنسا . والفريقان مماثلان من حيث الاخلاق والبساطة القاسي والحياة البدوية . فالشيخ الذي تحت يده خمسمائة فارس لا يستنكف من امتطاء فرسه واطعامها بيده ، ووضع الشعير او التبن في مزودها وغلالها . وفي خيامه هي امرأته التي تحلب الناقة ، وتسقيه ، وتعلي القهوة ، وتطحن ، وتطبخ ، وبناته هن اللاتي يغسلن الثياب ، ويرعين الماشية ، والحرة على قلة رأسهن كما كانت بنات جنسهن يفعلن في عهد موسى وايام هوميروس

فرهط البدو هي افراد العائلة التي يعيشون بمعاشهم . فان ما يملكه اسرة بعض الابل ، وامير ، او الشيخ ، وفارس وعشيرها ، وخيمة ، وزوجة ، وسيف ، وبندقية ، وعبيد ، ومطحنة يدوية ، وقدر ، وزق من جلد ، وحصة ، وحصير ، وبعض الثياب ، وبعض صوف سود ، ومن الحلي : اساور ، وخلاخل من فضة او رخيص . فالاسرة التي لا يتوفر شيء مما عددنا على ذكره ، تعد هيئة . ومما يثير الدهشة الى احواله ، ويرهب فيه كثيراً ، الفرس . و حقيقة ان هذا الحيوان هو عندهم خير واسطة للاثراء ، فعليه يذهب البدوي الى الغزو ، ومقاتلة القبائل المعادية . والفرس يقصونها على الحصان ، لانها لا تصهل ابداً ، وهي سلسة الانقياد ، وتدر الحليب الذي يغذي الجوعان ، ويروي العطشان .

ليست هي حرّ البدو ، لانهم لا يكترثون الا لما لا غنى لهم عنه . فلذلك

ترى ان صناعتهم مقصورة على صنع الخيام والحصر ، واستخراج الزبدة من الحليب . وتقوم تجارتهم بتبادل الابل والحدآء ، والذكور من الخيل ، والالبان ، والاسلحة ، والثياب ، والارز ، والحنطة ، والنقود التي يطمرونها . واما العلوم والكتب فلا اثر لها عندهم ، ويندر ان تجد بينهم من له المام بالقراءة والكتابة : فلا يعرفون سوى رواية الحكايات التي تشبه « الف ليلة وليلة » وهم مولعون بسماعها ، وهي تشغل اكثر قسط من اوقات فراغهم . فعند المساء يتجمعون على الارض خارج الخيام او داخلها ، بحسب ما يكون الجو حاراً او بارداً . ففي فصل الشتآء ، يتحلقون حول نار من روث الحيوان ، يصطلون بها ، ويستحثون احتالهم بالتفكير من غير ان يتبادلوا بكلمة ما ، ثم يبدأ احدهم فجأة ويقول : في ذاك الزمن وفي سالف العصر والاوان كان ... ويتابع كلامه راوياً ما حدث لاعرابي شاب واعرابية صبية ، ويقص كيف وقع نظر الشاب ندي، ذي بدء على الفتاة فشغف بها ، ويعدد من ثم واحدة واحدة جميع صفاتها الحسنة ، فيطري جيدها الاسود ، وخديها الناعمين اللذين تشبههما بورد الخزامى ، وخطها الذي يدهش سهاء الى عمق الغلوب ، وحاجبيها المحنيين كقوسين من الابنوس الاسود ، وقدميها الطريفة المشرقة كالرخام ، وشفتيها خمرة التي تقتل سيد الفلوة ، وجفنيها المكحلين ، وشفتيها اللؤلؤيتين ، وثغرها المحصن باحدّ الدعية الاثر ، وثديها المشمشيين كالهما رمانتان ، وكلامها الاحلى من العسل . ثم يصف ما يكابده الشاب من الالم في سبيلها ، وكيف يدوب من شدة هيامه بها الى ان يصبح جسمه كالخيال . وبعد ما يذكر راوي محاولات الشاب ليرى حبيبته ، وما يضعه ذووها من العوائق في سبيله ، ثم اقدام الاعداء على اختطافهم له وهما ، يختم حكايته باعادتهم متحدين سعيدين الى خبآء الوالدي . فيسر الحاضرون بهذا الختام الفرح ، مثنين جميعاً على بلاغة الراوي .

ولبدو ايضا الاعالي العراسية التي تعبر عن الشعور بشكل اصح واصدق من اعالي سكان المدن ؛ ذلك لان اخلاق البدو طاهرة فيعرفون الحب الصحيح واما سكان المدن فانهم مرتصمون في الدعارة فلا يرعون الا في الاستمتاع واللذة .

ان البدو ولا سيما الذين يقيمون منهم في قلب الصحراء، لهم حالة تشبه من عدة نواحٍ ما هم عليه هنود اميركة ؛ غير انهم ليسوا متوحشين مثلهم ، ولا هم يأكلون اللحم النيء ، بل لحمهم اكثر لطفاً ، واحسن عشرة واساس اخلاقاً . فما اذن هذا الفرق بين الشعبين .

ان البحيرات والغابات وكثرة المراعي ووفرة الكلأ في البلاد الاميركية تجعل العيشة التي توافق الرعاة سهلة ميسورة فيها . غير اننا نجد ان نفس هذه العلات قد جعلت الحيوانات الاهلية اليفة هربا من سيطرة ابن آدم عليها الذي اضطر لاجل ذلك ان يصبح صياداً . فالعادات التي الفها فقدت طباعه ، وشدت الصيد حشت جسمه ، والجوع الشديد الذي مقته لذة اللحم المصطاد الوافر ، صيّره شرهاً بعض الشيء في اكله ، وتشطيته العديدة الفاصلة مؤداه القنص و زوبة الاوجاع ؛ ولما عاد الجوع سبباً في اكل اللحم ، ولما لم يجد امامه سوى لحم قريبه فانه اقدم على اكله ؛ فقتل الاقوياء اعداءه ، فاعتبر ذلك عادة عنده ؛ فصار سفاكاً فتاكاً عليظ الكبد .

واما البدوي فليست تلك حالته . اذ بعدما القاه القدر في سهول واسعة لا مساء فيها ، ولا شجر ، ولا قانص ، لم يعد في وسعه ان يكون صياداً ؛ فاوحد الحظ الميلَ فيه الى اقتناء الانعام لرعيها . وبما انه لم يجد امامه سوى الشيء اليسير من القوت ، لذلك اعتاد الزهد في الاكل قانعاً بلبن مواشيه وبعض الشيء من التمر . فهو اذن لم يشته اللحم ، ولم يهرق

الدم ، وبداه لم تألفا القتل ، وادبه لم تعتادا سماع انين المتوجع المتألم ، فظل يخفق في حشائه قلب رقيق شفيق . وهذا الراعي الغير المتحضر ما ان عرف كيف يستخدم القرس ، حتى غير اسلوب حياته ؛ فقدرته على قطع المسافات الشاسعة بسهولة وسرعة جعلته رحالا . كان حريصاً بطبعه القحط ، فصار عدواً لدوافع الغزو والعدوان . فهو اذن يحب الغزو ، وان لقي مقاومة ، اعتقد ان ما يسعه لا يبرر المخاطرة بحرته . ولا يمكن استثارة غيظه الا بسفك دمه ؛ فتجده عندئذ شديد البأس ، ميالاً الى اخذ الثأر على قدر ما كان حريصاً على اجتناب الخطر .

وقد عزوا عليه ميله الى الغزو ؛ فنحن نجيب ، ليس رغبة في تعريره ، بل حباً للحقيقة ، انه لا يغزو الا الغريب الذي يعده عدوا فيبيح والحالة هذه ، ما يرتكبه على السلب المأمونة العاقبة عند معظم الامم .

واما حياته الاجتماعية فيسودها الثقة والنزاهة والكرم الذي يشرف اعرق الشعوب مدنية . وهل من شيء اشرف وافضل من حقوق الضيافة التي يتمتع بها عندهم كل غريب وعابر سبيل . والعدو نفسه اذا ما دخل بيت او طنب خيمة الاعرابي صارت حياته في أمن ، فلا يحرز احد على مسها بأذىً . ومن الحب ومنتهى الدناءة ، ومن العار الذي ليس بعده عار ، ان يثأر الاعرابي من خصم نزل ضيفاً عليه . واذا رضي باكل الخبز والملح مع نزيل ، فلا شيء في الدنيا يستطيع حمله على خيانته . والاطمئنان نفسه مع كل ما له من قدرة وسطوة ، لا يستطيع ان يخرج من القبيلة ضيفاً لجأ اليها واستجار بها ما لم تعن تلك القبيلة عن نكرة نبيها [1] .

---

(١) — يجعل العرب بعض العرق من صيغهم : انهم المستجير ، اي طالب حمايتهم ، والمعيذ ، هو الذي يجعل اعتصام حياته ان جاء اطناب خيامهم . فاذا جاء احدهم اطوى الى قبيلتهم فصار واحداً منهم .

فهذا الاعرابي دو البحر والطبع حارح قبيلته ، ما ان يضع قدمه في حيه ، حتى يصير فكريباً حواداً ؛ ومهما يكن ما يمتلكه يسيراً فهو مستعد لاقتسامه مع غيره . واذا جلس للاكل ، مدّ حوانه عند مدخل حبائه ليدعو عابري الطريق الى الاشتراك معه . وهو صادق مخلص في كرمه ، لانه لا يعده فضيلة بل فرضاً واجباً ، لاجل ذلك يعتقد ان له على غيره ما لغيره عليه .

هذا كانت فضائلهم هذه قد اوجدتها مقتضيات الزمان و الاحوال ، فليسوا من اجل ذلك غير جديرين بالاعجاب والثناء ؛ فهم اذن سعداء من جهة حالة ادت اليها تلك المقتضيات ، وهي التي عدها اعقل المشرعين طريقة الحكم المثلى ، واعني بها المساواة في قسمة المال ، والنظام في توزيع الرزق . ولما انهم حرموا الكثير من الخيرات التي حادت بها الطبيعة الى البلاد الاخر ، لاجل ذلك نأت عندهم العوامل التي تلقي المرء في بؤرة الفساد .

وقد يتعذّر على رغبتهم تأليف حزب يدأب في استرفاقهم وانتزار اموالهم ؛ فكل واحد في وسعه ان يكفي نفسه بؤونتها ؛ لذلك تراهم يستطيعون الحذر من غيرهم الاحتفاظ بطابعهم الخاص وصون استقلالهم من كل تعدّ . وهكذا يصبح فقر الفرد عندهم مصدر اخرة العامة وكفيلها .

وحريتهم هذه تشمل حتى الامور الدينية . اجل ، ان العرب المقيمين على مقربة من البلاد المتحضرة يختلطون ، من باب السياسة ، بظاهر يدل على تمسكهم بالدين . غير ان هذا الظاهر غير متين ، وتصدهم مقتاس ، عما يجلبهم في نظر غيرهم ، كانهم لا دين لهم ، ولا شريعة عندهم ، حتى انهم هم انفسهم يقولون : الدين لم يجعل لنا . ويضيفون : وكيف ينسى لك الوضوء ، ولا ماء عندنا ، وكيف نقوم بتأدية الزكاة ، ولا مال لدينا ؛ ولماذا نصوم

رمضان ، ونحن نصوم الستة كلها ؛ ونحج بيت الله الحرام ، ما دام الله موجوداً في كل مكان .

وكل منهم يفكر كما يشاء ، ويعمل كما يشاء . ويسود عندهم روح التسامح التام ، وهو الروح الذي يبدو جلياً من حديث وقع لقوالي ذات يوم مع الشيخ احمد بن بجر زعيم القبيلة الوحدية الذي قال له : لماذا تريد العودة الى فرنسا ما دمت تستحسن عوائدنا ؛ وتعرف كيف تحمل الرمح ، وتركب الخيل ؛ فامكث عندنا ، تعطك عمة وحمة ، وزوجك بدوية صبية حسناء ، وتهبك فرساً ، وتدرك في يوم على الرحب والسعة . فقال قوالي : ألا تعرف اني ولدت ونشأت في قوم دينهم ليس كدينكم ؛ فاذا يكون رأي البدوي في كافر او جاحد . فقال الشيخ : ألا ترى ان ذلك ان البدو يعيشون بمعزل عن الدين وكل منهم يتبع ما يمليه عليه ضميره ووجدانه . ان الاعمال للناس والدين لله .

ولقد قال قوالي شيخ آخر ذات يوم عن عبد قصد ، عبارة اعتاد قولها وهي : « صلّ على النبي » وبدلاً من ان يجيبه قوالي الجواب المعتاد قال : ها انا ذا ضاع البيت . فلطم الشيخ خطاه ، وتمتم . وكان حاضراً سماعتذر احد سكان القدس ؛ فتدخل وقال للشيخ : كيف توجه الى كافر كلاماً لا يجوز قوله الا لمؤمن . قال الشيخ : هي زلة لسان ، وسكن اليه سليمة . وانت انت الذي تعرف عادات العرب واخلاقهم كيف تخير لعبدك اهانة عربي كلما معه خبزاً وملحاً . ثم التفت الى قوالي وقال : هل الشعوب في بلاد الفرنج المتحضرون هم دينياً عبيداً اكثر من نحن المسلمين ، اجابه : هم اضعاف اضعاف المسلمين ، فيهم البدو . فقال الشيخ : انه فعلاً رجيح ، فهو يدين كل انسان بحسب اعماله .

ان تلك المادة التي يحبها العرب ، ويعملون بها ، قلما تنعم الشعوب المتحضرة . وقد تجدها عند الاتراك والاكراد ، وهي اداة من خصائص المعيشة التي يعيشها الرعاة .

الاكراد

ان قبائل الاكراد منتشرة بكثرة في آسيا الصغرى . واما وطنهم في الاصل فهو الجبال التي تنحصر فيها فروع السلسلة الجديدة . فتلك الجبال تحدق بالشطر الاعلى لنهر الزاب الكبير ، ثم تمتد جنوباً حتى تخوم العراق العجمي . وفي التقويم الجديد تدعى هذه البلاد كردستان ، وهي تعطي بوفرة الحبوب والكتان والسمسم والارز والعنب والجوز ، ويجبى منها ضرب من البلوط اللذيذ الطعم الذي يصنعون منه خبزاً . وقد جاء ذكرها في اقدم التواريخ . ويروون عنها شتى الاساطير . وقد تحدث عنها اكسنفون والمؤرخ الارمني موسى الخورني .

والاكراد عصريا قد حافظوا على الكثير من عادات وطباع اجدادهم . وبيوهر الذي جال في بلادهم في السنة ١٧٩٩ روى انهم يتمتعون في عالمهم ضرباً من الحكم الاقطاعي . مع انه على اثر الفتن والمنازعات التي نشبت بينهم انتزح كثيرون من اسرهم وعشائرهم وتفرقوا في نواحي ديار بكر وارضروم واربيشان وسيواس وحلب ودمشق . ويقدّرون عدد خيامهم بمئة واربعين الفاً ، فيها مئة واربعون الف مقاتل شجاع . وهم كالتركمان رعاة رحل ، ولكنهم يختلفون عن التركمان ببعض عاداتهم وطباعهم . انهم يميلون الى الزنوج ، بعكس يحبهم سكان حلب وانطاكية حيث يسيطرون

الى الحدث الواقعة شرقي [illegible] هاتف [illegible] ... [illegible]

[illegible]

[illegible] عربية [illegible] في [illegible]

[illegible]

التجربة

[illegible] كبير [illegible]

[illegible]

في السنة ١٢٠٢ للروم (١٨٩١ م) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فاخذت بتؤدة مصابيح السجن من [illegible]

[illegible] السجن ، اعادتها الى حيث كانت

[illegible] في الغد عندما جاء السجان [illegible]

[illegible]

[illegible] في الحال الى اقامة [illegible]

[illegible]

[illegible]

... وسط علي ... وهو ايضاً حمزتين ، وقد قال ص : انت الذي تقرأ انت الرجل الذي يطلق يحن ، انت الجمل الذي يحمل الموتى الى المضجع ؛ انت الدابة التي تحمل اوزارهم ؛ انت ... (القدس) ويوحنا ذكره ... وقف الناس ان اركعوا في ... ركعتين ... ركعتين قبل ... وقف الشمس ، وركعتين قبل غروبها ... وهو ... مهيكم شطرت المقدس ، وهو يقول : « انه تقوي في اعطيه » ، و« تحدثو بعد الان لا الميد الثاني والثالث ؛ ولا تصوموه لا يوم في السبت ، ولا تعملوا قلصلاتكم ، ولا تشربوا مرأة ، بل احسنوا من بعيد ما شيء ولا تأكلوا لحم الخروف الصارخ ... » فهذا الشيء ... ونشر تعاليمه ، ... ان ... ويعد بضع سنين ... ترى عن الانظار ... يعرف احد ... »

والصليبيون في حروبهم ... من ... ان سنان ... سنين ... الحادي عشر الصليبية ، وقد ... منهم عند كثير ... وعنيوم الصوري الذي ذكر ... خلط بينهم وبين حشاشين ... وقد ... بعض الكتبة بين الفريقين . فقال ان نقطة حشاشين كانت ... عند ... الفرنج والعرب ، من غير ان يعرف ما هو اصله ؛ فالصليبيون ... في ... سوريا عندما كانت تلك الشيعة موضوع احاديث الناس ، خلطوا بينهم وبين ... (Assassins) ، وقد ترجموا كلمتي « شيخ الجبل » خطأ ، فقالوا « الشيخ الجبل » بدلاً من « شيخ الجبل » [1] .

والنصيرية شيع وفصائل ، منها الشمسية والقمرية والكلبية والنصيرية لم تصل لا تريد بصورته الى الاصقاع القريبة من انطاكية ، والذين دانوا

---

(١) في النسخة هنا اي فيما وراء أصله .

(2) Le vieux de la montagne .

[illegible] عددهم [illegible] حتى بعد [illegible] [illegible] حتى [illegible] العربي ، لم تقوَ الديانة المسيحية على [illegible] [illegible] العسكرية ، تحدث [illegible] في [illegible] كما في المدن حيث تتوفر الوسائل في [illegible] الافكار بسرعة جاعلة [illegible] [illegible] [illegible] الذي احرقته النصرانية [illegible] [illegible] [illegible] القديمة والحديثة [illegible] [illegible] كان [illegible] على [illegible] [illegible]

وقد ظهرت [illegible] [illegible] ولكن [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ويتكر بعضهم [illegible] [illegible] [illegible] الاخلاق .

[illegible] [illegible] يودون [illegible] [illegible] اقل [illegible] واوفر [illegible] من [illegible] [illegible]

الموارنة

[illegible] شمالاً وبلاد الدروز جنوباً ، شعب عرف منذ زمن بعيد باسم موارنة ، فأصل [illegible] كانا موضوع درس طويل ، و[illegible] طرقه وزخر [illegible] [illegible] وبدلاً من ان ينبط موقد عزائم [illegible] تلك النار اضطراماً على اثر [illegible] ذاع صيته في جميع الانحاء .

[illegible] فمال جمهور سكان المملكة الى [illegible] من الامراء ورجال الدين ، [illegible] الامر [illegible] عقائد [illegible] راهب من دير حماة اسمه حنا مارون ، [illegible] والتقدم للوعظ والارشاد في [illegible] .

ان [illegible] في لبنان ،

مؤلفاً منهم جماعة مسلمة ديناً ودماً وقد كتب عنهم احد المؤرخين البيزنطيين
ما يلي [1] : « في السنة الثالثة لحكم قسطنطين بغناتس (سنة ٦٧١) اجتمع
الجيش المقيم في آسية وقد حتى مقدونية والتصدى لجيوش الخليفة
معاوية ان يعقد مع الروم هدنة ثلاثين سنة ، تدل عرامة تكلفتها
من الذهب » .

وخطة الجزية التي فرضها معاوية على الروم تدل على
ان الامبراطورية كانت تدفع سنوياً ألف قطعة
كان ديناراً ومدنياً في آن واحد .

وقد ذكر المؤرخون العرب هذه الجزية
اذ في السنة ٦٢٢ ورد ذكرها
الامبراطور قسطنطين الثالث الى دمشق لمقابلة معاوية
وقد
وتوفي في سبتمبر من السنة
وبعد حكم دام ثلاثين عاماً

وفي حين ان قسطنطين الرابع كان المتمردون المستأثرون من استياء
الجيش وجوره يهمون بالعودة الى القسطنطينية ليكون ذلك هو السبب
الذي يحول بينه وبين الاستيلاء على العرش ، ونظراً الى ما كان لهذا
الجيش من النفوذ اتخذ لقب اسم « ثيودوسيوس » ولعمري اسم اشرف
والطف من اسم « قسطنطين » .

وهكذا كان الامبراطور يوحنا الخامس قسطنطين بغناتس ، وهو

(1) Cedrenus

وقد اضطروا بعد مئتي سنة ان يجتمعوا لصلاح الدين الايوبي على اثر انتصاره على الفرنج وابعادهم من البلاد .

وفي السنة ١٩٠٥ [illegible] وهو الاتحاد الذي [illegible] [illegible] لو يحافظون عليه حتى [illegible] الذي [illegible] ذلك [illegible] كانوا [illegible] . وظل الامان باسطاً جناحيه [illegible] الى ان [illegible] عليهم [illegible] في السنة ٥٨٨ [illegible] عليهم [illegible]

[illegible] في [illegible] عددهم ، و [illegible] ما استطاعوا من [illegible] الى [illegible] الاقامة فيه . [illegible] الاحق كان [illegible] . [illegible] كان مقصوراً على [illegible] الى [illegible]

[illegible] حكم [illegible] من [illegible] ولولا بعض العوامل الطبيعية التي [illegible] كان يحول دون اقدام ذوي الطمع [illegible] على [illegible] شكل [illegible] حيث [illegible] التي كانت [illegible] على كل قرية [illegible] كل [illegible] ان تدافع عن [illegible] ، [illegible] عنها ؛ واما العامل الثالث فهو [illegible] التي لم [illegible] الى [illegible] الا [illegible] في الاتحاد التام بين جميع [illegible] ، وهو الاتحاد الذي [illegible] [illegible] كل منهم [illegible] على [illegible] .

وهكذا [illegible] بتوطد [illegible] الطبيعي ، ومنع من البلاد الاستبداد [illegible] الناجمة عن الفوضى والشقاق [illegible] للسكان باطلاق [illegible] قامت [illegible] التشريع .

والامة طبقتان : السوقة [illegible] الاعيان [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible] على هذا النمط ، ولا يجاورون

الا [illegible] وترى [illegible] وحياة [illegible]

[illegible]

[illegible] هم مشغولون ، فهؤلاء [illegible]

ان حقوق الامتلاك [illegible] على ما هي في اوربا . واما الاشغالات

[illegible]

[illegible]

[illegible] طبقة [illegible]

[illegible]

[illegible] ولا يباشرونها مطلقاً ، وخلافاً لمبادىء دينهم قد حافظوا على

عادة الثأر ، وعملا بعادة [illegible]

[illegible] وفلاحين لا يخرجون من بيوتهم الا [illegible]

[illegible] تزول

[illegible] الى [illegible]

[illegible] على كل [illegible]

[illegible]

[illegible] الاعصر [illegible]

[illegible] جميع السكان [illegible]

[illegible]

انهم يسكنون الثغور [illegible] عددهم مئة وخمسة عشر [illegible] في [illegible] الواحد [illegible] مساحة [illegible] [illegible] كمعجزة [illegible] من لسان مضري ، وما يمكن [illegible] طبل الخصب .

ومع [illegible]

[illegible] ولا يحدثون نساء الا [illegible] واذا تزملوا فلا [illegible] الزواج ثابتة ويقيمون [illegible] الاجي [illegible] بالشكائن ، وخبز الذبيحة فطير [illegible] وهو حصة الكاهن [illegible] في الكأس مع النبيذ ، ويتناول [illegible]

[illegible] يعيشون من [illegible] قدماسهم او تبرعات المؤمنين ، او مما يحرقه [illegible] ولبعض [illegible] ويجدون [illegible] واحة [illegible]

[illegible] في [illegible] وكل فرقة [illegible] وهو أمر غير جائز في الاغذاء الاخر الخاصة للاولاد [illegible] ولئلا يفقدوا شيئاً [illegible] على هذا العمل في بلد اخر يقتل في الحال

ان ايطاليا نفسها ليس فيها مطلقاً [illegible] في [illegible]

[illegible] واحد [illegible] على [illegible]

[illegible]

الرهبان واما دخل الواحد [illegible] في السنة ؟ وهو

[illegible] في بلاد كل شيء فيها

ثمنه بخس . ويقتصر [illegible] لهذا المنصب درجة

ثقافتهم التي يسهل عليهم طرقها ؟ اذ [illegible] لا

لايعرف سوى التعليم المسيحي [illegible] القدس [illegible] الرهبان

والكهنة في لبنان [illegible] .

[illegible] قانون

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] على

مقربة من دير الرهبان [illegible]

[illegible]

[illegible] وسيلة [illegible] من عواقب البطالة الوخيمة .

لاجل [illegible] على [illegible]

وقد اشتهر دير قزحيا على سبع ساعات من طرابلس شرقاً ؛ ففيه يطردون الارواح النجسة كما كان [illegible] العصور الاولى يفعلون . وقد يبدو [illegible] ان منهم روحاً نجساً ؛ وقد [illegible] هذا النوع [illegible] الرهبان [illegible] الخوري [illegible] تفعله [illegible] وبعض [illegible] [illegible] ولا [illegible] على طرد الارواح الخبيثة [illegible] .

[illegible] خصمهم البابا عهد في [illegible] مجاناً

وفي [illegible] يقوم بنفقات معيشتهم الرهبان الكبوشيون الفرنسيون . واما عملهم فهو الوعظ ، وتعليم الصبيان القراءة [illegible] ، وكتاب الاقتداء بالمسيح ، ومزامير داود . وكان لها ديوان رهبان في منطورة ؛ فحل محلها رهبان اللعازريين . ومن الفوائد التي نجمت عن هذه الاعمال الرسولية ، انتشار [illegible] الكتابة [illegible] في هذه البلاد [illegible] الى الاشخاص في مصر [illegible] ولا سيما الدروز جعلوا يعهدون اليهم في الاشغال التي يستدعي القيام بها معرفة الكتابة . »[1]

[illegible] كما كان يجري في تلك الايام التي كان [illegible] في هذه الاقطار [illegible] اموراً قد تبدلت [illegible] كثيرة

الدروز

وقد [illegible] الدروز على [illegible] من الاضطهاد الذي أنزله [illegible] موطنهم ، [illegible] من هذه القبيلة مثل الإمارة التي اعتصموا بها [illegible] ليأمنوا شرأ أعدائهم ، واضطهاد خصومهم .

[illegible] الدروز والموارنة يوحدون كلمتهم عند [illegible] خطر [illegible] [illegible] الصليبيين ، وسلاطين حلب ، و[illegible] ، و[illegible] وفي أيام السلطان سليم الأول وسليمان [illegible] كانوا [illegible] من سلطتهم [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] ، وكانوا [illegible] على [illegible] [illegible] عمارة [illegible] رودس ، وأمرس ، و[illegible] وغيرهم

وقد [illegible] حكام الأوربيين [illegible] عودهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانوا دوماً ينصرون عليهم وقد ظلت [illegible] الى أن أرسل عليهم السلطان مراد الثالث أحد قواديه ، في السنة ١٥٨٨ القائد ابراهيم باشا الذي كان في القاهرة فحمل عليهم ابراهيم ، وقهرهم ، واحرق بيوتهم [illegible] [illegible] ، وفرض عليهم ضريبة سنوية .

وتلك المحنة [illegible] في حالتهم الداخلية التي كانت مضطربة منقسمة ، إذ كانوا يحصون [illegible] منقسمين فريقين ، أي فريق قيسي ، وآخر يمني ، وقد تولى [illegible] [illegible] [illegible] عليهم زعماء تشكل [illegible] [illegible] دولة ، واستمر على الأمر [illegible] الذي [illegible] اليه ذلك المنصب الخطير ، ما لبث أن غدا صاحب نفوذ عظيم ، بل أخذت سلطته تنمو وتزيد ، حتى ضارعت

سلطة بلواء فجاءت النتيجة خلاف ما كان الأتراك يتوخونه فهذا الحادث نطاق السلطة سيطر على جميع قوى مثله حتى صار في وسعه ان يقاوم الدولة نفسها

وكانت الحدود قد شدت في أوائل القرن السابع عشر ، بفضل جهود كمال الدين الشهير الذي ما ان تقلد زمام الحكم ، حتى بذل كل جهد للقضاء على سيطرة حكام الأتراك ، واهل بيتهم . وقد سلك ابن طريقة ذات على فعل قاسٍ ، ورأى صارم ، فدل في جميع ادوار حياته على دلائل الخضوع والولاء للحكومة العثمانية . وكان للصوفي العربي في بيت الحكمة دائبين في شن الغارة على سهل بعلبك ، وبلاد البقاع وهكذا ، فطال الأمد بفخر الدين يتفقهم ويقاومهم حتى اذا شد ، وأيقن من شرهم البلاد والعباد وهكذا عمل السكان على الرغبة في ان يكون هو الحاكم عليهم

وكانت بيروت المدينة التي فضلها على جميع ما عداها من المدن والموانئ في اوربا ، وعلى الأخص الى مدينة البندقية التي كانت حكومتها من اشد اعداء الأتراك ولكي يتمكن من تسهيل صلاته بها ، اصبح الاحتلاف التي تكون الأمة المتوفي فيها ، فطرده منها ، واحتلها ، وبدر الى اعطائه من العالي الدليل على صدقه واخلاصه في ما فعل ، فاعاده الى الدولة بعد حين الأمر . وقد فعل عن هذا الشيء الذي استيلائه على صيدا وصور وعاث وذلك سنة ١٦١٣ حتى كان قد بسط سلطانه على البلاد كلها حتى بعلبك وصيدا .

فاصبح دمشق وحلب اقل قلقا من نشاطه ، وأوجسا شراً من امتداد سلطته ، فكانا تارة يتصيدانه ، وتارة يتقربان حدوى ، ويبذلان عليه

عند اربه الامر في الاستانه ، وعضدهم هلاكه عبد اله كان يظهر لهم مساعدة حراسيه و صداقته لقبيين في اوصه

غير ان لب لعاي قد راعه بعدئذ عدم الدرور استمر فرض العس على تريد عد عليهم و لاء بعد ان ن ه في ايدي عدو بعث عليهم ، و ش بهم ، سلاور يه ، وعاونه حصول في تريد حكومة وهو التاييد الذي كانوا بعدوبه به ، كان بعقد ا بحاجة يهم يعد يرى لصداقة بينه وبينهم ، وتحمهم على الثورة عليهم له و ن بعض بن ان استاده عن بلاد من ٥ له ه يمكن عصب الاوراء ويرس عدوهم

و بحر من بيوت بعد ا سلم رده حكمه ي ابنه علي ، عد في رلاد آل بعد س ، عصوم بعد شرقي ان عد از ه ظهور ، فعض ا س يقتدون ه علي الامه ي ب الله ، ويستحثون من عد الدرور وعصبهم عد ن حوث تا لحه والاتة بعد ب مثله عليهم ، فلم يبدروا على هؤلاء الدور هم مسجيون ه ور ، د كور عبدئذ الصليبيين ، و وا شعاعا ان ن ، وبدا له رهم ان سكانه لا بد ن يكو من سلاله لصليبيين ه ه لاة الامير محمد بن ، فدعي له دلة و ة بن ب ن ، و ير ادعاء ا رمنيون واسحار ا ورسون ، و غريقيون كانوا يتوهمون بعد ذ ث عن ازدياد عدد المرتدين ، وتناي مجال بعدره ، وحمل كل ه ه يدي بالمراهين التي تخطر بده تاييد زعمه ، حتى ب عد ا ساس بعضهم وجدوا بعد بن عطني « دور » و « دير » ( ) ، فهوا ان الكلمة ، ه ي و حد ، وبنوا على ذلك ان عسطو ، مؤسسها ن حاية من لصليبيين ، ت لبنان بوعامه الكونت دور ، واستوطنت هناك ، غير ان بعض فسروا

[illegible] ذكر اسم الدروز قبل ان يكون هنالك صليبيون . [illegible] ذلك [illegible] وعلى [illegible] الادهار [illegible] وهي [illegible] كانوا [illegible] من الصليبيين حافظوا [illegible] الدروز هي العربية التي ليس [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ذوبلا مصراً به

فراد الرابع [illegible] عزم [illegible] املاكه ، آمراً نائبه على [illegible] بجميع جيوشه الى بيروت [illegible] [illegible]

ومنع المدد من وصول اليها

[illegible] كان يثق بقائده ، ويعتمد على عونه فيضاعف [illegible] ، لم يكن [illegible] على اقتحام الخطوط بلا تردد ولا وجل ، فاشرف ابنه الذي كان حاكما [illegible] على قسطنطينة [illegible] منع الطريق على جيش التركي ومنع ما كان من اوبة [illegible] من حيث اتى ، بعد جموده وحصول الاثرات ، فان علي لم يحجم عن [illegible] وبعد موقعة [illegible] كان هو المشهور فيها ، التي حتمه في موقعه [illegible]

وانقلب الامور حينئذ لصهر السلطان ، وصارت حالة واي سوء [illegible] اخر الذي [illegible] وجاش ، بعد جموده ، وهو الذي كان موت ابنه الشاب [illegible] ، وعدت عنه طلعته في الناس ، وعيشه عيشة سيخ واوجاع ، فعاوده شجاعته ، [illegible] قوته وتكلفه ، وهو يعد من عند الصلاة ، وقد ابنه الاثير ومعه [illegible] الذي يعد الصليبيين معه [illegible] ان ابوابه حاضرة [illegible] واسوارها ، وهو يتسلم لحي الامير نفسه فيه ، فعرف فخر الدين وركن الى اهل [illegible] الذين كانوا يروا الى الشر ، بادروا الى محاصرته في الحصن وهو الذي [illegible] من امور [illegible] بعد عدد من سنة ، ثم تركوه وشأنه [illegible] في محبسه سنتين وعدت تخلصوا من السنين ، وكانوا من البؤس والعذاب ، فطاوعوه ان اسطوره الى الاتراك

[illegible] حتى بعد وقوعه في الاسر ، لانه الذي [illegible] على قدميه ، [illegible] في يد الامير معاهدة صلح ، وسكنه ما تم ان يقدم [illegible] ، وتعلق اي حديث يتعلق من اهل حاشيته الذين كانوا محكومة على قتله [illegible] ثم [illegible] ، الذي كان يتقلب من حبس الى حبس الى حبس امر بخنقه (١٦٣١).

[illegible] حكمه في [illegible] الامير فخر الدين الى ان تقرض [illegible]

[illegible] في القرن الثامن عشر [illegible] حكمه الى [illegible] على [illegible] حكمه [illegible] قوي على [illegible]

و[illegible] الذي [illegible] حكمه من سنة ١٧ [illegible] هو [illegible] في اسرة [illegible] التي [illegible] بنو قومه ، واستفاد [illegible]

[illegible]

وكان الامير [illegible] حكمه في [illegible] سنة ١٧٥٩ ، ليقضي [illegible] على [illegible] وكان [illegible] لاجل ذلك آل الحكم الى عمه الامير منصور ، [illegible] في [illegible] حكمه [illegible]

فالامير الصغير يوسف لم يكن في [illegible] يوسف ، [illegible] بالقتل [illegible] وكان [illegible] صاحب [illegible] وسلطان [illegible] الانسحاب الى جبيل حيث كان الامير [illegible] في [illegible] ، [illegible] على حصول على [illegible] كسروان كان في [illegible]

داوش صاحب طرابلس في الامر ، وتوصل الى احد « الالتزام » برمته .

وكان متاولة وادي بطناي تعدّوا حدوده منذ بضع سنين ، فمنع المؤونة عن حوار هؤلاء الناس ، فكان بعض الاهالي من والي دمشق تحاربتهم ، وعاثوا فيهم في سنة ١٧٦٣ ، وهكذا من قصبة عكار الذي التي كانوا يحتلونها .

وكان الدروز منقسمين فريقين ، فمنهم من حارب الى جانب المتصرفية ودفع ثورة الدوائر التي انضمت الى سقوط الامير يوسف من الاح

وكان الشيخ ظاهر العمر الزيداني صاحب بلاد جليل الفتح في عكا ، بعد سقوط الباب العالي بحروبه ، فصمم من الامير في حدوده ، فقام الباب العالي وكان ماشا وبيه ولايات دمشق وصيدا وطرابلس ، وحدود متصرفية المدة لشن الغارة عليه حصاقهم ، ومنصور الذي لا يجرؤ على مقاومة الاتراك بعد ما تحالفوا ، لجأ الى الاساليب المألوفة ، فتظاهر بطاعة الحضرة العلية كان في الخفاء يساعد عدوهم ، وحاول ان يحمل سعد على سحب جيوشه عن ، معتمداً على الاتراك في مناهضة منصور ، فتوصل الى غايته وتسبب لامير يوسف بحملة (١٧٧) .

وفي السنة التالية رحف جيش علي بك مصري او دمشق فيوسف الذي دعاه الاتراك الى معونتهم ، لم يستطع ان يقف في وجه الجيش التركي ، لانهم كانوا يأتون جيوش حرب دون حاجة خارج بلادهم ، فضلاً عن انهم كانوا مدربين على متحدثين على ان انضمامهم الى مؤازرة الاتراك لم يضرّ بهم ، اذ القتال جرى سريعاً في دمشق ، فكانت معاقله انكسار الاتراك ، وصاحب طرابلس الذي اضطر الى العودة الى الرجوع الى مقره ، مؤثراً الالتجاء الى الامير يوسف ، فقبل ضيافته .

غير ان الامور ما فتئت ان تبدلت على اثر انسحاب محمد بك قائد الجيش المصري ، كما سيراه القارئ ، فعاد يوسف الذي ضاق ذرعاً في بلاد صاحب مصر

مات ، وان الشيخ ظاهر العمر لا يقوى على مواصلة القتال وحده ، فحضر
بعضهم له

وكان خضر يهدد صفد ، فسار اليها وحاصرها ، فخرج من حرب للدفاع
عنها ، وهو يعتقد بعدم قدرة أحد على الدخول عليه في الاحصنة التي
حضر الى صفد للدفاع عنها في نحو خمسة وعشرين الف فلاح ، واعظم القتال وقع
في بلاد الشراة التي كان يحكمها الشيخ ظاهر ، فسار من ثم الى حصونها ، فدخل بلاد الشراة وحاصر بعضها

ولكن لم يطل به المقام هناك ، فعاد حتى بلغ عجلون ، ومنها الى دمشق ، والغيظ والغضب قد اشتدا عليهم جدا ، وهم يثيرهم
هزيمته ، وقد جرى على يديه من الذل على يد الشيخ ظاهر
نفسه ، فعاثت الفوضى والجريمة في صفوفهم ، وجعلوا يقتلون بعضهم بعضاً في
الطريق وهم ، ويرمون بعضهم بعضا من شرفات حصونهم ، وفي ليلة
واحدة سقط في جامع الشرق التي يسكنها هو وأهل الذين عادوا معه الا عدد
المتاولة بعددهم ضئيل .

فلما بلغ يوسف الذي حقد الثار والشر من عودته الانكسارية ، ذهب
الى دير القمر ، وقد اعتاد الكرة على الدولة بعد وقت قصير ، لكنه لم يجد
بديلا ، وانما بالقوة ، وها هو ذا يحارب في السهل المتد من صور وصيدا

وعلى الرغم من تعثر خضر ، فقد بقي من الحكام من هو أشد خطرا ، لكنه لم يستطع
ان يستفيد منه على الرغم من ان ثورة حدثت في سنة ١٧٢٣ م ، لانه لم يستطع الاحتفاظ
بتأييد الحكام الا لاصرام امره حتى هذه ، ولكي تبقى له السيطرة على بعض
المناطق بالاكراه ، فلم يكن من ولي دمشق ان يبعث اليه رجلا يستطيع الدفاع عنها ،
فارسل ولي اليه رجلا يعتمد عليه ، وهو أحمد باشا المعروف بالجزار

... والدور الخطير الذي قام بعدئذ بتمثيله .

... الذين كان يجب محادثتهم - ويروون انه ... هرباً من العقاب الذي استحقه ... على بث وضغنه الى عماليكه .

... وحسارة ، فكان مولاه ... باب « والكشفة » الذين كان ... باطراد ، وكان ذا ...

... (١) من Raguse وهي مرفأ على البحر الادرياتيكي

على الاتراك ، فعدّ الامير يوسف ذلك تحدّيًا له [illegible] والي دمشق ، ولكن الوالي لم يلتفت اليه [illegible] ظاهرًا كلامه على [illegible] الفاضل على ما يدل عليه [illegible]

[illegible]

[illegible] في ثلاث لاحقة ، فحصل [illegible] وفي سنة ١٧٨١ جاءه الخبر [illegible] ونصب بدلًا منه امير حاصبيا المدبر احتياليا [illegible]

[illegible]

حكومة الدروز

الدروز كانوا [illegible] وكانوا [illegible] فيما [illegible] وكانت رؤساؤهم في [illegible] كما [illegible] بعضهم أن [illegible] يكونوا [illegible] والذين [illegible] طائفتين هو [illegible] التي تقوم عليه الحكومة الداخلية، أي أن [illegible] خاصة من [illegible] الأول، ثم تليه الطبقة العامة. [illegible] كان طبقة [illegible] الأمر [illegible] الحوادث الأخيرة التي حدثت في البلاد، و[illegible] الأمراء [illegible] الأمر.

والمشايخ الذين يمكن [illegible] بمثابة [illegible] بمثابة أعضاء [illegible] البرلمان يعتبرون [illegible] في مذهبهم [illegible] الدين [illegible] الأمير [illegible] بتلقينه [illegible] وحق [illegible] محصور في الذكور، وإذا مات الحاكم ولم يكن [illegible] عهد [illegible] من [illegible] ورضي الأتراك، أو الحاكم بعد [illegible] من قبل هؤلاء [illegible] أمته [illegible] أن يولي عليهم حاكم رغم أنفهم، فإنه [illegible] لكن الحاكم الذي لا يرضى به الشعب لا يستطيع البقاء على كرسي الحكم [illegible] السلطة التي [illegible]

إن واجب [illegible] أهم [illegible] صيانة [illegible] وحفظ الأمن والنظام من محاربة بعضهم بعضاً، وهو [illegible] من الوسائل شديدة لإخضاعهم إلى طاعته. وهو الذي [illegible] المحافظة، يحتفظ بسلطته [illegible] فسيح الصدر، وبحكمته [illegible] أثر محاربة [illegible] بين [illegible] ويدفع إلى الوفي بدل المفروض على [illegible] وهذا [illegible] حسب [illegible] مقدرة [illegible] على المقاومة فإذا [illegible] لا يطيق [illegible] وقد كان في الآونة الأخيرة منة

وستين كيساً فالامير ملحم حمل الامير علي حمص ستين كيساً فقط . وفي السنة ١٧٨٤ اي في ايام الامير يوسف صار ثمانين .

فهذه الضريبة التي يدعونها [illegible] صت على التوت والقطن والغلال والكرمة [illegible] على كل شجرة توت ثلاث بارات ، وعلى كل مئة حصة اربعين بارة [illegible] عاد الاحصاء من حين الى آخر لئلا يلتبس العين بالجد . وما من احد منهم كان او شيخاً او [illegible] وقته ، يُعفى من هذه الضرائب ومن مصادرة الامير ان تحمل الاتاوة على الاكثر . بالقليل ، لانه يحتفظ بالفرق [illegible] في وسعه ضمن [illegible] بلا موافقة الاعيان الذين يحق لهم معارضته ان تقدم على زيادتها من نفسه

وموافقة الاعيان لا بد منها [illegible] ان اراد اعلان حرب او عقد صلح ؛ فعليه عندئذ ان يجمعهم لاستشارتهم في الامر . وكل شيخ بل كل فرد في مكانة ، له الحق ان يبدي رأيه . وحكمهم عندهم هو شعبي ومطلق في ان واحد . بيد ان الامور تُسيّر هنا بحسب تعاقب الحوادث ، وتكاثف الاحوال . فكل حاكم صاحب عقل ودراية ، فعل ما شاء ، فهو حينئذ مطلق السلطة . واذا فرضوه على كرسي الحكم وهو صبي ، فان الشرائع المثبتة معدومة هنا ، والحاجة اذن الى نظام مستقر هي منتفية اصل كل الاضطرابات التي تحدث في جميع البلاد الشرقية .

لا الحاكم ولا الامراء الاخوة لديهم حدود ؛ فليس عندهم سوى خدمهم وبعض العبيد الزنوج . وكل رجل ، ان شيخاً او فلاحاً يعد نفسه جندياً في اوان الحرب ؛ فيقضي على الحاكم الذي يهينه الحاكم ، أحداً منهم كيس طحين وبندقية ورصاصاً مزوداً . واذا كانت الحرب اهلية تسلّح الخدم والمزارعون والاقرباء والاصدقاء ، والتفوا حول سيدهم او عميدهم ، فيصير عندئذ ان ثلاث

[illegible]

للخصم ، ويدون منه ، ويفتكون به [illegible] بطاه
حاشيهم فهو شهيد على [illegible] حيا فساء القبر
وهو على الأخص صفتان [illegible] هي الصادة والصحة
في [illegible] قصر الأمة الى [illegible] لا حول تعالهم ولا
شي [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]

[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
لا [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]

وكان عدد [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]

[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]
من بيروت

[illegible] وهم [illegible] وهم [illegible] وهم [illegible]

يتمتعون بها ، فان كل واحد منهم يعيش لنفسه الا لي ، مطمئناً الى ماله وعياله ، بخلاف ما هي الحالة عليه في سائر البلاد الشرقية

واما هم من حيث سعة العيش او ضيقه ، فانها تنشأ عن اسباب اخرى في الاغلب الشائع ، لا لان اهلها عموماً من ذوي الثروة والغنى ، بل لان طبيعة البلاد وخصب اقليمها ، والاتقان في حرثها . فهذه الاسباب لا اثر لها في الجبل . فالياس والقنوط هما ادا الاعم الاكثر على هذا الشعب البائس ، وهناك داع آخر الى يأسهم ، هو زهدهم .

ثم ان لهذه الصناعة مدرسة تجهز البلاد الراقية بالاتقان ، ولا سيما الاقامة فيه ، والمواظبة على حضور جميع الدروس ، وهم يحضرون هذه الدروس ، ويدرسون ، ويمتحنون ، وهم قسمان : فمنهم الذي اشتغل واتقن ، ومنهم الذي ارتضى بدون ذلك ، فيخرج والشهادة في يده ، ويعيش مع ذلك عيشة ضنك وبؤس

والذي يدعى منهم بالمهندس حالته خير من حالة الذي دونه ، لان المهندس احسن حظاً من حيث الراتب ، وكذلك لان المستخدم لا يصل اليهم ، فالمهندس في بعض الاحيان يتفوق على صاحبه ، لانه اوسع منه علماً ، ولان ذلك يشتهيهم الميل الى الاقتحام والمشاغبة ، والشرق بأسره شهد لهم بالتصدر منه من بسالة واقدام وشجاعة وحماسة وعزيمة

ثم ما من احد يعثر على احد منهم ، حتى اقل الحادثة تؤول الى سفك الدماء . فمعلمهم ذلك قد اورث فيهم حرصاً شديداً على اعمالهم واقوالهم ، وتحفظاً في الخاص كما لا تجده عند غيرهم من الشعوب . وقد تعاونوا في المحاماة حتى انهم في عالم الاحياء لا تعثر عن حقيقة فكرهم وشعورهم . واما زعماؤهم فانهم يتقنون السياسة نظراً الى اضطرارهم الى

مداراة ربه وعمرو . ثم ان احدر مشحة على الخشبة حوفاً من عائلة
الوصلة . وربما عادة الأ[illegible] لك عدة وحشة ، كما في بلاد الشمال
الوصي ، تقوم مقام الحلة الفلوسية التي عندنا بين بلا كيد ولا مكر .

والدروز خصيصة اخرى عرفه ، وهي انهم ضيف ، فهم يقدمون
ويؤثرون بلا تصنع ولا [illegible] يعرفون بهم مستحدثون ، وقام طامن [illegible]
رأى ثولتي [illegible] الاعيان من عائلتهم يحطبون [illegible] من كبرائهم
وعندما كان يقول لهم : اسم ولي ، كانوا يحسونه [illegible] دم
عيدا اخوه ، لانك لا تعدم احد في بلادهم على وجه [illegible]

ويعتبرون الخمر والخنزير محرمين لاحلان ، وقد [illegible] دت
يوم احد عمال الاكثرية في دمشق ، فعرضوها ، وخوفوا ان [illegible]
ولما علم الباشا عمل اقامته ، عدة من الامراء من [illegible] ثان امراء [illegible]
فيا اذا الى او توانى في تسليمه ، فلامه صاحبه من شيخ [illegible] ، وهو
الذي اجاره ، وهو في داره . فغضب شديداً وقال للذي ارسله لامره :
متى كان الدروز يحبون الضيف ، ودون [illegible] ؟ قال الامير :
لا تسقط شعرة واحدة من رأس ولدي ، [illegible] دمت في قيد الحياة . فهدأ الامير
ساعة مدوية . [illegible] ثم تلحوق [illegible] فراد اجرته ، وأمر للحال بحلق
لحاف الامير من شوب فتنة وفرع في وسطه [illegible] شعرة في مرقدهم ، لاجل
ذلك قال الشيخ : [illegible] قطعه من شجاعة [illegible] شجرة توت كل يوم في ا
تسلم الامير ، فقطعوا له الف شجرة ، ولكنه [illegible] فعندئذ عفى
المشايخ الاحرون ، وتحرم [illegible] لتحوق ، وارتكب [illegible] شعر [illegible]
بسرعة [illegible] الاعاوز على حين غرة ، ومن عجب ان تدري [illegible] لحوق ،
لان ضيقه وشه على كونه هو السبب دول كل ما جرى

والطلاق جائزان عندهم ، على
انهاكهم في حراثة اراضيهم وزراعتها
مصطنعة . فهم
المدن ، واطمار الذي

يتعلمون قراءة القرآن كي يفهم انصاري ، ولا قراءة القرآن كما يفعل المسلمون .

انهم يجهلون العلوم الحديثة جهلاً تاماً ، ولكن عقولهم محصورة على الافكار الفاسدة المتحجرة . ولا ريب ان جهلاً كهذا خير من اصرار على ناقص . وهذا الجهالة التي تحدث عن هذا الجهل هي الجهالة التي في عقولهم ، مما جعلهم لا يشعرون كثيراً بالفرق الذي بين ما هم وما كان الذي بين كنائسهم وصلواتهم .

اخيراً لا ننسى عندهم ذلك اللون الشاعري الذي تجده بين طبقة واخرى عندهم من الشعر ، وهو اللون الذي يبدو انصار ، ولا يوقع شأن الكلام والشاعر ، وهو قول يصلون بتلك الكلمة التي لا تمت الى الاباحة ، ولا هي من شيء الجنون ، ولكنه هذا اللون الذي لا يألف من قرى احقر فلاح ، والخلوص منه الى خوان واحد .

وانصاري الذين يطلبهم هذه هي طبيعة شعوب العصور الغابرة في اصنع المخصبة بالحياة البدوية ، وهي التي اضطرت الامم بعضها ان تعد بها حياتها القومية . وشعب الذي يلتئم عنه بعد ذلك ما زال في اول مرحلة من التحول الاجتماعي .

المتاولة

يقيم المتاولة في الوادي الاعلى الذي يتصل بسهل عكار من جبال ولاية دمشق ، وهم شعب صغير مستقل بنفسه ، يختلف عن شعوب سورية الاخرى ، بتقاليده وعاداته ، ولم يكن لهم في ماضي سوى مدينة بعلبك وبعض القرى والاراضي الواقعة في الوادي المشار اليه . والحكام عندهم يقومون بعض المشايخ ، وهي رئيسهم وهم من آل حرفوش . وقد تكاثروا حتى وصلوا في القرن الثامن عشر الى اعالي البقاع ، ثم تغلبوا في لبنان ، واستولوا على اراض شاسعة اتساعاً ، ووصلوا حتى الشوف ، فاستصغر الامير يوسف ان يحمل عليهم وبدأهم على غفلتهم ، فاعلن ثورة بعض عمالهم حتى يهم ان يصلوا الى حوران صيرورة ، فاستاء صاحبا دمشق وصيدا من هذا التقدم الذي اخذوها يهددانهما ، ومن تقاعسهم عن ادآء اموال الدولة المستحقة عليهم ، وعدهم مما يؤول اشد العقاب بهم ، ولو ان ذلك لم يكن بالامر الهين . فاستهز الشيخ ظاهر العمر الفرصة ، وتوسط بينهم وبين والي ، متكفلاً بدفع الاموال المستوجبة عليهم ، وواعداً بمنع تعدياتهم وغزواتهم . وبذلك تمكن من استمالتهم اليه ، فكان هو الرابح ، اذ كان في وسع هذا الشعب ان يمده بعشرة آلاف فارس كاملي السلاح .

وبعد ذلك بوقت وجيز استولوا على صور ، وجعلوها ميناءهم . وفي السنة ١٧٧١ آزروا الشيخ ظاهراً وعلي بك المصري اذ كانا يجولان الاتراك . غير ان الامير يوسف احتاج الى بلادهم ، وكان الامير علي مقدماً من قلعة حرفي حينما ، وهم عائدون من دمشق ، فاحق به من الاذى ، فهب جمعة رجل منهم وهجم كالليوث على رجاله عازمين عزماً اكيداً على الموت في سبيل انقاذهم .

نهاية الأمر من السيطرة على الوادي كله وعلى مدينة مملكة ذاتها .

الشيخ ظاهر العمر

وكان حكمه مقصوراً على

شديد الخطر ؛ لكنه اتخذ الحيطة لعدم
الى ابلاغ صاحب صيدا الامر برسالة قال فيها
وقياد الامر ما ترضى ، وعصوه ما طلب . لكن الباب
في عيهم ، والاصرا على

[illegible]

[illegible] ارباب الدولة عليه ، فمكنا التي [illegible] عزم على تحصينها ، مشيداً في سنة [illegible] على نهر ، فحصلها مكنا له ، ثم ركب [illegible]

[illegible] اندافع الأربعة التالية المضروبة على علو خمسين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والهدايا الى ان توصل [illegible]

[illegible] وعدق يتوقد على الأد شيخ [illegible] كانوا في موطنهم يعانون الظلم ويسامون ذلا ، [illegible] في كعب الشيخ مساعيه في الدين ، والعدل

الاسراف والافراط في المدح ، وعاشوا

[illegible]

[illegible]

[illegible] وتقتحمه وارثه من بعده لحكم الدائم علوا او [illegible]

[illegible] الامرآء وحكا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فانهم ، ومع ذلك ظلت [illegible]

[illegible] الاعتدآء [illegible]

[illegible] الطعام [illegible]

الى عمق الصحراء [illegible]

[illegible]

هذا الاعتدآء كان [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اليه الملح [illegible] المعروف [illegible]

[illegible] هذا [illegible]

الشواطئ السورية ، فكان [illegible]

[illegible]

في مستودعاتها الى حين الحاجة [illegible]

لا سبيل ان الحرب ستشب بينهما لا محالة .

[illegible]

[illegible] تأكيداً على القضاء على الشيشة [illegible]
الى الشيشة وسائر [illegible]
الى انه يطلب منها اعداد خط له [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وعند انبثاق الفجر نزل في [illegible] الى معسكر العدو [illegible]

[illegible] فاقتحموا عليهم [illegible] واخذوا يعملون [illegible] ولم يكن من سادته الى الفرار، حتى [illegible] دارا حتى دخلوا على [illegible] ثلاث ساعة، [illegible]

[illegible] الحياة الا بعد ما اخذته اربعة

الأتراك في السهل [illegible]

[illegible] ونواحي المنطقة في تلك الأثناء.

[illegible]

الصنديد الذي كان يتحف بحديثه [illegible]

[illegible] ثم تركوا مواقعهم ولاذوا بالفرار [illegible]

مطاع تأییده وامداده

[illegible] احكم على تلك المدينة حتى جعل [illegible] ترتيب . اول عمل اتاه كان استيلاءه على [illegible] لا مولى له الا السلطان ،

[illegible] اى صاحب دمشق ، ولكن [illegible] صاحب [illegible] من شدة [illegible]

[illegible] و [illegible] ،

[illegible] على [illegible] ثم [illegible] ،

[illegible] على [illegible] مع كل [illegible] ،

[illegible] لم يجمد شط الباب العالي الذي كان [illegible]

[illegible] والاه يوم [illegible] الشيخ [illegible] الدفاع عنهم . لاحق ذلك [illegible] حتى علموا بان عليا ابن الشيخ [illegible] وحينئذ كان يدال لهم [illegible] .

[illegible] علي ، [illegible] من [illegible] ، [illegible] الجيش الكبير يرتمش خوفاً ، لاجل ذلك ما لبثت [illegible] ان تنطفي ، و[illegible] [illegible] ، [illegible] عسكرية [illegible] [illegible] باردة لسكان زحلة .

وكان [illegible] هذا الشعر [illegible] [illegible] لا [illegible] يوماً فيوماً [illegible] [illegible] حتى [illegible] من حياته [illegible] مدبد كانت القلاقل والا[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ايضاً كانوا قد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على حق في [illegible]

[illegible] كان يعتمد على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانوا [illegible] تعدياً على حقوقهم ، [illegible] في هذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من جراء كبر سنه ، لم يعالج الامر بفطنة ، بل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فبدأت تظهر عواقب خطاه في السنة ١٧٧٩ .

[illegible] الذي شرحه ، رأى ابرهيم ان الظاوف
[illegible] بعد يتوقع ان
[illegible] احدوا ثم انفسهم يتحدثون
[illegible] فعوض
[illegible]
[illegible]
[illegible] والنصر
[illegible]

[illegible] بعد ان دستشد انباء
[illegible]
[illegible] احد منهم قلب ابيهم . لاجل
[illegible] من الخليل ، والدهشة
[illegible] وهكذا انقضت تلك السنة
[illegible]

[illegible] في هذا الحين في
[illegible] ١٧٧٥ [illegible] ، فدينة عزة [illegible]
[illegible] ان في
[illegible] لاجل [illegible] ان
تسلمت و كادت تحيط [illegible] عليه

[illegible] شيء قد [illegible]
[illegible] ، وابرهيم يوجه الدفاه
[illegible] يحب ، لانه ضن بالمال على الجيش ، حتى

الاسلام ، وصحت طويته وكمال

ولما مر الشيخ [illegible] على
[illegible] مع
[illegible] صح
[illegible] الحالة عليه
[illegible] انقلبت الحالة ظهراً

[illegible] لكنه ، لكن العاصفة [illegible]
[illegible] ولا
[illegible] لحداثتها ، مع انه كان [illegible]
لكنه اعتاد ذلك

ويتحكر لي قائد [illegible] على
[illegible] ولا
[illegible] هالك في ما يجب [illegible]
المترم على الشيخ ، وفي [illegible]
ليس لدى الاتراك سوى [illegible] على
المدينة برًا ، ولا على الرسو [illegible]

ليس في وسعهم الا ان ترحل مصدر الفرسان والمغاربة ، فلا يبقى امامهم والحالة هذه سوى الرحيل

فاعترض ذكري وقال لهم ان مواصلة الرحيل من شأنها ان تعرض قافلتهم لخطر الهلاك ، فيهلك بذلك جميع ما لديهم من المال . ولكنه اعتقد ان الغني كيس تحمل ... من عدو الى صديق

ذلك هو الامر الذي كان يهم ... فاعلن ... ان ... لديه حاب صديقاً ... فرنسه فارعه ... فيه ... ان ... قبل ان يتم قول ابرهم .

... ذكري : الا تعلم ... ان ... يعرفون ان كيسه لا يزال يشغر في ... من المال الذي جودته ... ؟

فاعلمه ابرهم قائلاً : واما ... فلن ...

... ذكري وهو ... من العرب ... لا يعرف ... عنه ... عهود ... الواقعة حول ... ومن ... مدينة يافا ...

... الشيخ يواصل ... ومن ... وهو ...

... ذكري من هذه ... مجلس من ... مواصيه المعربة ... ومن الغرق ... من ... ابرهم

بان لا يطلقوا النار على الاتر ...

... للقتال ، وفي الغد عندما ... بالقنابل ، ردّ الشيخ عليهم باطلاق ا ... منه ، واما المدافع الاخرى على الدين ... ولم يحركوا ساكنا .

فلما رأى انه خين ... جهة الشمال ، وقصده ... حدائقه ، على ... اصابته في ... ، وقع على ... بالدم ... أسه ... ، ثم ... رأسه سقطه ... .

... رباطة جأش ، واما في ... مطامعه باسرها يجر ... الدسائس والخدائع ، وقد ... والمداهنة التين كان ابرهيم ... استتباب الامن في بلاده بشكل لم ... الصك به .

وكان متساهلا متسامحاً على ... ظل محافظ على عاداتهم وتقاليدهم

ميسور الحال ، وملابسه

اما الحلي فانه لم يكترث لها قط

؛ فقد ادى ثمانية آلاف قرش

وبعد ما استتب الأمور له في بشاور، عمل الخير على صدد وعكا، وعهد اليه في القضاء على العصاة الذين فقد الخزار الامر، مستعملا تارة القتال، وتارة [illegible] على الاستسلام، وبعد [illegible] القصر [illegible]

وفي السنة الثانية [illegible] الذي كان متحصنا في قلعة [illegible] الاسد [illegible] ابطالها حملا بعد [illegible] واستحوذوا [illegible] الاذلال القصوى [illegible]

[illegible] على مكان وصله، لبراعته في نظم [illegible]

[illegible]

[illegible] دخلت الاد [illegible]

علي بك المصري

والنتيجة . لاجل ذلك كا

مصاف الكتاب الاربعة والعشرين

المكاتبة رقم

لطريق عدة

ا

الامور على

شريف

الذي لدى السلطان

الذي رأى مصر

وصفاً ، فيقسمهم الى

يدعى في الاعلام

انطونيه

على طريق

[illegible] الجيش [illegible] ليلة [illegible] ، [illegible] ، [illegible] ،

العاصمة ، اذ المماليك والصعيد عصموا معاً عصمة صادقة على الاتراك ، الذين ما لبثوا ان لاذوا بالفرار ، منهزمين شر انهزام . وكان عثمان باشا اول المدبرين .

فالخليفان بعد فرارهما ذاك استوليا بسهولة على دمياط التي لم يكن فيها حامية تدافع عنها . واما القلعة فهي قائمة ، ولم يكن على اسوارها لا مدفع ولا مدفعيون ، بل كان على مقربة منها عدد من غرف المياه . وقد وقف على الاسوار بعض حملة البنادق الذين يحصدون بنيرانهم من يدنو . ولكن يظهر انهم كانوا يعتمدون بهذا العمل على المصريين فعمدوا على احلاء القلعة والاستسلام .

غير انه حدث ان بعض الجنود ، ومنهم ، ابن محمد بك ابو هنة ، ذهبوا الى دمياط في الزعيل اذ كانوا يتاجرون بحمول القلعة ، فاتاروا بك ذهن الشيخ وناصيف الذين حاولا مرارا من الاعوام ان يحكموا قبضتهما على هذا الموانل . غير انه لم يجسرا على سؤالهما ، بل عندما رجع ابن محمد بك من هو ورجاله بقصصهم وقصيصهم ، كانوا منهزمون من وجه عدو حاد في ثرهم ، فكان يرى على الطريق انوفه في مصر ، وعشرة ، وجماعة ، وجماعة ، واحدة واحدة مطروحة . وقد عزوا هذا الامر الفظيع الى الخيانة ، وقالوا ان علي بك مات فجأة في القاهرة ، واخفيه ان يحدث عندهم اثر مفاوضة سرية جرت ليلاً في حضرة محمد بك ابي الدهب .

وتحرير الخبر ان عثمان باشا عمد الى رسائل دهراً اذ رأى المقاومة لم تجد نفعاً . لذلك عهد الى احد عمدة طلي الباشا في مدينة غزة المصرية ، وحضه على الانفصال عن الصعيديين والانضمام الى دمشق . فقد القى الرجل في ذهن محمد بك بكثير من احداقة ان الدور الذي تقوم به في الجند على

دمشق ليس مشرفاً له . وانه يخطئ ان ظنّ ان السلطان يتركه على بك يفعل ما شاء ، من غير ان يُزيل له العقاب الذي يستحقه . ثم قال له ان تحدي على مدينة مقدسة كدمشق جريمة لا تغتفر ، وان من الخير ان يُفصل رضى على بك عن رضى السلطان ، وتخضع اولى بعرضك دوماً للاخطار مضحّياً بك في سبيل مطامعه ومطامعه كما فعل برق القسطلي .

فهذا الحديث كان له مفعول بعيد الذي في تحمد بك ورفقائه ، فمن ساعتهم شاوروا واقسموا على الصلح والصفح ان يعودوا في الحال الى القاهرة . فخرجوا دمشق ، وهم واجتمعوا السرعة الى مصر ، حتى لم يمضِ قدومهم ، حتى في أول شهر ذي الحجة القاهرة ست ساعات فقط .

فهذه الحادثة انتهت على ما في ظاهرها ، ولكن لو كان يعاقب القائد ، على ان الوقائع فيما بعد ، تخصص بالامر فيما بعد ، نظراً الى تضامن ابن بك الذي كان واقعاً تحت الجرح منه ، لاجل ذلك اضطرّ علي بك ان يكتم ما كان يعيش في صدره من الحقد والغضب ، واحد يترصد الفرص .

بيد ان حوادثه توالت حتى كانت سنة ثمانين لم تمضِ في سعده ، فعمل من جديد على ابعاد الى جيشه شيخ طاهر ، وعهد عهداً جديداً لاستئناف الحرب . اما ان حقد الذي ابيه حتى ثلاث السنة ، بدأ يقف له طاهر بالطبع . فكانت اول عبارة مني بها اعتباطاً . قرض ان اروس باوآه دمياط ، على عدة مراكب شحنها اروآ للشيخ طاهر .

وعقب ذلك امر آخر كان شديد الضرر به ، وهو فرار محمد بك . وكان حادث دمشق لا يزال عن باله ، لكنه تعامل الفتنة التي كان يكنها محمد بك تزداد في معاملته ، اي ان فتنت قلبه عبارة فاه بها عن عبد قصد التاجر السعدي الذي مر بنا ذكره . فقال له علي بك ذات يوم - هل ملوك الفرنج

فهم اسد اعتنيا. كاسى محمد ، احدهم الشاعر : كلا فانهم يحذرون من ذلك ، لان الاشداء الكبار يتمنون ان يخطفوا الباشا قبل الاوان (١) .

وهذا الجواب حار بقلب علي بك كالسهم ، ومنذ تلك الساعة احد ينظر الى محمد بك نظرته الى خصم شديد الخطر ، فعزم على هلاكه ، والحكي يدعى له ذلك اوعز الى جميع حراس ابواب المدينة الا يدعوا اى مملوك كان يخرج من المدينة بعد الساعة ... ثم امر محمد بك ان يرحل الى صعيد مصر وكان يتوقع ان يلقي الحراس القبض عليه ، فيقتلونه حيثما يقبض عليه ما يشاء .

بيد ان الامور جرت بخلاف ما كان يريده ، فكان من حسن حظ محمد بك ان تركه الحراس يرحل مع من كان معه من مماليكه ، لانهم لا يقدمون على مغادرة العاصمة الا عملا بامر خاصة . ومحمد بك احدث امره تتفاقم يوما بعد يوم .

ولما علم علي بك بما جرى بينه وبين نائبه ، لكن محمد بك حد الحيطة بنفسه ، فلم يجز عملا على الدنو منه ، فانطلق الى الصعيد وهو يشعر غيظا وحقدا لا تستتر في احشائه .

وفي الصعيد جرى حادث كاد يودي بمحمد بك حتفه ، وهو ان يوسف نائب علي بك تظاهر كانه مستاء من علي بك ، واقسم لمحمد بك ان يساعده في كل ما يريد عمله ، ولكن ظهرت دلائل من يوسف تدل على انه يضمر غدرا بمحمد في القريب العاجل ، فقبض محمد بك على يوسف وقطع يديه وساقه وارسله الى القاهرة .

وكان لمماليك محمد بك على ما اصاب من حسن حظ وثروة ،

(١) ان الشاعر المشار اليه هو الذي عين ان ذلك حدث

العجم اكثرهم ، وانحدروا الى خدمته ، وكذا فعل ايضاً العرب اتباع
ه هيم ، وبعثهم احمد ثرثم منه والحصول على ما يبتغي هم من الغنائم .
فمضى سنة اربعين يوماً صار لمحمد بك من الناس والقوة ما جعله يغادر نصيبه
ويأتي الى القاهرة ، فقد اقتنع منها بضرب خيمته على مسافة اربعة فراسخ منها .

فاضطرب علي بك اضطراباً شديداً وعد حدثان لا يدري ما يجب ان
يفعل . ثم قرر في نفسه لكي يكون المثل ، وهي انه سيرسل فرقة من عسكره على محمد
بك بقيادة اسماعيل بك الذي كان يثق عليه الاعتماد ، ويأمره هو وانصاره عند
اول فرصة .

فاسماعيل الذي كان له طموح في حادثة دمشق ، ما كاد يدنو من المدن حتى
انضم اليه ، ولما سمع كره قد نصب الاضطراب في صفوفهم ، فعادوا الى القاهرة
كأنهم منهزمون ، وهم كانوا يعدون الانضمام اليه في الخيش ، فعد العرب والمماليك
في ازهم واكرههم على الفرار .

ولم يرض علي بك ذلك ، فقد ربطة جأشه ، وهو يعد يفكر الا في انقاذ
حياته وصيانة ثروته ، فرجع على صاح بسرعة الى المدينة . واخذ من قصره
ما كان يريد حمله ، ثم عاد الى مرة مصطحباً معه ثماني مئة مملوك عزموا على
الوقوف الى جانبه في الضراء كما في السراء . وكان من عزمه التوجه الى الشيخ
ظاهر العمر في عكا ، حيث ان سكان نابلس وبلاد قطعوا عليه الطريق ، فاضطر
الشيخ ان يأتي ويرسل رسله لعرفات التي اعترضت طريقه ، فاستقبله الشيخ لدى
تظاهر الاخلاص الذي طبع عليه سوء فويه ، ثم حمله الى عكا . وكانت
مدينة صيدا محاصرة آنئذ ، وجيش عثمان بك ورجال الامير يوسف يضيقون
عليها الخناق . ولما استحسن الشيخ ، مقدرا ذي اعتنقه ، وقد رافقه علي بك
وتابعيه ، وكان عدد الجيش نحو سبعة آلاف فارس

وما أن علم الأمراء بفرارهم حتى عسكروا [illegible] وذهبوا الى مكان قريب من النهر [illegible] وحدث ذلك في شهر [illegible] لسنة ١٧٧٢ وهي معركة [illegible] وبقي [illegible] من سنة [illegible] ثالث آخرون [illegible] الجيش التركي الذي كان [illegible] من الجيش الجامع [illegible] كبيرة [illegible] الذين كانوا [illegible] [illegible] صيدا خاضعة للشيخ ظاهر [illegible] الدنكزلي [illegible]

ومن ثم بادر الشيخ [illegible] الى الاقتصاص من [illegible] الذين [illegible] [illegible] اللاجئين والنجدة التي [illegible] على بك قبل فراره من القاهرة فالمدينة التي كان [illegible] نابلس [illegible] فوصدت ابوابها في وجهها [illegible] الضرورة [illegible] وقد دام الحصار [illegible] شهر [illegible] [illegible] سوى [illegible] فاضطرت المدينة الى الاستسلام وكان ذلك في شهر شباط لسنة ١٧٧٣

واخذ علي بك [illegible] الرجوع الى [illegible] [illegible] لطانه على مصر [illegible] الشيخ كان في حاجة [illegible] [illegible] من اثر مفارقته [illegible] في شأن [illegible] [illegible] ذلك [illegible] سهلا وميسرا [illegible] من [illegible] شوقه الى الرجوع الى مصر

[illegible] على [illegible] وتحريض كاتبه رزق القبطي [illegible] يعتقد [illegible] قد [illegible] [illegible] وانتشر [illegible] هلاك محمد بك [illegible] كان [illegible] الاتراك يؤمن بالمنجمين [illegible] الى الدجالين [illegible] ويثق بكاتبه ويصدق تكهناته

وفي اوائل شهر [illegible] [illegible] من [illegible] في القاهرة [illegible]

قبل له فيها ... لقد سئمت مطرسة عبدك لعلق ؛ فمن يشتري بقدرغ الصبر وجوعك

فصل وحسون العبد الوفي الموعود به ، ومن عجب ان يدعى بصاحب الشيخ الذي حسن يحكه على الدنيا والصبر ، عاد بحكما ، مصطحباً معه المأدبة صعدي بقدمة عثمان ابن الشيخ ولم يحضر قط بياله ان وسائل دعاية احمد محمد ديث من ربها قسراً لكي يخدمه بها ، ويوقفه في المعج الذي نصبه له .

فوصل على ذلك في الصحراء وعندما هرب من صاحبة مصر ، التي حيثما من حلاوة الحياة ، عند رجوعه الى بعودهم مراد ديث الشاب الذي ولع بامرأة على بعد ، وكان محمد ديث قد وعده بتصديه الوصول عن عبده يرأس رجالها .

وقد كان مراد ديث يرى عن بعد الصحراء المقدر باقتراب الخصم ، حتى حل عليه ، والى وتصرات في صفوفه ، وقد رأى له في قلب المصحة ان يقبض على علي ديث ، بعد ما شاهد رايته ، فيقدمه قسراً الى محمد ديث الذي كان على مسافة قريبة .

فعلم محمد ديث بمرور بسرعة بعض الاخبار التي يثقل اصطناعها ، ولكنه لم يكن ليعرف الوجوه التي يسهل على الخائن ابتذالها ، وابرزه حسنة ابيضة واصفر الاوراق ، فقال له : اما عندك الدليل الذي يقبل موطني قدميك .

وفي اليوم الثالث ختم المشهد غوب علي ديث موقناً نسبه بعضهم الى تأثير خارجي ، وهو ان الصحراء ، وهو لعمر الحق ، اخر ما يعول الدم الذي دُمّ ، وعلى كل حتمت حياة رجل ، ثبت شهيرة بطلة اوربة اليه ، واوحد في كثيرين أمل ، حداه الخلاص عظيماً في الشرق .

ولا ريب انه كان رجلاً فذاً ، وانما من الخطأ عدّه من الرجال العظام والذين عرفوه حق المعرفة ، يشهدون انه كان مشغلاً بصفات سامية حال دون استفادته منها افتقاره الى العلم والثقافة .

وينصرف ضمناً عن بقية نعوت الغيب التي عدّه على الاقدام على اعمال خطيرة كثيرة المخاطر من التفكير ملياً بعواقبها والصرف النظر عن مباشرة ، وحثه التواتر في يمينه ، وعنايته حتى المحسن اليه ، بتعهد لوعوده عندما ، وبره بوعده ، فان امة يشغلها الفوضى تتغاضى حرصها على اخلاق افرادها ، وان انعدام الحصر في ... من الاعمال ، يصبح لك حيرته في اختيار المثل التي تؤدي الى اردياد السؤدد وعلو الشأن ، وعدم عمل ما في ... من الاهلاك نفسه .

واما الامور التي ... حق ملامة عليها فهي :

اولاً ... بيته الى الغرور ميلاً ... ، ... الفضل الى نفسه دون غيره ، وتلاعبه ... ، وخراب بلاده

ثانياً - خضوعه الى ... حة فعل الاثنان ، وعنايته على ... في ادارة دفة الحكم ، وتصرفات من حوله ... ، وتشطط فيهم الميل الى التشرد عليه

ثالثاً - وهنه ... صائبة ... ، وقراءة ... تعود عليه ، وعمله على الاعتبار بنفسه ... وكان حق عليه ان يحذر ... ، ... الذين ابتلا يفتش عقولهم خداعة ، وهم الذين في كل بلد يدعون حول ارباب الثروات ، طالبين سعة العيش عن طريق الغش والنفاق .

ومع ذلك لا يسعنا الا الاعجاب بما كان يبديه من الحكمة الذين ... ، وبراعته في السيطرة على مصر ، واذا كانت عيوب ثقافة ناقصة حالت دون ... ذراكه

ما هو الشعر الحقيقي ، فقد كان دوماً ان احراره ، وشوق كهذا ، يشعر به ذوو الشعور الوضيعة ، ولم يكن يعوزه الا ان يقرب اليه اصحاب الاقدار العلية والاخطار الاوربيون الذين شهدوا ارتقاءه فسقوطه ، يدهشون لعدم تذمر الشعب عليه ، ويحنون على اشعب تلون الطباع ، وحمد الخيل ، وقد فهموا ان الشعوب تصدر حكمها على سادتها ، وتحبهم او تكرههم ، وتعبدهم او تدمرهم ، بحسب ما يحكمون قد عشروا لها او يشروا وسائل معيشتها ، فالشعوب في حكمها الذي تصدره عليهم على هذا الاصل عادل ، ومن هنا كان رخاء مصر اضعف اخاره البلاد وصانعها ، وبلاء مصر اقوى عند الجميع ان ذلك كان على حساب المعيشة يجب ان تقدم على كل شيء ، حتى كانت فقر جمهور الشعب الى الخبز ، فمن حقه على الاقل ان يعرف من يدعه جائعاً وعارياً ، وهل يستصوب الشعب المصري رؤساءه ، وفيهم حكماء ، وسياسيون ، على سوء ما يعد لهم عليه من حكم وحسن حاله ؟ وما لا ريب فيه ان هذه احلالات والفروات كانت وبالاً على مصر ، فمن حروب دامت الى ايام الصرائب ، فانتقلت كاهل الشعب ، وعقد على مكة وحدها كانت تعدلها عشرة ملايين واربعماية الف ، وبعد ان خرج خمسة من البلاد لتغذية الجيش المحارب وجيش بحر البحار محتكرون من دوي حصوه من اولياء الامر ، لمجاعة هائلة اضنت البلاد في السنتين ١٧٧١ — ١٧٧٢ .

ما يكون مكان الشعوب والعرق المتصور في حدها ، على حق لتحطيم على حرب استرقاق ، وهو ان لها ، ولم تقسم عليه ، في بعد الارعة منه في ترويج التجارة مع بلاد بعيد ، وهي تجارة لا ينتفع بها الا عرقليل ؟

وهل اخطأوا تقديرهم في اسرافه اذ رده يؤدي ثمانين الف قرش ثمن قطعة حشر ، ولو عد المالقون المتاقفون كرماً مثل هذا التبذير الذي كان الشعب المصري وحده يتحمل وقره .

وما هو فضل علي بك ان عد مال ذ يحصل على مشقة في الحصول عليه ؟ اذن ليس من العدل ان يتصرف باموال الامة ليشبع هواه ، او يكافئ من يرضي مكافأتهم ، على خدمة خصوصية خدموه بها ، كما فعل مع قيم قصره [1] .

الحق ان ما دون عمل من اعماله اوحته اليه مبادئ العدل والانسانية ، بل كان الطمع والعسف الباعث على كل ما فعل . فهل يحسب بعد ذلك اذ . ورأيك الشعب الذي عامله بتعسف وتجبر ، لا يثني عليه ، بل يذمه ويكرهه ؟

---

(١) عندما رحل علي بك الى الحجاز ، وقد جر ثيلاً ، ضرب خيامه على مقربة من الاهرام ، وكان قد بنى بها اربع وعشرين بيتاً يبيت فيها ، وامر الدور كان مفروشاً بالطوب الاحمر ، اعرضه خمسة وربع . فلما عاد من الحجاز في خمسة عشر امر ان يهدم الدور ، فاعتذر علي بك بتقدم الليل ، فقال له : انت في سفر فعد هذا المال واعلم ان بيته صاحب ، وانا لا اعلم ما ان عاد من سفره ، اعد لي بيتاً ، لانه عندما رجع الى القاهرة سيمر امامه ، وعلى الرغم من استغاثات الكاشف فانه لم يرجعه قط .

وصف بعض ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

(من كتاب فولني عن مصر)

[illegible] احوال المصريين بعد موت علي بك [illegible] المصرية [illegible] من [illegible] ومحمد بك الذي [illegible] في شهر [illegible] سنة ١٧٧٣ [illegible] مصر [illegible] ثم [illegible] اليه ، اذ [illegible] في حقوق السلطان وطاعة [illegible]

وقد بعث الى الاستانة بجميع الاموال التي [illegible] علي بك [illegible] السلطان [illegible] وبعد موت علي بك [illegible] الاذن في محاربة الشيخ [illegible] المطلوب ، والانعام عليه بلقب « باشا القاهرة »

[illegible] محمد بك [illegible] كان الباعث عليها حقد [illegible] على [illegible] التي كا [illegible] مصر

[illegible] شيخ [illegible] هدوء ، هو الظاهر ، [illegible] في اقدامه على تلك الحرب [illegible]

كان يوحي اليه به حقده وطمعه ... فجهز جيشه تدافع عديدة ، وحاصر الصفديين اجانب ، عاهداً في قيادتهم الى الاسكندري « روميلي » . ونقل من السويس مدفعاً كبيراً طوله ست عشرة قدماً كان ملقى هناك منذ زمن طويل .

فرحب ظاهر في فلسطين في شهر شباط من سنة ١٧٧٠ . وبدى اقتداره من مرة رأى حاميته مؤلفة من رجال السيد ظاهر لم لا تقوى على المقاومة ، فسحبت منها ، وبعد استيلائه عليها ، أمر بهدمها الى ياد . فهذه المدينة التي كان فيها حامية ، واعتاد سكانها القتال ، لم ترض بالاستسلام ، فضرب الحصار عليها .

ان موقعها على سفح لا يعلو معظمه عن سطح البحر الا قليلاً . وهي مشيدة على تلة تحيط اشكالها ، وتتبع تحويدين تحو سبعة وثلاثين قدماً والبيوت قائمة على منحدرها ، تحدوها طرق ضيقة ، على كل منها قلعة صغيرة تشرف على ما حولها . ولا أكمة يحتمي بها سور عظيم سمكه ، لا يقل عن ثلاثة عشرة وتسع عشرة قدماً ، تخالطه قدمان او ثلاث قدم . والشرفات التي في اعلاه هي معدة لتلقي عليه من سور الحدائق والبساتين . وهذا السور الذي لا حدائق له ، قد قامه عن حدائق حيث شجر الجوز والليمون ينمو نمواً مدهشاً .

فتلك هي المدينة التي اعد عليها تحديث . وكان يدافع عنها تحو ستمائة صفدي يؤازرهم بعض السكان . وكان لديهم مدافع ، منها عشرون قطعة اربعة وعشرين بجة ، فمنها ما أخذهم على قواعد من خشب صنعوها لها بسرعة ، وجعلوا يعدون على ذروة الجبل ، يكبونهم به الشتائم والتهديد والوعيد . واطلقوا عليه نار مدافعهم ، فصاروا يقولون ان حقد واحدة يقوم مقام المقدرة والمهارة .

ولما رأى محمد بك ابو يحب احتلالهم قمة ، نصب خيامه وراء المدينة على اثر هذا المناورة الذي كان يجهل ان احرب الحقيقية لم تبدأ بعد . فالقمة لا تبعد سوى مسافة علوة عن مدافع القلعة ، والقنابل التي اخذت تسقط عليه ، لفتت نظره الى خطئه ، فبعد معسكر قليلاً ، لكن القنابل التي ظلت تنهال عليه ، اجبرته على اعادة ثانية ، فنصبوا حيمته بعيداً ، وهي التي شاهدوا كل الاسبان في تحريكها وتفتيشها ، وتصوروا حولها خيام بيادق .

وبما ان المدافعين عليهم اقدموا الا عليهم احتلال من اعصاب شجعان ، فقال والليمون ، وفعل باقي الجيش ما استطاع لاحتلاله ، وبه تحمل فاموا جريئاً في اطراف المعسكر ومن غير ان يفتحوا مناظر من شأنه ان يضرب معسكرهم ، واخذوا من ثم يطلقون على المدينة مدافعهم التي نصبوها على قمة تبعد عنها مئتي قدم ، فاصابهم المدافعون عن المدينة ناراً حامية حدثت الكثير من مهم .

ومن البديهي ان يتوصلوا الى فتح فجوة واسعة في جدار حائطه نحو ثلاث اقدام ، ولا من المحتوم ان يجتازوا بها ، فعبر اليها راموه ، ورموها وهم الى صهوة جيادهم ، فقيل لهم ان ذلك غير مستطاع ، فكانت المرة الاولى التي رضوا ان يسيروا فيها على الاقدام ، فتحكم بهم حشد مظفر عربيت تسرواتهم الفضفاض ، وشهم (١) ذي الكعبين ، وقصر المشرين ، وطرطاتهم وسيوفهم الاحدب ، وهم يتعثرون بالاقمشة وتتعثر على الارض من الدوائر والعرقيل .

وقد خيل اليهم ان الدور كله قد اختاروه لثالث المرة ، لكن المدافعين عن المدينة الذين كانوا يرون الامور على حقيقتها ، لم يتصدوا لهم حتى وصلوا الى ارض الفضاء التي ما بين المدينة والسور ، فاطلقوا عليهم حينئذ من سطوح البيوت ونوافذها وابلاً من الرصاص ، فادخل الرعب في قلوبهم وحملهم على الانسحاب

(١) كلمة تركية تعني رؤساء من جنود الجيش

وقد اعادوا الكرة مراراً بايعاز مراد بك ، غير ان مجاورهم لم تجدهم نفعاً . وكان محمد بك يرى كل ذلك ، فيتميز غيظاً . وقد دام القتال ستة وستين يوماً .

واما المحاصرون الذين كان عددهم ينقص على توالي الايام فاعوانهم على العدو ، فانهم ستموا انتظار مدد بدي كانوا يؤملون قدومه من عكا ، فاعوزوا مواصلة الدفاع عن المدينة وحدهم .

وكان المسلمون يعمون على المسيحيين قضاءهم اوقات في الصلاة ، وتعجبهم البعض في الكنائس على الغزل اي حرمة لهم . لذلك عزم بعضهم على معاوضة العدو في شأن تسليم المدينة اليه ، بشرط ان يؤمن على نفوسهم واموالهم واملاكهم .

وكان الاتفاق قد تم بين الفريقين عند دخول المدينة بعض المالك ، بشهر من فترة الهدنة التي طلب المفاوضة . وقد شرعوا في النهب ، فاوعزهم السكان ومن ان ذلك استوفى العدد ، فهجم عندئذ الجيش باجمعه على المدينة فشهدت يافا في ذلك اليوم من اهوال ما تقشعر له الابدان . لان مماليك قتلوا بحد السيف مئات من السكان ، والاولاد والرجال والشيوخ . ومحمد بك الذي كان متوعداً بقدر ما كان عدد ، امر بأن يؤتى برؤوس هؤلاء الضحايا الذين بلغ عددهم الفاً وثلثمائة ، وتوضع امامه بشكل هرم

فتلك السكينة الهائلة التي حدثت في ١٩ ايار سنة ١٧٧٦ نشرت الذعر في البلاد ، حتى ان الشيخ ظاهر نفسه هرب من عكا ، واقام مقامه ابنه علي بدي ما زالت سورية تذكره بشيء شجاعته ، مع كل ما شان سمعته من تردده المتوالي على نفسه . وقد ظن علي ان محمد بك لا يجرؤ على الهجوم بدي

فطعنه به . على ان المملوك ما ان وصل الى عكا ، حتى طلب منه رأس ابيه برهاناً على صداقته واخلاصه .

وما رأى به أحمد بادر المدينة التي عدت عصبة ثائرة مصريين . وه قاد الثائرون المردميون يحرضونهم ، حتى دفعهم حظر هائل ، وهو ان محمد باك الذي علم ان بعض الصناع كامنه لشيخ ثائر وقدهم كل ما يملك من ثروة ، توعدهم بالقتل ان لم يأتوه به في ميعاد ضربه لهم .

وقد ان حسن الصانع اقدم فعلاً من الخطر ، لان المملوك اصيب على حين غرة ترض حيث لم يجده سوى بعض فهلك وهو في ريعان الشباب ، ويعتقد سوريا ان موته كان عقاباً له لانه كان حرضه محمد الي الذي على حمل الكرمل ، ويروون انه كان هو يقود الى الي في هيئة شيخ جليل ، فيصرع قتلاً اعتدوا على هذا الشيخ الذي هو في زعمهم .

فلما ان ذاع خبر موته حتى قام جيشه من ساحته وعاد الى مصر ، فاستحاله الجند شكل عربة على مثال ما حدث له لدى انسحابه من دمشق

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣	١٦	هل بندك بعيدة	هل بلادك بعيدة
٥	١٩	الحرية الحق	الحرية الحقيقية
١٠	٨	يتآلفوا فيها تآلفاً	يتآخوا تآلفاً
١٢	١	غير أن لفظ هاتين العينين	غير أن هاتين العينين
١٣	٧	والشبية	والشبسية
٣٤	١	اقض وطر	امض وطر
"	١٩	والنصيرية لم تصل	والنصرانية لم تصل
٣٥	٣	تساعد انتشار	تساعد على انتشار
٣٨	٢	البلاد المتحدة	البلاد المتحدة
"	١٦	واوردوه حتفه	واوردوه حتفه
"	١٧	وحيشذ	ومنذئذ
٣٩	١٧	هذه الامم	هذه الأمة
٤٣	١	على سيد	على صيد
"	٧	الشمس اى	الشمس التي
"	١٥	حلّ علمها	حلّ محلها
٤٥	١٢	هو الحكم عليهم	هو الحاكم عليهم
٤٨	١٠	يرغب الا الصلح	يرغب الا في الصلح
٤٩	١	فاتفق ... اى نقل	فاتفق ... على نقل
٥٠	١٧	فضلاً من	فصلاً من

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٥١	٨	رحل متوالي	رجل متوال
٥٣	١٧	مالاً وافياً	مالاً وافراً
٥٧	٣	وهي الطاعة والصحة	هما الطاعة والصحة
٥٨	٦	في حريهم	في ضرهم
»	١٢	الزرع	الزراع
٦١	١٣	ينسايرون	فيتسامرون
٦٤	١٠	تضائل	تضاءل
»	١٢	افتحوا	اقتحموا
»	١٣	المختصين به	المتقصين به
٦٧	٥	نحو ثلاثا	نحو ثلاث
»	١٤	التأثير في	التأثير الحسن في
»	١٥	ما فرض	ما عرض
٦٩	٩	فيحي	احى
٧١	٢	الاعتراف له بالسعادة	الاعتراف له بالسيادة
٧٢	١٥	واكثر هزلاً	وكان اكثر هزلاً
٧٤	١٧	انهم ذو مال	انهم ذوو مال
٧٦	٧	جواب الملوك	جواب الملك
٧٧	٢	تلك الملحة	تلك الملحة
»	١٠	عثمان ووالديه	عثمان باشا ووالديه
»	١٢	كاخيه ابرهيم	كاخيه ابرهيم
»	١٣	اثار عليه	اشار عليه

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٧٨	٢٠	موقفاً	موقفا
٧٩	٤	ووقت الدرور	ووقف الدرور
»	١٢	العثاني مئة	الثاني مئة
٨٢	٤	اذهله هذا القدر	اذهل هذا القدر
»	٨	رحلت من	رحلت عن
٨٣	١١	أن يسترسلوا	أن يسقطوا اليه
»	٢١	يرّد	يرَد
٨٧	١٤	ساعة القتال	ساحة القتال
٨٩	١٤	افضى بها	افضى بها بعضهم
٩٥	١٦	كما يدعونه	كما يدعونهم
٩٧	١٩	رسائل الاقراء	رسائل الامراء
٩٩	٩	مملوك كان يخرج	مملوك يخرج
١٠١	٤	الجيشين الحلفين	الجيشين الحليفين
١٠٥	الحاشية — سطر ٣ — خيمة		خيمته
١٠٧	٥	رأى حاميتها	رأت حاميتها
١٠٨	١٠	قلعة	تلعة
»	١٦	عرضين	مريضين
١٠٩	٩	يؤمّن على نفوسهم	يؤمّن لهم نفوسهم

هدية « الرسالة الخاصة »
في سنة ١٩٤٩

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الجزء الثاني

﴿ الحقوق محفوظة ﴾

المطبعة الخاصة
زيد الحلبي صيدا لبنان

تمهيد

وفّ الى قرائنا الافاضل الجزء الثاني من كتاب الرحالة ڤرلي عن بلادنا فهو تتمة الهدية التي قدمتها « الرسالة » في العام الماضي . والكلام في هذا الجزء يتناول تفتيح هذه البلاد الى خمس ولايات او ايالات ، هي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وقد وصف المؤلف كلًّا منها كما كانت عليه ايام كان يتنقل فيها . ثم وصفها ، على اقتضابه ، مستهدياً للقارئ بما يطلعه عليه من الاحوال الماضية التي لم يبقَ اليوم لا كثرها من اثر . ثم عقب على ذلك كله بنظرة شاملة لخص فيها اقسام هذه البلاد وما كان يجبى منها من اموال السلطان ، وما يترتب على حمايته من منت وارهق وما الى ذلك . ثم تناول الكلام الصناعة والتجارة والفنون والعلوم وبعض العادات والطباع . . .

الّا ان حضرة استاذنا السيوفي أعفانا من مطالعة بعض آراء عقد لها المؤلف كلاماً طويلاً دون ان يكون فيها للمطالع الا الاستنكار والسآمة . فكان له فضل الاديب الناقد الذي يهمه فائدة المطالعين لا شهرة الابتداع .

وزاد فأفرد ، في ملحق قصير ، نبذة من مظالم الجزار ، اقتضبها من مصادر اخرى غير كتاب ڤرلي ، استكمالاً للفائدة عما يخص هذه البلاد مما يستدعي شكرنا الجم .

سوريا ولبنان وفلسطين

الجزء الثاني

تقسيمها الى ولايات او ايالات

بعد ما فتح السلطان سليم الاول سورية وانتزاعها من يد المماليك جعلها خمس ولايات [1] وهي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وعيّن على كل منها حاكماً مطلق السلطة . وقد طرأ بعد ذلك بعض التغيير على هذه الولايات من حيث الحدود ، واما الوضع العام فانه دلّ على حاله .

ولاية حلب

ان جانباً من ولاية حلب تتوالى فيه الاودية والجبال ، والجانب الآخر تكثر فيه السهول ذات التربة الخصبة ، فالعشب يسمو فيها بقوة ووفرة على اثر سقوط الامطار . ولكن لا فائدة ترجى من هذا الخصب ، اذ معظم

---

(١) كان الاتراك يدعون كل سلطة في كانوا معيّن عليها حاكماً بـ « باشا » وقواي في كلامه عن ولايات سورية قد حافظ على ذات التسمية التركية . واما نحن فقد استعملنا لفظتي « ولاية » و « ولاية » للدلالة على حاكم او البلد المعهود اليه فيها ، من غير ان نظن في ما كان عليه الكثيرون من امير اللصطلح عنه في دواوين الدولة العثمانية التي جعلت امرة الباشا منه في اول عهدها درجة [illegible] الوالي » فيها في الرتبة درجة « [illegible] » و « [illegible] » و « [illegible] » ثم بعد ان جعلت فرقاً بين « الايالة » و « الولاية » والمقصد من هذا واحد ، فهو متراوفتان .

(راجع « المنجد » للاب لويس معلوف اليسوعي) .

الاراضي تطل بوراً ، ولا ترى بقع مزروعة الا في جوار القرى والمدن ، وهي تعطي القمح والشعير والقطن . ويغرسون في الاراضي الجبلية الزيتون والتين والكرمة . ويزرعون التبغ في المنحدرات القريبة من الساحل . ويحفرون بشعر افستق الاراضي القريبة من مدينة حلب . واما المروج فانهم يتركونها لعشائر التركمان والاكراد الرحل الذين يرعون عليها انعامهم .

والولي هو نائب السلطان « والملتزم » العام [1] واما في ولاية حلب فانه يعهد في « التزام » الضرائب الى محصل ، ومدة التزامه سنة واحدة ؛ والبدل الذي يؤديه الى الباب العالي مقداره سبعمئة كيس [2] فضلاً عن مبلغ آخر من المال يناهز خمسة وثلاثين الف قرش يدفع له ارباب الامر واصحاب النفوذ في الاستانة ليشملوه بعطفهم ورعايتهم ، وبعد ان يدفع هذين المبلغين يحق له ان يتقاضى :

اولاً — عكوس البضائع الواردة والصادرة .

ثانياً — رسم على وعي القطعان التي يأتي بها الاكراد والتركمان كل سنة من ارمينية ونواحي ديار بكر لبيعها في سورية .

ثالثاً — خمس ما يستخرج من ملاحة « جبول » . ثم الضريبة المفروضة على الاراضي . وتقدّر جميعها بستمئة او سبعمئة الف قرش .

والي حلب الذي حُرم مصدر ارباح طائلة كهذه ، يتقاضى راتباً قدره ثمانون الف قرش ، وهو مبلغ لا يراعي نفقاته ، اذ عليه ان يصلح الطرق ، ويرمم القلاع ، ويقوم بنفقات الجنود الذين تحت يده ، ويبعث بالهدايا الفاخرة الى

---

(١) الملتزم هو من يعهد اليه شخص آخر بجمع الضرائب ، والاعشار او غيرها من حقوق معينة يدفعها لصاحبها بدل ريعها .

(٢) الكيس خمس مئات ليرة ؛ والليرة مئة قرش تركي صاغ ؛ والقرش التركي اربعون بارة .

الوزراء ليحظى برضاهم ويحتفظ بمنصبه . غير ان الباب العالي يعرف حق المعرفة ان ما يفرضه الوالي من الضرائب على الاكراد والتركمان ، والقرى والافراد ، يدرّ عليه الاموال الوافرة . ومما يروونه من هذا القبيل ان « عدلي » باشا الذي كان والياً على حلب حوالي سنة ١٧٧٢ توصل في مدة خمسة عشر شهراً الى جمع مبلغ عظيم من المال قدّروه بمليون وستمئة الف قرش ، مما كان يأخذه من الاتاوى ، ويفرضه من المغارم ، حتى صغر السكان منه فطردوه من مدينتهم شرّ طرد .

ومدة حكم الوالي تكون عادة قصيرة الاجل . ومن المحتوم عليه ان يحافظ على السكينة في ولايته ، تزاورة العربان والبدو ومثلي حندي ما بين راجل وفارس ، ويضم اليهم عند الحاجة الانكشارية [1] المقيمين في البلاد العامل عليها .

ويؤلف الانكشارية فرقة في كل من الولايات ويتحتم عليهم ان يكونوا دوماً متأهبين للحرب . ومما انهم يتمتعون ببعض الامتيازات والاعدادات ، فان الناس يقبلون برغبة على الانتماء الى سلكهم . وكانوا يتمتعون في ما مضى نظاماً خاصاً . غير ان حالتهم هبطت بمدئذٍ الى اقصى دركات الانحطاط . لذلك لم يبقَ للنظام القديم من اثر . فهم في الحقيقة شبه عساكر ، وليسوا سوى ارباب حرف وفلاحين وعمال كباقي اصناف الجنود ، لكنهم اقلّ طاعة واصعب انقياداً من غيرهم . فان استبدّ الحاكم ، وظلم الرعيّة ، كانوا اول من تثور ثورة العصيان . فهم الذين خلعوا عدلي باشا الذي مرّ بنا ذكره ، واعدموه

---

(١) طلع من فرقة الانكشارية مؤلف هذه الرحلة الاستاذ السوري سنة ١٩٦٠ وهي تعتبر منه في دمشق : باب توما (سوريا) — دير المخلص ، قرب صيدا (لبنان) .

من حلب ، فاضطرّ الباب العالي ان يعيّن والياً آخر بدلاً منه .

وتقتصّ الدولة من الانكشارية العصاة ، بقتلها زعماءهم ، لكنهم لا يستطيعون ان يتخذوا زعماً غيرهم ولكثرة ما عانى الحكام من المتعصب من هؤلاء الجنود الوطنيين ، قد اتخذوا جنوداً من الغرباء الذين لا اقرباء لهم هنالك وهم صقلان ، مشاة وفرسان . ويعدّون الفرسان وعددهم رجال حرب ، ويدعونهم « دولة » او « دلاتي » او « دلي باش » او « لاوند » ، وسلاحهم لسيف القصير والمدّرات والبندقية والرمح ويتعصبون بقلنسوة من اللباد الاسود اسطوانية الشكل ، ليس لها كاف ، طولها نحو خمسة وعشرين سنتيمتراً ، فلا تقي العينين اشعة الشمس ، وتزلق الحمولة من على رؤوس هؤلاء الناس الحليقة .

وسروج خيلهم يصنعونها على النمط الانكليزي من قطعة واحدة من الجلد ، يمدونها على مقعد من الخشب ، وهي مسطّحة غير مرتفعة .

واما كسوتهم فهي تشبه كسوة المماليك ، لكنها اقل اناقة . فثيابهم الداخلية واسلحتهم الصدئة ، وافراسهم المتباينة القد واللون ، تحملهم يشبهون اللصوص . والحقيقة ان معظمهم كانوا في الاصل لصوصاً ، وصاروا لصوصاً حتى بعدما صاروا جنوداً .

ان اغلب الجنود الفرسان في سورية اكراد وتركمان وقرمان قتلوا ونهبوا وسلبوا في مواطنهم ، ثم جاؤوا الى الوالي فوجدوا في كنفه محلاً ومأوى . وفي جميع بحار المملكة يتألف الجيش من الفراد على شاكلتهم . وبما انهم لا يتقيدون بنظام ، فان اخلاقهم تقال على حدها ، فهم آفة المدن والقرى ، لانهم يتعدّون على الجميع ، ويسلبون وينهبون لدى كل سانحة وبارحة . والجنود المشاة هم اسوأ حالاً ، وكانوا فيما مضى يُجندون من البلد ذاته الذي يقيمون فيه . وانه في العهد الاخير اخذ فلاحو تونس والجزائر ومراكش يتوافدون على

سورية لتجند فيها طلباً لعيشة عير متيسرة لهم في موطنهم ؛ فمن المغاربة اذاً تتألف الجنود المشاة ، وليس اخف منهم ، اذا ما يتكون من امتعة مقصور على بندقية صدئة ، وخنجر ، وحقيبة من جلد ، داخلها قميص وسروال « وطاقية » حمراء ، وحذاء . وراتبهم خمسة قروش في الشهر ؛ واذا نفقات اكلهم فالوالي يقوم بها . فحالتهم اذاً لا بأس فيها وراتب الفرسان ضعف راتب المشاة . ويجري تصنيفهم على حسب الاسلوب التركي القديم ؛ فيُحصَون شراذم ، والشرذمة عشرة رجال ، وقلما تكون كاملة العدد ، اذ الآمر المعهود اليه في صرف رواتبهم ، يبذل جهده ليحتفظ لنفسه بجانب كبير منها بانقاص عددهم الى اقصى حدّ مستطاع . وهم الرؤساء فانهم يغضون الطرف ، لان جانباً من مداخيل الاختلاس على هذا المنوال يعود اليهم . والوالي نفسه له طمع في الامر ، لانه الشريك الاكبر . واثلا يضطروا ان يدفعوا الرواتب تامة ، يتقاضون عن تركتيبه جنودهم من الاعتداءات او يقترفونه من الذنوب والعيوب .

«وفضلي كهذه قد حرّبت الخراب على معظم الولايات ، بما فيها ولاية حلب حيث لم يبقَ سوى اربعمئة قرية من الالف والمئتين المدونة في سجلات الميري . والتجار الفرنسيون الذين كانوا في حلب في القرن الثامن عشر رَوَوا ان معظم القرى القريبة من المدينة صارت الى الخراب ، لان اصحابها خلوها وجاؤوا الى حلب حيث تعمل عنهم عين الطالع الماني .

وقاعدة هذه الولاية مدينة حلب ذاتها التي تقع في وسط سهل منبسط يمتدّ بين نهري العاصي والفرات ، متصلاً من جهة الجنوب بالصحراء . والقلعة المشيدة عليه تربتها جيدة ، ويجري فيها سلسال لا يجف ، ويتبعث من حمأ عيناب ، ثم يصب في بحيرة واقعة على مسافة ستة فراسخ من حلب ، يكثر فيها طير القوق والطرف . وتتوالى من ثمّ ارياض الزاهية في الارض المنبسطة ،

على ضفتي جدول الماء بقرب المدينة .

وحلب هذه هي الطف مدن سورية ، وانظفها ، واحسنها بناء ، فمن ابن تلجها تعجبك مآذنها العديدة وقبب مساجدها البيضاء المستديرة ، فتريح ناظريك من رؤية السهل الاغبر الممل المحدق بها .

وفي وسط المدينة تل يحف به خندق ، وعلى قمته قلعة حربية ، تشرف على ما حولها ، فمنها يمتد البصر جنوباً وشرقاً الى نهر الفرات ، وشمالاً الى جبال بيلان المجللة بالثلج ، وغرباً الى سلسلة الجبال التي ما بين نهر العاصي والبحر . وقد صمدت للعرب مدة اشهر ، غير انها تعجز في عصرنا من صد اي هجوم كان ، فجدارها المنخفض القليل السمك خرب ، وابراجها الصغيرة ليست احسن حالاً ، ومدافعها الاربعة لا فائدة منها ، بما فيها المدفع الرفيع الطويل الذي غنموه من الفرس في حصار البصرة ، والثلاثة والخمسون انكشارياً الموكولة اليهم حراستها ، لا يقيمون فيها ، بل في حوانيتهم ، اذ الآغا قائدهم لا يجد فيها مكاناً يصلح لايوائهم . وفيها بئر يأتيها الماء بقناة محفورة من عين تبعد فرسخاً ونصف الفرسخ . وفي اطراف المدينة حجارة كبيرة مبعثرة ، فهذه قبور .

وهنالك تلال تجعل الدنو من القلعة سهلاً ، وعلى احدها دار الدراويش المشرفة على القلعة وجدول الماء . فحلب اذن غير محصنة ، مع انها باب سورية من جهة الشمال . واما كمدينة تجارية فهي ذات شأن كبير ، اذ فيها تلتقي القوافل الراحة والغادية ما بين ارمينية وديار بكر وبغداد وبلاد فارس . وهي تتصل بالخليج الفارسي وبلاد الهند من طريق البصرة ، وبمصر ومكة من طريق دمشق ، وبأوربة من طريق الاسكندرونة واللاذقية . والمتاجرة فيها تقوم بالمقايضة . واهم بضائعها القطن ، والصوف ، والغزل ، وانواع الحرير

المنسوج فيها ، والاقمشة الغليظة المصنوعة في القرى ، والنحاس ، والوبر ، وشعر المعز الوارد من الاناضول ، وبعض بلاد الاكراد ، والفستق ، والشاش الهندي .

وما تستورده من الخارج جوخ « انغدوق » ، ودودة القرمز ، والنيلة ، والسكر ، وبعض التوابل والادوية ، وبن اميركة الذي يأتون به حلة اذ استيراده ممنوع ، فيهرجونه بالبن اليمني .

والفرنسيين في حلب قنصل وسبع وكالات ، والكل من الانكليز والبندقيين وكالتان ، ولكل من الافوريين والهولنديين وكالة . وفي السنة ١٧٨٦ انشأت فيها الحكومة الفرنسية قنصلية ، وعهدت فيها الى تاجر يهودي مبي بدر من ساعته الى حلق لحيته لابتدي بالكسوة الرسمية ، ويشد السيف على وسطه . وكذلك الروس اتخذوا لهم داراً هنالك جعلوها مقراً لقنصل يمثلهم . والمعاملة الطيبة التي يجدها التجار الاوربيون في هذه المدينة ، لا يجدون مثلها في سائر مدائن الشرق .

وتأتي حلب بعد الاستانة وازمير من حيث كثرة السكان ، فيظن ان عددهم فيها يناهز مئتي الف نسمة . واما هواؤها فانه جاف وملائم للذين لم تعترهم الامراض الصدرية . مع ان وباء عربي الشكل ، يدعونه « حبة حلب » منتشر فيها وفي ما حولها ، وهو لم يكون في ابتدائه التهابياً ، فيصير من ثم قرحاً يدوم سنة . وهو يخرج عادة في الوجه ، فيترك فيه اثراً مشوهاً . ويزعمون انه يعتري ايضاً كل غريب يقيم في حلب ثلاثة اشهر . وقد دلت الخبرة على ان الخمج دواء له عدم استعمال اي ما دواء ، ولا يعرف له من سبب ، واما يظن انه ينعم من طبيعة الماء الذي يشربونه ، لانه منتشر ايضاً في القرى المجاورة وبعض انحاء ديار بكر .

وحمامها الذي كانوا يرجلونه الى بغداد ، حكايته ليست بمسطورة . وقد بطل استخدامه في نقل الرسائل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، لان قطاع الطرق كانوا يقتنصونه . واما طريقة رجله فهي انهم كانوا ينقلونه على الخيل الى المكان المراد عودته منه . وعندما يراد ارسال الاخبار ، تربط بطاقة برجله ، ثم يطلق سبيله ، فيصل من اسكندرونة في ست ساعات ، ومن بغداد في يومين . وهذا النوع من الحمام لا يختلف عن غيره الا بانتفاخ وحشوتة منخره الذي يكون مادة اطلس في غيره من الحمام .

ومنظر حلب من بعد يجلب اليها طيور البحر التي وجودها هنالك يستثير الدهشة . واذا ما صعد المرء بعد الظهيرة الى سطح بيت ، وحرك يده كأنه يلقي في الفضاء كسرات من الخبز ، رأى الطيور تنقض فجأة ، وتخطف وهي طائرة الكسر الملقاة اليها على سبيل التسلية .

ويلي حلب من حيث الاهمية مدينة انطاكية التي اشتهرت في سالف العصور بزهو سكانها . فهي اليوم بلدة خربة ، منظر بيوتها المبنية بالقش ، وطرقها الضيقة الحارة يدل على فقرها وبؤس اهلها . والبيوت قائمة على الضفة الجنوبية لنهر العاصي بقرب جسر قديم خرب . ويعلوها جنوباً جبل عليه سور شيده الصليبيون ، وهي تبعد عن الجبل بحر الف ومئتي قدم . وفي هذه المسافة تتوالى الحدائق والخرائب .

وانطاكية اكثر ملاءمة من حلب لسكنى التجار الاوربيين ، واقامة مستودعاتهم عليها . فلو ارادوا من مصب نهر العاصي الطمي المتراكم فيه — والمصب يبعد ستة فراسخ عن انطاكية — سهل على المراكب صعوده ، وانما يصعبها ، كما ان بحره شديد الانحدار ، لذلك يدعوه السكان « العاصي » . ومرفأه داخل المدينة يقارب اربعين قدماً . وعلى مسافة سبعة فراسخ من مصبه صعوداً

يجتاز بحيرة ينمو فيها السمك ولاسيما الجرّي او ثعبان الماء الذي يقتدرون منه كل سنة مقادير كبيرة .

ولم يبقَ في انطاكية اثر لعبة « دمنة » او ذكر للمشاهد الدمارية التي كانت تمثل فيها . واما سهلها فقرته جيدة ، الا انه بور ، وقد ترك لقبائل التركمان الرعاة . غير ان الجبال التي الى جانبي النهر تكثر عليها بساتين التين والكروم والتوت التي شجرها ممروس بسوق لطيف لا مثيل له في غيرها من الاماكن . والملك المقدوني « سلوقيوس نقاتور » الذي شيّدها ، قام ايضاً على ضفة العاصي عند مصب النهر مدينة حصينة دعاها باسمه ، لا يرى اليوم منها الّا انقاض ومنارة في صخر مجاور ، وبقايا رصيف مرفإ .

وعلى مقربة من ساحل البحر نحو الشمال جبال عالية دعاها واضعو تقاويم البلدان الاقدمون « رسوس » ، وهو ذات الاسم الذي ما زال باقياً حتى الآن في تسمية « رأس الخنزير » التي تسمّى بها زاوية هذا الساحل .

والخليج الذي يزداد وغولاً شرقيّ الساحل ليس فيه ما هو جدير بالذكر سوى مدينة الاسكندرون التي على شاطئ البحر ، مع انها قرية لا سور لها ، قبورها اكثر من بيوتها ، وهي الثغر الوحيد في سورية كلها حيث تستطيع السفن القاء مراسيها من غير ان تتقطع حبالها . غير ان محذوراته كثيرة واضراره جسيمة ، فهواؤه موذٍ ، وشتاؤه شديد الرياح كثير العواصف ، واكثر رجال البحر الذين يقضون الصيف فيه ، يموتون بامراض تعتريهم ، وهي امراض تنشرها المستنقعات التي تكثر في جواره .

والتجار الاوربيون المقيمون في حلب لهم في الاسكندرون وكلاء ومستودعات . ولا شيء فيها يسترعي النظر سوى ستة او سبعة ضرائح من رخام حجري بيا من انكلترة ، كتب عليها : « هذا ضريح فلان الذي مات في

وبيان الشباب متأثراً بالهواء الموبوء » . والذين يبرأون من مرضهم يقضون فترة النقه في بيلان الواقعة في قلب الجبال على مسافة ثلاثة فراسخ ؛ وهي بلدة هواؤها نقي وماؤها عذب زلال .

ولما ضاق تجار حلب الاوربيون ذرعاً بحصار الاسكندرون ، فكروا في نقل مستودعاتهم الى اللاذقية ، فاقترحوا على الپاشا صاحب طرابلس اصلاح مرفئها على نفقتهم نظير اعفائهم من المكوس والضرائب لمدة عشر سنين ، وابانوا له ما ينعم من ذلك من الفوائد في مستقبل الايام ، فاجابهم : « مالي والمستقبل ؟ كنت امس في مرعش ، وقد انتقل غداً الى جدة ، فلمَ احرم نفسي الحاضر الاكيد في سبيل مستقبل غامض لا امل لي فيه » .

وفي وسط الجبال شمالي حلب ، مدينتا كلس وعينتاب الآهلتان سكانها ارمن واكراد واتراك . وهما انهم يعيشون جميعهم في سلام ووئام ، فلا يستطيع الحكام الاستبداد بهم .

وعلى مسيرة يومين من حلب شمالاً شرق بلدة « منبج » التي كانت تعرف قديماً باسم « بمبيس » (Bambyce) . ولم يبقَ فيها اثر لهيكل الالاهة السورية التي وصف عبادتها لوكيانوس . والامر الوحيد الجدير بالذكر قناة محجوبة طولها اربعة فراسخ يسيل الماء فيها منحدراً من الجبال ، وكانت المجاري المماثلة لها كثيرة في هذه الارجاء ، اذ الاشوريون والبابليون والفرس كانوا يعتقدون ان الذين يفرض عليهم جرّ الماء الى الصحارى لاتقاء وسائل الراحة والرفاهة ، لاجل ذلك يرى ما بين بقعة واخرى آثار حاجة تدلّ على ان البلاد كانت آهلة في العصور الخوالي ، وتلك الآثار هي انقاض قرى قديمة ، وصهاريج خربة ، وبقايا قلاع وهياكل ، واقعة جميعها على الطريق التي بين حلب وحماة .

وفي السهل الواسع الذي في تلك الانحاء عدة تلال بيضوية الشكل وهي

من عمل البشر ، ومنها تلّ « خان شيخون » الذي طول دائره الف واربعمئة قدم ، وهو شاهد ناطق بالجهود العظيمة التي كانوا يبذلونها في اقامة مثل هذه التلال التي تتوالى بين فرسخ وآخر ، وعلى جميعها انقاض قلاع واطلال هياكل ، لأن الاقدمين كانوا يؤثرون القيام بفرائض العبادة في الاماكن العالية .

واما الآن فبدلاً من تلك الحدائق والبساتين ، لا يرى المرء الا اراضي باثرة مهملة ، مع ان تربتها جزيلة الخصب ، وما يزرعونه في بعضها من القطن والسمسم ينجح نجاحاً تاماً .

وجميع الاراضي الواقعة على حدود الصحراء ، ليس فيها ماء جار ولا ينابيع ، وماء الآبار مالح ، والامطار التي يعلقون الآمال عليها لا وجود لها الا فيا ندر . لاجل ذلك ما من شيء له منظر كئيب كما لتلك الاراضي الماحلة القاحلة حيث لا شجر ينمو ولا عشب ينبت ، او لهذه المساكن المبنية بالطين التي تتألف منها القرى ، او لهؤلاء القرويين البؤساء المعرضين دوماً لعسف الحكام ، وجور الظلام ، وتعدي البدو .

والعرب المقيمون هنالك يدعون « الموالي » ، فهم اغنى واقوى القبائل العربية طرّاً ، بعضهم فلاحون ، والبعض الآخر يؤاررون عرب نجد في تسيير القوافل ما بين حلب والبصرة ، او دمشق او طرابلس عن طريق حمص .

ولاية طرابلس

تشمل ولاية طرابلس البلاد الممتدة بمحاذاة البحر الابيض ما بين اللاذقية ونهر الكلب . فحدودها غرباً مجرى هذا النهر وسلسلة الجبال المطلة على نهر العاصي . واكثر جانب منها جبلي ، وليس فيها ارض منبسطة الا تلك التي تقع بين طرابلس واللاذقية . وجداولها العديدة تجعلها كثيرة الخصب ، واهم غلتها القمح والشعير والقطن . غير انهم لايهتمون كثيراً بفلاحتها ، لانهم يفضلون عليها الاراضي الجبلية .

وحاكم طرابلس مطلق السلطة في الشؤون العسكرية والمالية ، ويتقلد الحكم لسنة واحدة يبذل قدره مئة وخمسون كيساً يؤديها الى الباب العالي ، وعليه ايضاً ان يقوم بنفقات الحرة التي تقدر بسبعمئة وخمسين كيساً ، والحرة هي القمح والشعير والارز التي يذهب بها الى ثغر الحجاج في البادية ، فيعتاض من ذلك بالاتاوى والمغارم والضرائب والمكوس وما يتقاضاه من تلزيم بلاد النصيرية ولبنان . والمال الذي يدخل عليه من هذه المصادر وافر جداً . وعليه كذلك ان يقوم بنفقات الخمسمئة فارس والجنود المغاربة الذين تحت يده ، وهؤلاء ليسوا احسن حالاً من رملائهم الذين في حلب .

والحكام الذين تعاقبوا على طرابلس ، حاولوا مراراً ان يديروا هم انفسهم دفة الحكم في بلاد النصيرية والدروز . غير ان هذين الشعبين كانا يقاومان باسلاح دخول الاتراك الى بلادهما ، لذلك اضطروا ان يعهدوا في حماية الاموال منها الى « ملتزمين » يرضيان بهم . ومدة الالتزام سنة واحدة ، والحاكم هو الذي يطرحه في المزاد ، فيتزاحم الاغنياء لأخذه ، وهكذا يستطيع الحاكم ان

يثير التحاسد والاضطراب في تلك البلاد ، جاعلاً بيدها مضطرمة على الدوام ، وذلك ما فعله الفرس والاشوريون في البلاد التي كانوا يسيطرون عليها .

ففي اواخر القرن الثامن عشر كان ثلاثة رعمّ او متقدمين يتزعمون بلاد الصيرية . واما بلاد الموارنة والدروز فان التزامها كان معهوداً فيه الى الامير يوسف ببدل قدره ثلاثون كيساً .

واول مدينة جديرة بالذكر في هذه الولاية ، طرابلس ذاتها ؛ فهي قاعدة الحكم ، وتقع على مسافة ربع فرسخ من مصب نهر « قاديشا » ؛ ويفصلها عن البحر سهل صغير مثلث الزوايا ، اتساعه نصف فرسخ ، في طرف البلدة التي ترسو المراكب بقربها . وليس هناك مرفأ ؛ واما الخليج الذي ما بين الشاطئ والصخور المعروفة بحجر الارانب والحمام ، فان المراكب تحذر الرسو فيه بكثرة الصخور التي في اسفله ولا يأمن من تعصف بشدة على جميع هذا الشاطئ . وفي عهد الصليبيين كانت تحمي الخليج ابراجٌ رأى قواي سبعة باقية منها .

وعلى مقربة من طرابلس مساقي التوت الابيض والرمان والبرتقال والليمون ، وهي اشجار تحمل احسن الاثمار واندّها . ويكثر هنالك الصنّار الذي ينبت بشكل غير منتظم .

وقد يبدو ان السكن في هذه المدينة مستطاب ، الا انها معرضة لانتشار الاوبئة فيها ، وعلى الاخص في فصل الصيف ؛ فهي من هذا القبيل كقبرص والاسكندرون ، اذ يسابين التوت القريبة منها يغمرونها بالماء لحين الاشجار تورق ثانية ، فيحدثون مناقع عديدة . ثم ان المدينة ليست مفتوحة الا من جهة الغرب ؛ لذلك لا يهبّ عليها النسيم ، فالهواء يشعر فيها بتعب ونصب دائمين . وفي الميناء الهواء اكثر رطوبة منه في المدينة ، الا انه

ثقي وامرأة لابسة طاقية .

وفي الساحل الجنوبي للبحر المشار اليه ، كثر مساكن ، وعدة محلة داخلة في الارض او معشاة بزوال البحر ، وهي التي استعمل الصايدون الكثير منها في الاسوار التي شيدوها

وتجارة طرابلس تقوم بالحرير الخشن الذي يصنعون منه قفاطن ، الآن صنعها آخذ بالتضاؤل لوار اشجار التوت التي لم يبق منها سوى سوق منحورة . واصحابها لا يقدمون على نصب غيرها ، او على احداث بناء جديد ، لئلا يصدهم الحاكم مثلين ، اذ من يعرف عنه انه يحرز مالا ، طلب منه تأديته ، فان أبى او تنكر ، ضرب ، وان اعطى ضرب ليعطي اكثر فاكثر .

واطرابلسيون يأبون الخروج ، بالقب الاشكنازية الذي يتحدونه ، والمهنة الحضرية التي يشتغلون بها ، متحدين دعة الاشراف ، بجهلهم على العصيان . فهي اواسط القرن الثامن عشر ، اثار احقاد ثائرهم ، وردهم الى اليأس . الناتج من اعمال الجور والاستبداد ، فطردوه ، واطلوا ثورية اشهر مستطيل الثورات . فساب العالي بعث اليهم جملا من سالب الدقن ، لتوصل الى اخضاعهم بتكبيله لهم الوعود الخلبية وقسمه الايمان المحرجة ومنحهم العفو والامان ، ثم انتهى به الامر الى حتف ثمانية منهم في يوم واحد ، وهم الذين ترى صورهم في مغارة قرب « قادوشا » .

والفرنسيون الذين هم في طرابلس قناصل وتجار وكالات ، يقتاضون على الحرير والاسفنج المستخرج من قعر الخليج ، بالخروج والدرهة الفرنسية ، والسكر ، والبن الاميركي . وتلك هذه الثمر هو دون اللاذقية الحمية .

ومدينة اللاذقية التي انشأها « سلوقيوس نقاتور » وسماها « لاودرقية » تقع على الشاطئ الجنوبي لقعة ارض مستطيلة داخلة تصف فرسخ في البحر .

وميناؤها كبافي موانئ التي على هذا الساحل ، يحيط به رصيف من الحجارة ، وله مدخل ضيق ، ولكنه يسع خمسة عشر او ثمانية مركبا بعد ان اصلحوه ، فقد اكتشفت فيه الحجارة والاعمدة حتى انه لم يعد يسع اربعة مراكب ، والسفن التي يريد تحولها على اربعمئة طن لا يمكنها ان تقوم فيه ، وكثيراً ما تجنح السفن عند مدخله ، ومع ذلك فان التجارة في هذه المدينة راجحة ، وعلى الاخص تجارة النسيج الذي يشتغلون منه سنوياً الى ثمانية عشرين مركباً ويأتيهم بدلاً منه الارز الذي يقايضون عليه بالزيت والدهان في سوريا العليا ، وفي مصر « صيداويون » كانوا يبعثون الى مصر عن طريق الاسكندرية بمقادير كبيرة من البريد المشهور المستخرج من صدف الكيوس التي على شاطئ احمال ، ويقدرون عدد سكان كل من طرابلس و بلادفية باربعة آلاف نسمة .

وعلى الساحل الذي ما بين هاتين المدينتين جملة قرى كانت في العصور الخوالي معدودة بحصونها ، كعمريت وطرسوس وغيرهما ، وهناك اطلال كثيرة تدل آثارها التي اندثر اكثرها منها ، انها كانت عامرة في سالف الزمان ، ومنها جزيرة ارواد او ارادوس القديمة الشهيرة بذكرها ، وهي التي روى منها « صيداويون » ان دورها كانت اكثر طبقات من بيوت رومة ، وعامل حريته التي كان ينعم بها سكانها عوا وتكاثروا حتى اصبح عددهم عظيماً ، وكانوا يداومون الملاحة ، ويمارسون الفنون والصنائع ، والجزيرة اليوم خالية خاوية ، حتى ان النقل لم يحفظ لنا ذكرى عن المآذن الذهب التي شيدها الارواديون في قاع البحر فكانوا يستمدون الماء منها بقصع من الرصاص واسوب من جلد يركبونه عليه .

والى الجنوب بلاد كسروان الممتدة من نهر الكلب حتى طرابلس ، واكبر مدنها جبيل و بيبلوس القديمة التي عدد سكانها ستة آلاف ، وميناؤها

كرما اللاذقية . ونهر ابرهيم هو نهر ادونيس ، القديم الذي يبعد فرسخين الى الجنوب ؛ وعليه جسر بقوس واحدة ، فتحتها خمسون قدماً ، وارتفاعها ثلاثون . ويدل شكله على ان العرب هم الذين شيدوه .

والاوربيون يترددون الى اهدن وكفرصي التي فيها معهد للمرسلين . وفي فصل الشتاء يقصد جمهور كبير من الفوريين الى الساحل تاركين بيوتهم التي طمرتها الثلوج ، في عهدة بعض الحراس . وتبعد بشري عن غابة الارز ثلاثة فراسخ ، مع ان الرحل لا يستطيع قطع هذه المسافة الا في سبع ساعات . ويدّعي قوانلي ان اشجار الارز هذه الدوحة الشهيرة ، تشبه عجائب الدنيا الاخر . فان دنوت منها ، رأيت ان صيتها يفوق حقيقة حالها . ويقول ان هنالك اربع او خمس شجرات ضخمة ، ليس لها اية صفة خاصة ، ولا هي جديرة بما يكابده المرء من المشقة في سبيل رؤيتها .

وعلى حدود كسروان مسافة فرسخ واحد من نهر الكلب تقع قرية عنطورة الصغيرة حيث كان للآباء اليسوعيين دير حسن الموقع ، قريب من الساحل ، يشرف على الوادي الذي امامه . وعلى مقربة منه عين غزيرة الماء تسقي بساتين الدير وكرومه . وكان الآباء رموا في ان يضموا اليه دير سيدة بيعد نحو ربع فرسخ . غير ان الروم الكاثوليك الذين هم اصحابه لم يوافقوهم على ذلك ؛ فاقاموا ديراً آخر الى جانب ديرهم دعوه دير الزيارة . وكانوا قد بنوا ايضاً على بعد مئتي قدم مدرسة اعدوها للطلبة الموارنة والروم الكاثوليك ؛ لكنها بقيت خالية . والكاثوليون الذين حلّوا محلهم لهم هنالك كاهن واخ مساعد .

ولاية صيدا

التي يقال لها ايضاً ولاية عكا

الى جنوب ولاية طرابلس ، وعلى طول ذات الساحل ، ولاية ثالثة دعيت باسم صيدا ، وهي المدينة التي كانت قاعدتها . ويمكن ايضاً تسميتها ولاية او ايالة عكا . فقبل الشيخ ظاهر كانت تشمل بلاد الدروز ، وجميع الساحل الممتد من مجرى نهر الكلب حتى حمل الكرمل . وبقدر ما كانت سلطة الشيخ تنمو وتتسع ، كانت البقعة التي يسيطر عليها الوالي تصغر وتضيق ، حتى انها لم تعد تشمل سوى مدينة صيدا وحدها التي طرد منها في نهاية الامر .

غير انها ما فتئت ان استعادت حدودها السابقة على اثر اضمحلال سلطة الشيخ ، والحراز الذي خلف الشيخ في الحكم ، ضمّ اليها بلاد صفد ، وطبرية ، ومدينة قيصرية التي كان يحتلها عرب بني صخر ، وعكا التي كانت تابعة لولاية دمشق ، ثم نقل سكنه الى عكا ، للاستفادة مما احرزه فيها الشيخ من العمران . وهذه الولاية بعد ان تُمم اليها ما ضمّ ، صارت تشمل جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب وقيصرية فلسطين جنوباً ، والبحر المتوسط غرباً ، ولبنان الشرقي والجانب الاعلى من نهر الاردن شرقاً .

فتلك الاراضي الواسعة قد راقت الولاية شأناً ، واعطتها مزيتين حسنتين ، هما الموقع والخصب . فسهول عكا ، ومرجعيون ، وصور ، والحولة ، والبقاع الاسفل ، اشتهرت بجودة تربتها ، وبما يزرع فيها من شعير ، وذرة ، وقطن ، وسمسم ، يعطي عشرين او خمسة وعشرين ضعفاً . واراضي قيصرية فلسطين فيها غابة من شجر البلوط لا مثيل لها في سورية باسرها . واراضي صفد بنت

فيها قطن يحاكي قطن حوران قبرص ، وما يزرع من التبغ في الاراضي الحمائية التي في حوران صور يضارع بجودته تبغ اللاذقية ، بل هنالك بقعة يُجنى منها صنف له رائحة عطرية كرائحة القرنفل يبعثون به الى القصر السلطاني في الاستانة . ويتوافر في بلاد الدوز الصيد والحرير .

وتُعدُّ هذه الولاية بتقدمها لدمشق وسائر سورية ، بفضل موقعها على الساحل وكثرة خلجانها .

والوالي حاكم مطلق السلطة ، ومقرّه عاصمة الولاية ، فهو يدفع سنوياً الى الباب العالي مبلغاً ثابتاً قدره سبعمئة خمسون كيساً . وفضلاً عن ذلك ، فعليه أن يموّن قافلة الحجيج ، على غرار زميله والي طرابلس ، مقدماً للقافلة من الارز والقمح والشعير ما يساوي مئة وخمسين كيساً . والالتزام مدته سنة واحدة يمكن تجديدها . وأما دخله فهو أولاً : أجرى أو ضريبة الارض . — ثانياً الاموال المفروضة على الدروز والموارنة والمتاولة وبعض عشائر العرب . — ثالثاً المال الجزيل الذي يدخل عليه من الركّان ومن طريق الاتاوى والمغارم . — رابعاً المكوس التي تُحمل بدل الزامها عن جميع الموانئ والخلجان الف كيس .

ومما كان يأتيه ايضاً ملايين الطائفة استملاكه الاراضي الموسعة ، وتسليفه التجار والفلاحين المال بارباح ، مما يجنيه من ذلك يربو على ثمانية ملايين قرش .

والأولياء الامر في الاستانة خطة لا يحيدون عنها ، وهي حمل المال المفروض على الملتزم ثابتاً ، اي تركه بلا زيادة ولا نقصان ، مهما كثرت الارباح ، ولاجل ذلك يبذّرونه بجمع المال بأمان واطمئنان ، حتى اذا جاءت الساعة توصلوا بمعض الحجج الى الاتيان اما برأسه او بصندوق ماله

فالباب العالي رضي من الحرار نظراً الى خدمته ، فهو الذي مهد السبيل الى

القصاء على الشيخ ظاهر العمر واولاده ، وقمع عرب قبائل صخر ، وخفض جناح الدروز ، وكسر شوكة المتاولة فلاجل ذلك احرز له الانتصارات ، ومنحه رتبة «باشا» ولقب «وزير» . ولكن الباب العالي ما لبث ان داخله الارتياب من اشاعاته الطامح ، فنشأ في قلبها شعور دفين على تضعضع الثقة ، مما حمل الحزم على اتخاذ الحيطة لنفسه ، فعمل بجمع الجنود ، عاداً جهده طول معظم افراد جيشه من مواطنيه الشوام والارناؤد ، حتى اصبح عددهم نيفاً وثلاثة آلاف فارس ، ذلك علاوة على الالف مغربي الذين كانوا تحت يده . وكان له ايضاً اربع مئة جربية عنهم من صحاب جربة خاصة .

فتلك الاحتياطات التي تظاهر باتخاذها احدثت اثراً سيئاً في نفس من المعاشات . لكن الباب لم يقف مكتوف اليدين ، بل كان دسّ اليه «الموجبين» عاضداً اليهم في اغتياله وتجريده ، فلم يكن عاقلاً عن مكرهم الملدوين ، فكان يراقبهم مراقبة شديدة ضد مساعي وصولهم . فالزعم العثماني الذي اورد اثنين او ثلاثة منهم حتفهم ، احدث رعشة عيرهم في الاقدام على اغتياله .

وكان له في ديوان الاستانة ، وفي القصر السلطاني ذاته مواسير واصدقاء يحمل لهم الهدايا والعطايا ، فهم الذين توصلوا بعد شهر الى حمل اولياء الشأن على اسناد ولاية دمشق اليه . وذلك ما كان هو يرمي فيه ، لان ولاية دمشق اعظم ولايات سورية قاطبة . وقد تخلى عندئذ عن ولاية عكا لمملوك يدعى سليماً كان خلصاً له . لكنه كان يعدّ نفسه صاحب الولايتين ، اذ سليم كان اطوع له من بنانه .

واما الاماكن الخطيرة بذكرها في هذه الولاية ، فهي مقدمتها بعروت القاعة على بقعة تمتد من سفح الجبل ، داخلة في البحر على شكل قرن طوله

فرسخان . والزاوية الجنوبية التي يحدثها هذا القرن ، يصب فيها نهر بيروت او نهر الصليب الذي يفيض في فصل الشتاء ، وعلى هذا النهر جسر كبير خرب يصعب عبوره .

وكانت بيروت في حوزة الدروز ، ثم انتزعها منهم الحرار . بيد انها حلت البندر الذي يترددون اليه ، لانهم منها يشترون قطنهم وحريرهم المعد معظمه لمدينة القاهرة ، فيأتيهم بدلاً منهم الافرنج والارمن يقايضون عليها بمنطقة البقاع وحوران . وفي بيروت من السكان ستة آلاف نسمة .

ولمرفئها رصيف كالمرافئ الأخر التي على هذا الساحل ، وقد تراكمت فيه الانقاض والرمال ويحيط بها سور متهدم محفورة رملية وخوة تحتويها القنابل من غير ان تحطمها . مع انه لا منافعة لسورها ولا لأبراجها القديمة . والتلال المشرفة عليها ، وافتقارها الى الماء يجعلانها تعجز عن صد المغيرين عليها .

وتُرد لمياهها رديئة ، ماؤها قليل العذوبة . وقد حاول الحرار اقامة سبيل فيها كالذي شيّده في عكا ، والحفر التي فتحوها لماء الصهاريج ، كشفت عن اطلال المدينة القديمة التي بعض انقاضها واعمدتها ترى ورآء السور .

والصهاريج التي بحوارها تؤتيها اقوى واحدث من التوت الذي في اراضي طرابلس ، لان اصحاب تلك البساتين كانوا في اثناء حكم الدروز يستطيعون نصب اشجار جديدة كلما دعت الضرورة ، فلا يعارضهم احد ، لاجل ذلك يمتاز الحرير المجلى منها بجودته .

وبيروت حرّها شديد ، وماؤها ساخن ، لكنّ هواءها طيب ، ومما يزيد طيبه ويجعله جيداً بقي ، شجر الصنوبر الكثير الذي غرسه الامير فخر الدين على مسافة فرسخ منها . ونفس هذا الامر قد اكده لنوالي رهبان دير

الشوير ، وقالوا له ايضاً قد كثرت مياه الينابيع وازدادت عذوبة منذ ما انتشرت غابات الصنوبر على قمم لبنان؛ وهو لعمري قول صادق قد يدته الحقائق .

ان الاماكن التي تستوعي النظر في جبل الدروز هي بعيدة ، فاهمها دير القمر موطن الامرآء . وهي ليست مدينة ، بل هي قرية منازلها سبعة الآف ، تقع خلف جبل يجري عند سفحه نهر الدامور اي « تيراس » القديم ، وسكانها دروز وموارنة وروم من ارثوذكس وكاثوليك ، عددهم جميعاً اثنا عشر الفاً . وقصر الامير ليس سوى بيت كبير ، يازه سبع ، وجدره متداعية .

ومما يجدر ايضاً ذكره زحلة القرية الواقعة في وادي البقاع على سفوح الجبال واكتافها . وقد صارت في اواسط القرن الثامن عشر عقدة الاتصال ما بين حلب ودمشق وبيروت ولبنان . والمشهور عنها ان نقوداً مزيفة تضرب فيها .

وبلاد الدروز عدة مقاطعات ، لكل واحدة منها حاصلها الخاص الذي يميزها عن غيرها : فمقاطعة الشوف كثيرة الصخور والحصى والحديد ، ومقاطعة الغرب يبدت فيها احسن اشجار الصنوبر ، ومقاطعة الساحل تكثر فيها الكروم وشجر التوت ، ومقاطعة الشوف مشهورة بجودة حريرها ، وبكثرة شجر الشمع في المقاطعة المسماة باسمه ، ومقاطعة الشقيف تعطي افضل اصناف التبغ . ويسكنون جرود أعلى وأبرد تقع في الجبال ، وهناك يسرح الرعاة قطعانهم في فصل الصيف .

وكان الدروز قد رضوا ان يقطن بين ظهرانيهم المسيحيون من روم وموارنة ، فاقطعوهم ما يحتاجون اليه من الاراضي لاقامة ديورة عليها . وهكذا بنى للروم الكاثوليك ان يشيدوا هناك اثني عشر ديراً في اوائل القرن الثامن عشر .

واول تلك الديورة دير مار يوحنا الصابغ الذي يقع تجاه قرية الشوير ،

على سفح منحدر يجري في اسفله شتاءً سيل يصب في نهر الكلب . وقد بني هذا الصرح بهندسة لا زخارف فيها ولا جمال ، في وسط الصخور العظيمة المتناثرة من الجبل ، وهو يشبه مربعاً له جدران من الحجارة الصغيرة ، يعلوها سطح معقود عقداً متيناً . ويقع فيه اربعون راهباً . وميزته الكبرى احتواؤه على مطبعة عربية وهي الوحيدة التي نجحت في البلاد الشرقية . ولا بد للقارئ يأتي ان نلم بعض الالمام بتاريخها .

فان الآباء اليسوعيين شرعوا منذ بدء القرن الثامن عشر ينشرون العلوم في دير هم حلب ، بث علمهم وعلمتهم المعروفة ، وانشأوا في تلك المدينة مدرسة لتربية الاولاد المسيحيين ، ولقنهم قواعد الدين ، وحذرهم من البدع ، كما هو دأب المرسلين الاول ، ونجم عن ذلك حين شديد الى المشاحنات التي تزيد الخصام والجدال ما بين المنتمين الى شتى المذاهب الشرقية .

فالمطبعة وكتب المجامع ، وهو علم يفرض على من يروم الاحاطة به ان يكون ملماً الالمام التام باصول اللغة ، ولما ان المرسلين كانوا لا يعرفون سوى اللغة العامية لايصاد لهواة المدارس العربية في وجوههم ، لم يكن في وسعهم الاقدام على المجامع كتابة ، بل ان توصل نفر منهم الى الاخذ من بعض العلماء قواعد الصرف والنحو .

وقد امتاز من بين هؤلاء المرسلين بلوغه وتضلعه من اللغة العربية المدعو عبدالله راجو ، فاخذ يشير بغيرة لا تعرف الملل عقائده وآراءه . وليس في وسعنا ان نعلم بدقة مدى التأثير الذي كان يحدثه بث علمه في استمالة الناس الى آرائه في حلب ، اذ طرأ فجأة حادث من الحوادث التي تعد عادية في تلك البلاد ، فغير مجرى الامور .

فخصومه قد أعاظم تهجمه عليهم فسعوا في الاستانة لهلاكه ، وتوصلوا الى

الحصول على خط شريف بضرب عنقه . وكان من حسن حظه انه شعر بالدسيسة فمر هارباً الى لبنان حيث لم يكن خطر على حياته .

ففارق عبدالله بلده ، ولكن افكاره الراسية الى التجديد لم تفارقه ، فعزم عزماً صادقاً على نشر آرائه كتابة . واذا ما يطالع مخطوطاً منها ، فانه يدرك له غير واف بالمرام . وبما انه كان يقدر فوائد الطباعة ، فقدم على تنفيذ ثلاثة مشاريع في آن واحد وهي التأليف ، وصب الحروف ، والطباعة . وقد نمى له باكورة مراميه بفضل عبقريته وثروته واتقانه فن الحفر الذي مارسه اذ كان يتعاطى مهنة الصياغة .

وكانت الحاجة تدعو الى شريك ، فساعده الحظ على وجود ذلك الشريك ، فاستعان به على عمل ما كان منصرفاً اليه ، وهو عمه الذي كان رئيس دير مار يوحنا الشوير ، فاشار عليه بالسكن في دائرة الدير . ومنذ ذلك الساعة عدت مشاريعه شغله الشاغل ، الى ان تمكن في سنة ١٧٣٣ من نشر مزامير داود في مجلد واحد . فاقبل الناس على شراء كتابه حتى خصوصاً انفسهم ، لما رأوا فيه من جمال الحروف واتقانها . ومنذ ذلك الحين اعتمد طبع الكتاب عشر مرات .

وقد حاول عبدالله صب حروف ، لكنهم لم يستطيعوا التفوق عليه ، اذ الحروف التي صنعها كانت تزين الكتابة تماماً . فكانت ملأى حيث يجب ان تكون ملأى ، ودقيقة حيث يجب ان تكون دقيقة . ذلك تعكس الحروف العربية التي كانوا يصنعونها عند في اوربة معكسكة دقيقة .

فقضى عشرين سنة وهو يقوم بطبع المؤلفات المتنوعة التي كان معظمها مترجماً عن الكتب الغربية ، انه لم يكن يعرف اللغات الاوربية ، الا ان الآباء اليسوعيين نقلوا الى العربية كتباً عديدة . وبما ان لمامهم باللغة العربية لم يكن كاملاً فاعتاد تعريبهم مستبدلة بلغة هي مثال المتانة والطلاوة .

وكان قلمه سيالاً ، متنوع الاساليب ، صريحاً ، خالياً من الحشو ، فاهش الجميع ، دالاً بدلائل على ان اللغة العربية تلائم ملاءمة موفقة اي موضوع اريد طرقه وشرحه .

وقد توفي عبدالله سنة ١٧٩٨ ، فخلفه تلميذه ، فرهبان الدير انفسهم ، مواصلين بعده عمل الطباعة وصب الحروف . غير ان المطبعة وقت تعدئذٍ خافت حتى امست مهددة بالزوال ، لان ما كان يباع من الكتب يسير ما عدا كتاب المزامير الذي جعله المسيحيون ككتاب اولادهم المدرسي . فرواجه هو الذي دعا الى اعادة طبعه مراراً .

بيد ان الصعوبات كانت باعظمة ، لما ان الورق يجب جلبه من اوربة . ثم ان اليد العاملة بطيئة جداً ، فمشكلة ورق يمكن معالجته شيء من الفن ، واما بطء العمل فمن المتعذر وجود حل له ، لان الحروف العربية تتطلب ربط بعضها ببعض ، لان شكلها يختلف على نحو ما تكون في بدء الكلمة ، او في وسطها ، او في طرفها . فدعت الضرورة الى صب الحروف العديدة المزدوجة والى جعل منضدة الحروف ذات عيون كثيرة العدد ، لا تستطيع يد الناسخ الوصول اليها بسهولة ، فيضطر الناسخ الى الحركة ذهاباً واياباً امام المنضدة التي يبلغ طولها ثماني عشرة قدماً ، ناهيك عن حروفه في ما يقارب ثلاثمائة عين مما يؤدي الى ضياع وقت طويل . وعلى هذا الامر يحمل من المتعذر على الطابعين العرب بلوغ درجة الاتقان التي ادركها الصانعون في اوربة .

واما كساد الكتب فباعث عليه عدم انتقاء الملائم منها ، عوضاً من تعريب الكتب ذات الفائدة العلمية التي من شأنها ايقاظ حب الفنون في جميع العرب بلا تمييز ، فانهم لم يعربوا الا كتب العبادة التي تلائم المسيحيين وحدهم . فهاك جدول الكتب التي طبعت في دير مار يوحنا الشوير في جبل الدروز :

١ً ميزان الزمان للاب بيدرمهرع اليسوعي – ٢ً اباطيل العالم للاب ديداكو اليسوعي – ٣ً مرشد الخاطئ للاب لويس دي غرناد اليسوعي – ٤ً مرشد الكاهن ٥ً قوت النفس – ٦ً مرشد المسيحيين – ٧ً التأمل الاسبوعي – ٨ً التعليم المسيحي – ٩ً تفسير السبعات ١٠ً مزامير داود مترجماً عن اليونانية – ١١ً النبوات – ١٢ً الانجيل والرسائل – ١٣ً السريانيات تأليف دوديكار .

وهذه المخطوطات المحفوظة في الدير .

١ً الاقتداء بالمسيح – ٢ً بستان الرهبان – ٣ً علم الهية تأليف بوزامهوم ٤ً مواعظ سليري – ٥ً قواعد النواميس لكلود فوتيير * ٨ً مجادلات الاب جرجي – ٩ً لمطق ترجمه من اللاتينية احد افراد الصنعة المارونية – ١٠ً رد الاباب ليولس الارميري اليهودي الاصل المرتد الى المسيحية – * ١١ً المطالب والمباحث للمطران حرمانوس فرحات – * ١٢ً ديوان الخوري نقولا ابن عم عبدالله زاخر – ١٣ً مختصر القاموس .

جميع هذه الكتب خطها المسيحيون ، والمسوق منها بنعمة الله باللغة العربية . اما الكتب الآتي بيانها فألفها المسلمون :

١ً القرآن – ٢ً قاموس الفيروزابادي – ٣ً الفية ابن مالك – ٤ً تفسير الف بيت – ٥ً الاجرومية – ٦ً التفتازاني – ٧ً مقامات الحريري – ٨ً ديوان عمر بن الفارض – ٩ً فقه اللغة – ١٠ً الطب لابن سينا – ١١ً المفردات ترجمة ابن البيطار – ١٢ً دعوات الاطباء – ١٣ً نبرات المتكلمين – ١٤ التفريد الوحيد – ١٥ً تاريخ اليهود ليوسيفوس (ترجمة سيئة) . وايضاً كتب في علم الفلك ، وكتب اخرى لا فائدة منها .

تلك هي مجموعة خزانة دير مار يوحنا ، ومنها يمكن ان نعرف مستوى

النفاوة في جبل الحلو ، حيث لا يوجد سوى هذه الخرابة وخرابة الدير ولم يكن بين المخطوطات ما هو جدير بالترجمة من حيث المضمون ، حتى ان مقامات الحريري لا تحمية عنا لانها ، وليس بين الرهبان من يستطيع فهمها سوى راهب واحد ، كما ان باقي المخطوطات يتعذر فهمها على معظم الرهبان .

وفي عدم عدا الدير واخلاق سكانه شيء من الغرابة يجدر بنا ذكره . فقانون رهبانيتهم هو قانون القديس باسيليوس الذي معرفته عند الشرقيين تماثل معرفة القديس بندكتوس عند الغربيين ، غير انهم قد ادخلوا على قانونهم بعض التعديل لجعله ملائماً حالتهم . وقد رفعوه في اواسط القرن الثامن عشر الى الحبر الاعظم ، فوافق عليه .

وفي استطاعتهم ان يبرروا تدورهم ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمرهم ، اذ واضعو القوانين الرهبانية قد قرروا التأخير في دعوة الذين يستطيلونهم عند حداثتهم لكي تخلو هم حاسمين لطريقتهم . وتلك التدور لا تختلف ، هي عليه في اي مكان آخر ، عن الفقر والطاعة والتضحية والعفة ، غير انهم يحافظون عليها في هذه البلاد اكثر مما يحافظون عليها في اوربة .

وحالة رهبان الشرق هي اجمالاً اصعب من حالة الرهبان الغربيين ، كما تدل على ذلك طريقة معيشتهم ، فانهم يقضون في اليوم الواحد سبع ساعات في الصلاة من غير ان يُعفى منها احد . وينهضون في الساعة الرابعة صباحاً ، ويرقدون في الساعة التاسعة مساء ، ولا يأكلون في يومهم الا اكلتين ، الواحدة في الساعة التاسعة ، والاخرى في الساعة الخامسة . وينقطعون دوماً عن أكل اللحم ، حتى انهم لا يأكلون اللحم في افراحهم الكبرى . ويصومون كباقي الروم ثلاثة صيامات كبيرة في السنة . وهنالك عدة صيامات اخرى لا يأكلون

في حلاقة لحيتها وقد حليتها ولا حجة . ويعشون الجانب الاكبر من السنة على العدس المطبوخ بالزيت وعلى الفول والارز المطبوخ في السمن ، وعلى الباذنجان والزيتون ، وشيء من السمك المقدد . وحصة الرجل عدة حفنات ، في الاحتفال ، يجب ثاني يوم عيده ، مع انهم لا يجوعون الا مرة في الاسبوع . ثم يزعمون ان مثل هذه الاعذية يتحسون الامراض التي تعتري الفلاحين .

وتتكون واحدة منهم حجرة صغيرة ليس فيها من الاثاث سوى حصيرة وغطاء . وليسوا في حاجة الى اكثر من هذا لانهم ينامون وثيابهم عليهم . واما لباسهم فهو قميص عريض ، وسروال وقميص داخلي وقباء من الصوف الخشن الذي لا يشتي ثمنه وقصارته . ثم يدعون شعر رؤوسهم يطول حتى يبلغ ثاني اصابع ، عدا في ذلك عادة السكان . ويلبسون قلنسوة من اللباد كالتي يتخصص بها فرسان الاوراك طولها عشر اصابع .

وكل منهم ما عدا الرئيس وكاتبه ووكيل الخرج ، يتعاطى مهنة من المهن اللازمة والمعينة للدير . فهم حدادون ، وخياطون ، وصانع الاحذية ، والسراج ، وطاهيان ، واربعة يقومون باشغال مطبخة ، وربعة بتعاهد الكنيسة وخدمهم يتعاونون في الفرن يوم الخبز .

وتبلغ عوائد الاربعين او الخمسة والاربعين لا تزيد على اثني عشر كيساً في السنة ، اي ما يساوي ستة آلاف قرش ، بيد في ذلك بعض الزوار الذين كثيراً ما تعود زيارتهم على الدير بالفائدة ، اذ اعلامهم بحصولهم على المال او الهدايا التي تؤلف جزءاً من دخله . واما الجانب الآخر فانه يتوجد من ريع اراضيه التي اكتراها الرهبان من مزارعين باربع مئة قرش في السنة

وتلك الاراضي قلما تعرقها ارجل الاوزون ، واما الآخرون عرائها وزراعتها يقوم بها علمانيون يحصون الدير بنصف محاصلها ، وهو الحنطة البيضاء والاصفر

الذي يبيعونه في بيروت ، وبعض الحبوب ، والخمر التي لا سوق لها هنالك ، فيهدونها الى المحسنين الى الدير ، او يشربونها هم . وكان الرهبان فيما مضى يمتنعون عن شربها . ولكن انقياداً لما يطرأ عادة من التحويل والتبديل على اي جمعية كانت ، قد خفف الرهبان من غلوهم الاول ، كما انهم بدأوا يتساهلون في تدخين التبغ ، وشرب القهوة ، غير ملتفتين الى احتجاج الرهبان القدماء الحريصين على صيانة التقاليد التي تقيدوا بها منذ عهد بعيد .

ان دار هذا النظام تدعى الديورة الاثنى عشر الخاصة بتلك الرهبانية التي عدد افرادها نحو مئة وخمسين . ويجب ان نضيف اليها خمسة ديورة للراهبات . فان الرؤساء الاولين طاروا انهم صنعوا حسناً بانشائها . وقد اسف الرهبان بعدئذ على ما فعله اسلافهم ، اذ وجود راهبات في هذه البلاد لا يخلو من الخطر . ثم انهن ينفقن اكثر من دخلهن . بيد ان الرهبان لا يجرؤون على تسريحهن ، لان بعضهن ينتمين الى اعلى الاسر في دمشق وحلب والقاهرة وتلك الاسر ترسل بناتهن الى تلك الديورة ومعهن مهورهن .

وكثيرون يرهنون الدير كل سنة مئة قرش ، حتى مئة ليرة ذهباً او الف ريال ، ولا يمتنعون عوض ذلك سوى الصلاة على نيتهم لكي يبعد الله عنهم طمع الحكام . مع ان ذلك لا يمنع الحكام من اكراههم على استنفاذ نفوسهم بالمال اذا ما رأوا ثراءهم في اللباس الانيق والرياش الفاخر . وقد روي ان احدهم بنى في دمشق داراً بلغت نفقاتها مئة وعشرين الف قرش . فما علم بها الحاكم بعث اليه يقول : ارغب في ان اراها واشرب القهوة عندك . ولكن تا ان الحاكم اعجب بها وهم بوضع يده عليها الا بعدما دفع اليه صاحبها عشرة آلاف ريال .

ومن الديارات الاكثر شهرة دير المخلص المقام على بقعة تبعد مسير ثلاث

ساعات عن صيدا شمالاً شرقاً . وكان رهبانه قد جمعوا فيه كثيراً من الكتب العربية من مطبوعة ومخطوطة . غير ان عساكر الجزار أتلفوا بعضها ، وبدّدوا البعض الآخر عندما شنّوا الغارة على هذا الصقع واقتحموا الدير .

وصيدا الآنفة الذكر هي صورة صيدون القديمة ، لكنها صورة لا تطابق الاصل . وكانت فيما مضى مقر الباشا الحاكم ؛ وهي كسائر المدن الشرقية سيئة البناء ، وملأى ازقاقاً ؛ وتشغل على شاطئ البحر بقعة من الارض طولها نحو ستمئة قدم بعرض مئة وخمسين . وفي طرفها الى الجنوب حيث تعلو قليلاً ، اقام فخرالدين الذي مرّ بنا ذكره حصناً يشرف على البحر والبر والمدينة .

وفي طرف المدينة الآخر ، شمالاً بغرب ، قلعة مشيّدة في وسط البحر تبعد ثمانين قدماً من البر المتصلة به باقواس . والى جانبها صخرة بارزة فوق الماء طولها مئتا قدم ؛ فترسو السفن في المسافة التي ما بين الصخرة والقلعة . فذلك هو المرفأ ، لكنه مرفأ لا يقي السفن الارياح اذا هبت ، والعواصف اذا ثارت . وعلى الشاطئ بازاء المدينة حوض محوّط برصيف خرب ؛ فذلك كان المرفأ فيما مضى ، لكن الرمال تراكمت فيه ، فلم تعد المراكب تستطيع دخوله .

هو الامير فخر الدين الذي اقدم على هدم جميع تلك المرافئ الصغيرة ، لانه كان يخشى السفن التركية ، لاجل ذلك ، اغرق فيها مراكب وردمها بحجارة فلو تُلف هذا الحوض ، واريل منه اليوم ، لاستوعب خمسة وعشرين مركباً .

ما من سور يصون المدينة من جهة البحر ، ولا يكتنفها من جهة البر الا حائط السجن . ثم ان مداخلها الستة التي في قلعتها ، لا « قادق » او قواعد لها ، وليس هنالك من يعرف طريقة استعمالها . وعدد رجال حامية المدينة

اقل من مئة . ويأتيها الماء في مجار مكشوفة تردها النساء ، ومنها ترتوي بساتين التوت وحقول الليمون .

والتجارة هناك لا بأس فيها ، لان المدينة هي البندر الاول لدمشق والبلاد الداخلية . والاجانب المقيمون فيها جميعهم فرنسيون ، لهم فيها قنصل وحرس او ست وكالات ، فيتاجرون الحرير والقطن المغزول او الغير المغزول . وغزل القطن اهم الصنائع التي يتعاطاها سكان صيدا البالغ عددهم نحو خمسة آلاف .

وبعد مسير ستة فراسخ الى الجنوب توازاة البحر ، يصل المسافر الى قرية(*) صور التي كانت في سالف العصور محور تجارة وملاحة عظيمتين ، ومهد العلوم والفنون ، وموطن امهر وانشط شعب عاش على وجه البسيطة . وهي تقع على بقعة شبه جزيرة متوغلة في البحر على شكل مطرقة ، رأسها صخر تشبه تربة سمراء تصلح للزراعة ، مكونة سهلا صغيراً طوله ثماني مئة قدم ، وعرضه اربع مئة . والبرزخ الذي يصل السهل بالبر ، مكون من رمال البحر ، والفرق ما بين السهل والبرزخ يجعلنا نتصور ما كانت عليه الجزيرة البيضوية الشكل قبل ان يصلها الاسكندر بالساحل بواسطة رصيف ، فالبحر تقذفه الرمال على الرصيف حتى على شكله الراهن .

والقرية قائمة على الوصلة التي ما بين البرزخ والجزيرة ، غير شاغلة منها سوى ثلثها . فالطرف الشرقي من الارض حوطاً فيه حوض ، وهو الذي كان في الاصل المرفأ ، قد تراكمت فيه الرمال حتى صار الاهالي يعبرونه من غير ان تبتل احقاؤهم . وعند مدخله برجان متقابلان ، كانوا يعلقون عليهما سلسلة

(*) كان سكانها على زمان « فولني » لا يزيد عددهم على خمسين او ستين اسرة لدلك نراه يدعوها « قرية » .

طولها خمسون او ستون قدماً ليمنعوا المراكب من دخوله ، وكان يمتد منها جدار يطول الحوض من جهة البحر ، ويحدق من ثم بالجزيرة كلها ؛ ولم يبق الآن منه سوى اساسه المشيد على الشاطئ الى نقطة قوية من المرفأ حيث قام المتاولة في العقد السابع للقرن الثامن عشر ببعض الترميمات التي اخذت الآن تنهار .

وفي وسط البحر على مسافة ثلاث مئة قدم من الطرف البارز المار ذكره ، يُرى شمالاً بغرب صف من الصخور . فهي الفرجة التي بينها وبين الشاطئ ، تجد السمن ملجأ يفصل على مرمى صيد ، ولو انها لا تكون فيه بأمن من الاخطار ، لان الريح الشمالية تصف هائلة شديدة ، كما ان قعر البحر يُشبه جبال المراسي .

واذا دخلنا الجزيرة المشار اليها ، رأينا ان القروبيين تركوا خانهم منها فضاء ، وهو المطل على البحر من الشمال ، فقد حماه بستاناً ، لكن اعتناءهم به ضئيل . ويقيم في هذه القرية خمسون او ستون اسرة يتعاطى افرادها الفلاحة وصيد الاسماك . وشتان ما بين اكواخها الحقيرة المتداعية والبيوت ذات الطبقات الثلاث التي كانت هنالك في عصر « سقراط » .

وكانت القرية معرّضة للغارات . والمتاولة الذين استولوا عليها في سنة ١٧٩٦ احاطوها بسور علوه عشرون قدماً . ومما يسترعي الانتباه كنيسة لم يبقَ منها سوى الجدران ، وهي من آثار الصليبيين . وعلى مقربة منها ، في وسط كوم من الحجارة عمودان جميلان من الصوان الاحمر النادر الوجود في سورية . والحجار الذي اخذ من هذه الاماكن ما كان فيها ، ليزين به الجامع الذي بناه في عكا ، رغب في نقلها . غير ان رجاله لم يستطيعوا زحزحتها من مكانها .

وعلى مسافة مئة قدم من باب القرية ، برج خرب فيه بئر تردها النساء ، عمقها نحو خمس عشرة قدماً . عدا ان الماء فيه لا يزيد ارتفاعه على قدمين او ثلاث اقدام ، وليس افضل منه في سائر انحاء ذاك الساحل . ومن الغريب انه يتعكر في شهر ايلول ، ويظل بضعة ايام احمر من كثرة التراب الحمري المزوج به ، فيحتمل القرويون الحادث احتمالاً رائعاً ، فيأتون البئر ، ويأخذون فيها دلواً من ماء البحر ، راجين انه يروق ماءها

واذا تابعنا سيرنا على البرج ، مشرفين نحو البحر ، رأينا بين مسافة ومسافة اقواساً متهدمة تتتابع في خط مستقيم حتى تل طبيعي وهو الوحيد في ذلك السهل ، ومكون من صخرة طول دائرها نحو مئة وخمسين قدماً ، ليس عليها سوى بيت واحد خرب ومقام لاحد الاولياء تعلوه قبة بيضاء . والمسافة التي ما بين الصخرة وقرية صور يقطعها الفارس في ربع ساعة من الزمان . وكل دنا المسافر من الصخرة توالت امامه الاقواس التي اشرنا اليها ويتضاءل عارها شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطاً متتابعاً ، يعطف فجأة الى الجنوب على شكل زاوية قائمة ، ثم يسير بانحراف في وسط الحقول الى ان يصل الى البحر وتدنو المسافة بقطعها الخيال في ساعة من الزمن .

واما الغاية من تلك الاقواس فهي جلب الماء بالمشعب الذي عليها والذي عرضه ثلاث اقدام وعمقه قدمان ونصف القدم ، وهو مبني بملاط اصلب من الحجر ، ومتصل آخره آبار عدها بعض الرحالة « آبار سليمان » ويدعوها القرويون « رأس العين » احداها كبيرة ، واثنتان اصغر منها ، وعلى مقربة عدة آبار أخر صغيرة ، مكونة جميعها كتلة من البناء المشيد بحصى البحر والملاط ارتفاعه ثماني عشرة قدماً في الجنوب ، وخمس عشرة في الشمال بانحدار خفيف الميل عريضه ، تصعد المركبة عليه بسهولة حتى قمته ، التي اذا ما بلغ اليها المرء ، رأى منظراً مدهشاً

رأى المآء بدلاً من ان يكون منخفضاً عن الارض او مساوياً لها ، يرتفع أعلى من سطح المكان ، اي ان ماء الذي يملأ البئر أعلى من الارض بخمس عشرة قدماً ؛ وهو ليس هادئاً ، بل يشبه سيلاً قائماً منشأً ، فيتحدر الى المناهل التي على سطح البئر ، وهو عبر كاف لادارة اربعة الثلاثة الطواحين الواقعة على مقربة ؛ ويؤلف من ثم غديراً يصب في البحر على مسافة اربعمئة قدم

وفوهة البئر الكبرى مثمنة الزوايا طول كل منها ثلاث وعشرون قدماً وثلاث اصابع ؛ وقطر الفوهة ، هو اداً حدى وستون قدماً ؛ ويزعمون ان عمق البئر لا قرار لها ، بيد ان الرحالة « لابوك » روى انهم وجدوا عمقها في زمانه ستة وثلاثين باعاً .

ومما يلفت النظر ان فوهة المآء قرض جانب البئر الداخلي الذي صار يشبه نصف قوس معقود فوق المآء .

واكبر واحد من المجاري المشعة هنالك يتصل بثمن الانواس المشار اليها ، وكان المآء ينحدر منه قديماً الى الدبرة فالبحر عن طريق الجرح ، وهو الجرح الذي ترد النساء بقره .

والسهل عرضه فرسخان ، تحف به تلال عالية ، تتراءى من القاهرة حتى الرأس الابيض ، وهو ذو تربة جيدة سوداء .

ومدينة عكا الشهيرة في قديم الزمان باسم « بتلماوس » لا تبعد عن صور سوى تسعة فراسخ ؛ وهي تقع في الزاوية الشمالية لخليج يمتد حتى الطرف البارز من جبل الكرمل .

ومنذ ما رحل الصليبيون عنها تضاءل شأنها ، وقلّ عدد سكانها على ان الترميمات والاعمال العمرانية التي اجراها فيها الشيخ ظاهر العمر اعاد الحياة اليها ، وقد جعلها الحرار من بعده اعظم مدائن الساحل ؛ فبنى فيها جامعاً جميلاً ،

وسوقاً مسقوفة لا تقل شأناً عن سوق حلب ذاتها . ومما يجب ذكره عن الحزار بالثناء انه وضع هو نفسه تصميم ثلث البيوت ، فكان يدرس مشاريعها ويرسم خططها ، ويشرف على بنائها .

وعكا من حيث موقعه احسن مراقي ذلك الساحل والمدينة دائما تقيه شر الارياح الشمالية . غير انه ظل مردوماً منذ عهد الامير فخر الدين ، ولم يحدث فيه الحزار بعدئذ سوى موردة .

والحصن الذي عداك لا فائدة منه . ولو انه معتنى به اكثر من سائر الحصون الاخرى ، وليس فيه سوى ابراج لا خير فيها ، ركبوا عليها مدافع ، لكنها صدئة رديئة ، ان طلعت انفجرت . والسور الذي من جهة البر ان هو الا جدار ، لا خندق له ، فهو يائل السور الخندق والساتير .

وسهل عكا اكثر اخضراراً واقل عرصاً من سهل صور ، تحدق به تلال تتتابع من الرأس الابيض حتى الكرمل . ومنخفضاته تحملها مياه الامطار التي تتجمع فيها ، مناقع خطرة ، تتصاعد منها في فصل الصيف ابخرة المنتنة . وما ترته فهي تصلح لزراعة القمح والقطن ، وهما اساس تجارة عكا .

وقد اتسع الحزار اسلوباً راحاً في الشرق ، هو احتكار التجارة فما من احد يستطيع بيع او شراء القطن سواه . وعبثاً حاول التجار الاوربيون الاحتجاج على ذلك باستنادهم الى الامتيازات التي منحهم اياها السلطان ، فكان يجيبهم : اما السلطان في بلادي . لذلك لم يبأ بهم . وهؤلاء التجار معظمهم فرنسيون ، لهم في عكا قناصل وسفراء وكالات .

والجانب من خليج عكا حيث ترسو السفن يقع الى شمال جبل الكرمل عند اسفل المدينة حيفا . وقعره تثبت فيه المراسي من غير ان تتحرم حالها . لكن المكان معرّض للريح الشمالية . وجبل الكرمل الذي يشرف على ما حوله ،

له ظهر مسطح صخري ، يُرى عليه الى جنب العوسج ، الزيتون والكرمة البريّة مما يدل على ان الزراعة امتدت في سالف الزمان الى هذا المكان . وعلى قمته معصد مكرس لايل الري . والى الجنوب سلسلة صخرية ، ينسو على ذراها البلوط والصنوبر ، ويجتلب اليها السمر والخلوف .

وعلى مسافة ستة فراسخ بلدة الناصرة ذات الشهرة العالية ، سكانها ثلثهم مسلمون ، والثلثان مسيحيون . والآباء الفرنسيسيين فيها دير ومعصد وهم عادة ملازمو البلدة .

وجبل الطور او طابور الذي يبعد فرسخين عن الناصرة ، له شكل مخروط مبتور الرأس . وكان عليه قلاع لم يبقَ منها الا واحدة خربة . ومن اعلاه يمتد النظر الى جبال وأودية تتتابع حتى بيت المقدس . ويُخيل الى المطر من عليه ان وادي الاردن وبحيرة طبرية ، التي حوضها مكوّن من فوهة بركان ، يقبعان عند سفحه .

لا شيء مما على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا خليق بالذكر عدا المدينة المكنّاة باسم البحيرة نفسها ، وعين الماء الحارّ التي تقع على بعد فرسخ منها . وقد تراكم فيها وحل اسود ، وهو دواء نافع في الامراض العصبية . واما المدينة فليست سوى كوم انقاض تقيم فيها نحو مئة اسرة .

وعلى مسافة سبعة فراسخ من البحيرة نحو الشمال ، قرية صفد واقعة على سطح جبل . وتعدّ صفد مهدَ السلطة التي توصل الى احرازها الشيخ ظاهر العمر . وكان فيها معهد لتعليم الصرف والنحو والفقه وتفسير القرآن . واليهود الذين يعتقدون ان مسيحهم سيجعلها قاعدة ملكه ، رغبوا في سكناها ، فاستوطنتها خمسون او ستون اسرة منهم . غير ان الزلزلة التي حدثت في سنة ١٧٥٩ تركتها خراباً . والاتراك الذين يتشاءمون منها قد اهملوها ،

فدمشق قرية لا شأن لها .

واذا غادرنا صفد ، واتجهنا شمالاً ، صادفنا سلسلة جبال عالية ، تدعى « جبل الشيخ » ينبع منها نهر الاردن وجداول اخرى . والمنحدرات المنبعثة منه يدعى « حاصبيا » ، كان متنوعاً عليها في اواخر القرن الثامن عشر احد امراء الاسرة الشهابية ؛ وكان يؤدي الى « الجزار » ضريبة سنوية قدرها ستون كيساً . والارض هادئة وعرة تشبه ارض صفد لبنان الاعلى . والجبال الممتدة بطول وادي البقاع ، تدعى لبنان الشرقي ، لانها موازية للبنان المشهور والموازنة . ووادي البقاع الفاصل بينهما كان يدعى قديماً « سوريا اجوفاً » فرقعة المنخفض الذي تنحدر اليه مياه الجبال يجعله من اخصب الاراضي السورية . والمناخ فيه شديد الوطأة ، فيشبه مصر من هذا القبيل ؛ غير انه طيب الهواء ، وليس فيه مياه راكدة . والمزروعات يتناوبون على سطوح بيوتهم ولا ينالهم ضرر . وقبل زلزلة سنة ١٧٥٩ ، كانت ثلث الاماكن كثيرة القرى ، وسكانها متناولة . والسكان لاضرار التي احدثتها الزلزلة ، والحروب التي نشبت بعدئذ بين السكان والاتراك ، تركتها قاعاً صفصفاً ؛ والمكان الوحيد فيها الذي يسترعي الانتباه ، مدينة بعلبك .

ان بعلبك الشهيرة عند الرومان واليونان باسم « هليوپوليس » اي مدينة الشمس ، مبنية على سفح لبنان الشرقي ، عند طرف الجبل الذي يليه السهل . ومن يسير اليها من الجنوب ، يراها من مسافة فرسخ ونصف الفرسخ ، ورأى ادواح الحور الرائعة التي تمتد مسيرة ساعة من الزمن ؛ تعلوها قبب وصوامع بيضاء ، وتليها حنايا تتخللها طرق ضيقة موحلة مؤدية الى المدينة . واول ما يقع الناظر عليه هناك جدار خرب على جوانبه ادواح مرتفعة .

فذلك احجار الذي لا يزيد علوه على اثني عشرة قدماً ، يتسلق من الجهة

اليمى تلعة ، فيحدق بالمدينة القديمة ، من غير ان يحجب ما وراءه من الارض الخلاء ، والانقاض والاطلال ، والبناء العظيم الذي يدل جداره العالي ، واعمدته المزخرفة ، على انه احد تلك الهياكل التي تركها لنا الاقدمون ، ليشيدوا بها اعمالنا . فهو احسن البنايات القديمة قاطبة ، واكثرها صيانة ولو ان جانباً كبيراً منه تناوله الخراب بمعول اضطرابات الطبيعة ، وتوالي الحدثان ، وجهل السكان [1] .

ومن العجيب ان مؤرخي اليونان والرومان لم يذكروا الا شيئاً يسيراً من هذا الهيكل . والرحالة « رود » قد بحث في كتب الاقدمين عن اصل منشإها ، فلم يجد فيها الا ما قاله يوحنا الانطاكي من ان بانيه هو القيصر انطونيوس الورع . وقوله هذا تؤيده الادلة ، كالشبه القائم على استعمال الطراز الكورنثي في عمارته ، وهو الطراز الذي لم يبلغ درجة الاتقان الا في الحقبة الثالثة لمدينة روما . ولا يجب ألا نعتد برعاية على ذلك البناء الذي هي ساكف احد ابواب الهيكل ، فانها انشئت بعد الاصل ، والحجاب

---

(١) وصف الواي جولين بعض عجائب هذا الاثر العجيب . غير ان رحالة اخر كالسيد « روبرت وود » و « داوكنز » قاما بوصفه بما اجرا بذلك وتدرسة سنة ١٧٥١ وأشر هذا السيد بعض ما عثر عليه في تلك الحفريات . كما قام بوصفه دقيقاً المهندس المعماري الانكليزي المعروف « ستوارد » . فمن اراد الوقوف على ما يريد التعمق في درس اصول الفن الذي بني عليه هذا الهيكل ، فليراجع كتاب المذكورين المطبوعة نسخة منه في جميع المكاتب الوطنية . والكتاب يدعى الوحود وعاب الشمس وقد لاحظ الواي ان اطراف بعض الاعمدة على حالة الهيكل قد رجعت . فوجد ثلاثاً من الاعمدة الداخلة تسعة كبيرة وتسعة وعشرين صغيرة ، واما هو فانه لم يجد منها سوى ثمانية اعمدة كبيرة ، وعشرين صغيرة . واما الاعمدة الاخر فان زلزلة سنة ١٧٥٩ كانت قد اسقطتها .

الكبيرة القابضة على شيء له شكل طير . فقدرته التي تشبه قدرة البعض من طير الحمام ، تدل على انه ليس بالنسر الروماني ؛ وذات صورته ترى في هيكل نمدر ، لاجل ذلك يرجح ان يكون الطائر المشار اليه نسراً شرقياً مكرساً للشمس التي هي إلاهة هذين الهيكلين .

فبلبث عبدت الشمس منذ اقدم العصور ، وتمثالها الذي يشبه « اوريوس » جيء به من مدينة « هليوبوليس » مصر ، ويعتقد « وود » المار ذكره ان كلمة « بعلبك » تعني مدينة الشمس ، واليونان تسميتهم اياها « هليوبوليس » فعلوا ما فعلوه غير مرة ، اي انهم نقلوا اسمها الى لغتهم مترجماً .

واما سكان تلك البلاد فيزعمون ان الجان اقاموا هذا الهيكل طوعاً لأوامر الملك سليمان ؛ ويدعون ان الغاية منه اخفاء الكنوز العظيمة التي يعتقدون انها ما زالت موجودة في اسفل البناية . والكثيرون منهم نزلوا الى القبيبتها للبحث عما دفن فيها . غير ان اخفاقهم في بحثهم ، وما نالهم من عسف الحكام من جراء ذلك اكرهاهم على الكف عن مواصلة التنقيب .

والاساطير التي يتناقلونها في شأن سليمان الملك ، تحملنا على التفكير في ثلاثة امور مهمة وهي :

اولاً — معظم ما يرويه النقل من العصور الخوالي ، لا كبير صحة له فان الحوادث التي جرت منذ مئة سنة فقط ، ولم تكن قد سُجلت عند وقوعها ، طرأ عليها المسخ والتحريف .

ثانياً — ينسب الاسلام واليهود والاهالي الى الملك سليمان جميع البنايات القديمة العظيمة ، ليس لان النقل يشير الى ذلك ، بل لانهم يرون في تفسيرهم لبعض آيات العهد العتيق ما يحملهم على مثل هذا الزعم . فالعهدان القديم والجديد هما مصدر النقل باجمعه ، لانهما الكتابان التاريخيان اللذان يعرفها

ويقرأها جمهور الناس هنالك . وما ان معظم الذين يفسرونها امميّون ، فما يشرحونه منها هو في غالب الاحيان غير مصيب .

ثالثاً . واما يقينهم بوجود كنوز مدفونة فقد أيّدته الوقائع ؛ فانهم عثروا في مدينة الخليل منذ وضع سنن على صندوق مملوء فضة وذهباً ؛ وفي بلاد الفرور اكتشفوا جرة فيها عقود من ذهب . وما ان الحكام يدّعون ان لهم الحق في امتلاك ما هو مدفون في الارض ، فالذين يسعدهم الحظ بوجود شيء من هذا القبيل ، يكتمون امره ، فلا يعلم به احد ، فيضيرونه او يعيدونه الى مخبإه ، خوفهم من الوشاة ، وهو نفس الخوف الذي حدا ببعض اصحابه الى اخفائه .

ولسنا نعرف ما هي الحالة التي كانت عليها تلك المدينة في قديم الزمان وما نعتقد ان وقوعها على الطريق التي ما بين تدمر وصور ، جعل لها حصة لا يستهان بها من تجارة هاتين المدينتين العظيمتين . وكانت تقيم فيها فرقة من الجنود الرومانيين في عصر اغسطوس قيصر ، اذ انه منقوش بحروف يونانية على جدار الباب الجنوبي (Kenturia Pr ma) اي فرقة المئة الاولى .

وبعد مئة واربعين سنة بنى انطونيوس الهيكل الحالي بدل القديم الذي كان متداعياً . وما انتشرت الديانة المسيحية في مصر قسطنطين ، أهمل شأن الهيكل الجديد الذي جعل بعدئذ كنيسة ، بقي منها الجدار الذي يفصل المعبد عن الصحن ، وظلّ على حاله حتى الفتح العربي . وقد ارصدت الكنيسة ابوابها عندما انقطع الناس عن الاختلاف اليها . ولما توالت بعدئذ الحروب ، جُعل المكان حصناً . غير ان الخراب ما عتم ان استولى على الهيكل بعدما صانته حالته من حرآء صروف الزمان وتعاقب الحدثان

والمدينة نفسها ليست احسن حالاً من الهيكل ؛ فان امرآء آل حرفوش

انولوا بها الاضرار الجسيمة ؛ وزوال سنة ١٧٥٩ رادها خراباً ؛ والحروب التي دارت رحاها بين الحرار والامير يوسف ، اتت على آخر اثر من عمرانها . وبعد ما كان عدد سكانها في سنة ١٧٥٠ خمسة آلاف ، هبط الى ألفين ومئتين في اواخر القرن الثامن عشر ، جميعهم فقراء ، لا صناعة لهم ، ولا تجارة عندهم ، وزراعتهم مقصورة على شيء من القطن والحبوب والطبخ . وتربة هذه النواحي قليلة الخصب ، كما هي ايضاً تربة الاراضي الممتدة منها الى الشمال او الى الجنوب الشرقي في اتجاه دمشق

ولاية دمشق

هي الاحيرة من ولايات سورية الاربع؛ فانها تشمل الجانب السوري الشرقي بمعظمه ، وهو الذي يقع في الشمال ما بين ممرة النبك على طريق حلب ، ومدينة الخليل في الجنوب الشرقي لفلسطين ؛ ويتسع خط حدوده غرباً جبال النصيرية ، فلبنان الشرقي ، فالشطر الاعلى لمجرى نهر الاردن ، فبحيرة طبرية ، وبيت المقدس ، والجليل ؛ ثم يمر شرقاً بالبادية متوغلاً فيها بقدر ما تمتد الفلاحة والزراعة في تلك الاوجاء ؛ بيد انه في العالب لا يتجاوز الا يسيراً اجبال المار ذكرها ما عدا جهات تدمر الواقعة على مسافة خمسة ايام منها .

فهي تلك الاراضي الواسعة ليست الغورة والمعلات كمثلة ، فسهول حوران والبقاع التي على ضفاف نهر العاصي هي الاخصب ، فتغطي بكثرة القمح والشعير والذرة والسمسم والقطن . وترية اراضي دمشق والبقاع الاعلى خصبة ضعيفة تلائم على الاخص التبغ والشعير المشمر . والاراضي الجبلية تصلح جميعها للزيتون والتوت والشعير المشمر والكرمة التي من عنبها الاحمر يصنع النصارى النبيذ ، والمسلمون الزبيب .

ان حقوق صاحب هذه الولاية اوسع واعظم من حقوق غيره من الولاة ؛ وهو ذو سلطة مطلقة ، وامير الحاج ، وامير الجيش ؛ والمسلمون يُحبّون كثيراً هذه الرتبة ، والذي تستند اليه ، ويقوم بمهامها خير قيام ، لا يستطيع احد ولو كان السلطان نفسه ، ان يمسّه باذى .

والمال الذي يؤديه والي دمشق الى السلطان ، لا يزيد على اربعة وخمسين كيساً . انما عليه ان يقوم بجميع نفقات الحج التي تبلغ ثلاثة ملايين قرش ،

وهي ما ينفقه على شراء القمح والشعير والارز المعدّ لتموين «الجردة» وعلى اكتراء الجمال لنقل الجنود الذين يرافقون قافلة الحجّاج وعليه ايضاً ان ينفح عمال عشائر البدو التي يمرّ القافل بصقعها . ويعتاض مما ينفقه على هذا المنوال ، بالميري او ضريبة الارض التي يجبيها هو نفسه ، او يعهد في جبايتها الى ملتزمين ينتخبهم . واما المكوس فلا شأن له بها ، والناظر في امرها الدفتردار الذي يدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون القائمة على طريق مكة .

ويرث الوالي الحجّاج الذين يقضون نحبهم في اثناء السفر . ويحلّ من ذلك لا يستهان به ، وقد اتضح ان الذين يموتون في الطريق هم عادة اغنى الحجاج . ويحق له علاوة على ذلك ان يقرض التجار والفلاحين المال بالربا ، وفي وسعه ايضاً ان يفرض على رعاياه من المغارم ما يشاء .

والجنود الذين تحت يده الفان ، او الفان وثلاثمئة ، من الانكشارية ومغاربة ، ودلي باش او فرسان ، فهؤلاء الجنود الذين كانوا يعدونهم في سورية جيشاً كبيراً ، يفتقر اليهم الوالي ليس فقط لحراسة قوافل الحجاج ، ومحاربة البدو المعتدين على المسافرين وغيرهم ، بل ايضاً لحماية الميري ، واجبار الرعية على الطاعة والاستكانة .

فكل سنة قبل قيام موكب الحج بثلاثة اشهر ، يطوف بصحبة جنوده في انحاء ولايته الواسعة لجمع الضرائب من المدن والقرى وملحقاتها مما ينتهي بسلام ، لان الشعب الخاضع يتجنب اية مقاومة ، واما الوالي نفسه فيمتنع ويتمرد ولا يُجبى المال منه الّا عنوة . وسكان نابلس ، وبيت لحم ، والخليل ، لهم من هذا القبيل شهرة اكسبتهم امتيازات خاصة . غير ان الدولة تأخذ منهم العوض اضعافاً متى منحتهم هذه الفرص .

ان ولاية دمشق معرّضة اكثر من غيرها لغارات البدو ، لكنها من حيث العمران احسن حالاً من باقي الولايات ، اذ الباب العالي لا يعزل ولاتها بتواتر . وفي القرن الثامن عشر تقلد زمامها مدة خمسين سنة اسرة العظم الدمشقية الغنية التي اربعة من افرادها ، اي أب وثلاثة اخوة ، تعاقبوا في تولي الحكم عليها ؛ واخرهم اسعد باشا الذي مرّ ذكره في انشاء حديثنا من الشيخ ظاهر العمر ، ظلّ والياً عليها خمس عشرة سنة ، قام في عشرتها باعمال طيبة لا تعدّ ولا تحدّ . ومن اعماله الخيرية بكل تأكيد وصمه بطاماً للجمود ، رد بهم به من التعدي على الفلاحين ونهب اموالهم .

ان جمع المال كان يستغرقه على غرار سائر ارباب المناصب في الشرق ، لكنه لم يكن يدعه في خزائنه ، بل كان يقرضه بفائدة قدرها ستة في المائة وهي لعمري فائدة معتدلة . ويروون عنه انه احتاج ذات يوم الى بعض المال ، فالتزمون أشاروا عليه بعرض عرامة على التجار بحجة انهم قوم لئام لا يستحقون الشفقة او المراعاة . فسألهم : ما هو المبلغ الذي يمكن جمعه من هؤلاء الناس . قالوا : خمسون او ستون كيساً . قال : لكنهم ليسوا باغنياء . فيتعذر عليهم دفع مثل هذا المال . قالوا : ليبعْ حُلى نسائهم . قال سأنظر في الامر ، لعلي اكون اوفر حيلة منكم .

ففي اليوم ذاته اوعز الى رجل عالي المقام أن تابعني سرّاً في هذا المساء . فلما جنه قال له : علمت ان سلوكك في السرّ لا يحمد ، فدعت ورميل لك تكريمات المسكر ، وتوشكتان المسكر ، مخافين ما اوله انه في كذا من الكريم . فتلك امور لا استطيع الاعتذار عليها ، وقد اخطرّ الى نبأبها لمقتي الاستاذة ؛ احكي قبل اقدامي على ذلك رحمت في انذارك ، مثلا تتهمني باني اخذتك غدراً .

فلما سمع الرجل ذلك ، اعتراه خوف شديد ، اجل يتضرع الى الباشا ليكتم الامر ، ويغض الطرف ، وعرض عليه الف قرش . غير ان الباشا لم يرضَ بها . فزاد الرجل المبلغ مئتي وثلاث ، وانتهى الامر باتفاقهما على ستة آلاف قرش وعلى اتقائه في طيّ الكتمان ما دار بينهما من الحديث .

وفي الغد دعا الباشا منصباً كبيراً آخر ، وحادثه كما حادث زميله من قبل منتهياً اياه انها بمظاة توجب ضرب عنقه ، فخاف الرجل وسأله بالحاح ان يرفق بحاله ، وساومه كما ساوم زميله ، فاتفقا على مبلغ مماثل للاول . وهكذا عاد ذلك الرجل وهو مغتبط لنجاته من الهلاك .

وجرى الامر عينه مع رجل ثالث عالي المقام ، ومع آخر الاسكندرية والحاسب ، وبعض كبار التجار ، فكان يذكر لهم اموراً ودنوباً ارتكبوها في اثناء قيامهم بمهام مناصبهم ، او بتعاطي تجارتهم . فكانوا يبادرون الى استفتاء نفوسهم على مقدار من مبلغهم .

فلما اجتمع لديه مبلغ كبير ، قال لاولئك المقربين : هل سمعتم في دمشق ان اسعد باشا يأخذ المال من الشعب قسراً ؟ قالوا . لا يقول : كيف اذاً توصلت الى جمع مئتي كيس . فسكتوا ولم يجيبوا جواباً . ولما سألوه كيف تسنى له الحصول على مثل هذا المال ، اجابهم : « جزرت الملح ولم اجز الحلال » .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة ، حُرمت دمشق هذا الرجل على اثر مؤامرة يروون حكايتها كما يلي :

في السنة ١٧٥٥ نزل ضيفاً على اسعد باشا رجل من خصيان بلاط السلطان ، وهو في طريقه الى مكة . غير انه لم يسرّ بالمقابلة التي لقيها . فلدى عودته من الاقطار الحجازية ، لم يمرّ على دمشق ، بل رجع من طريق غزة ، فحسين باشا الذي كان معيّناً عليها ، استقبله حسن استقبال .

وبعد ما وصل الخصي الى الاستانة ، تذكر صنيع مضيفه ، وكي يظهر ما يكنه من الحقد على اسعد باشا . ومن عرفان الجميل لحسين باشا ، سعى في الحاق الاذى بالاول ، والاجلال الثاني محله . فنجح في سعيه وتوصل الى حمل اولياء الشأن في الاستانة ، على فصل القدس عن ولاية دمشق وضمها الى الولاية العامل عليها حسين باشا . وبعد ذلك بسنة اسندت ولاية دمشق ذاتها الى حسين باشا .

فلما نُحّي اسعد باشا عن منصبه انسحب الى البادية مع اهل بيته ، خوفاً من ان تنزل به نقمة اكبر . ثم جاء اوان الحج ، فحسين باشا سار في قافلة الحجاج الى مكة . ولما قفل راجعاً ، نشب نزاع بينه وبين البدو على مال طالبوه به . فهجمت عليه جموعهم وكسروا جنوده ، ونهبوا القفل بأسره وكان ذلك في سنة ١٧٥٧ .

فتلك الواقعة كان لها صدى اليم في جميع انحاء البلاد العثمانية ، وتأثير مؤلم كالذي تحدثه الهزيمة بعد حرب ضروس . فذوو العشرين الفاً من الحجاج الذين هلكوا قتلاً او جوعاً او عطشاً ، واقرباء الالوف العديدات اللاتي ثكلن ، والتجار الذين نهبت اموالهم ، هؤلاء جميعهم ظلوا معاقدة امير الحج على جبنه والانتقام من البدو على اعتدائهم ذاك الفظيع .

فقلق الباب العالي مما حدث ، وحكم على حسين باشا بضرب عنقه ، لكن حسيناً توارى عن الانظار ، ولم يتوصلوا الى معرفة مخبئه . ومع ذلك فان صهره وصديقه الزكي يسعى لتبرئته ، فنجح في مسعاه بعد ثلاثة اشهر ، مبرراً رسالة قدمها الى اسعد باشا . فاحكم بالموت صدر آنئذٍ على اسعد باشا ، بدلاً من حسين باشا ، وعمل اولياء الامر يتوقون الفرصة لتنفيذ الحكم .

واما ولاية دمشق فبقيت ردحاً بلا والٍ ، وحسين الذي مقته الشعب ، لم

يستطع العود اليها . والباب العالي الذي كان يرعب في محو العار الذي لحق به ، وتأمين طريق الحج ، عهد الى دمشق رجلاً عريب الاطوار ، له حكاية يجدر بنا ذكرها . هو الرجل الذي يدعى عبدالله باشا الشتعي ، وُلد في حوار بغداد من ابوين فقيرين . فدخل منذ نعومة اظفاره الى خدمة الحكام ، وقضى سني شبابه الاولى في المعسكرات والحروب ، خائضاً جميع المعارك التي دارت رحاها بين الترك والفرس . ونظراً الى مهارته وبسالته ، ارتقى من رتبة الى رتبة اعلى منها ، الى ان اسندت اليه ولاية بغداد . فقام باعباء منصبه الخطير خير قيام ، فاستتب الامن وسادت الطمأنينة . فالحياة العسكرية التي اعتادها جعلته في عين من الدقات الكبيرة . لاجل ذلك لم يدع الى جمع المال .

غير ان اولياء الامر في الاستانة لم يرقهم استقلاله هذا ، بل استاءوا منه ، واخذوا يتحينون الفرص لخلعه . فاتفق ذات يوم ان دخلت الخزينة اربعون الف قرش من تركة بعض التجار . ولما طالبوه بها ، اجابهم انه انفقها على رواتب الجيش المتأخرة ، ودعب اليهم في ارضاه . فكان الصدر الاعظم اخ عليه في تأدية المال ، واوعد اليه مندوباً ركيباً ومعه خط شريف بضرب عنقه .

ولما وصل المندوب الى جوار مدينة بغداد ، تعارض وتظاهر بانه جاء انتجاعاً للصحة . ودعب الى عبدالله باشا بان يسمح له بزيارته والسلام عليه . فعبدالله باشا الذي كان ملماً باساليب الباب العالي ، ساوره الشك ، وامين حريته الذي كان هو ايضاً خبيراً بتلك الاساليب ، ارتاب هو ايضاً من مظاهر المجاملة التي ابداها الخصي ، فاقترح ان يبحث في امتعته فيما يكون هو ورفقاؤه في حضرة الدشا . فوافقه عبدالله باشا على ذلك .

ففي الميعاد المضروب مضى امين الخزنة الى خيمة الخصي ، وبعد التفتيش والبحث الدقيق عثر على الخط الشريف في بطانة فروة ، فانطلق من ساعته الى عبدالله باشا ، ودفع اليه الرقيم السلطاني . فوضع عبدالله باشا الرقيم في ردنه ، وعاد الى الغرفة حيث كان الخصي ، واستأنف محادثته بكل هدوء قائلا : كلما افكر في مجيئك الى بغداد ارداد دهشة لبعدنا بعيدة من الاستانة ، وليست بعادية ، لذلك ارتاب في كونك جئتها طلباً للصحة . فاجابه الآغا : نعم ، وقد عهد الي في ان اطلب منك في الوقت ذاته ان تدفع الي شيئاً من الاربعين الف قرش ، فقال الباشا لا بأس في ذلك . ولكن قل ايضاً انك جئت لضرب عنقي . وقد علمت انت مما يذاع عني اني رجل صادق لا يحنث بوعده ، فان صدقتني القول اطلقت سبيلك من غير ان ينالك ضرر .

فحمل عندئذ الخصي يدافع عن نفسه بحديث طويل ، ويؤكد انه لم يضمر له شراً . فقال له عبدالله باشا : اقسم لي برأسي انك تقول الحقيقة ، فحلف الخصي يدرئ نفسه من كل نية سيئة . فقال الباشا : احلف لي برأسك . لكن الرجل اصر على الانكار . فقال له عبدالله باشا : استحلفك برأس السلطان ، فحار من الكذب .

فلما رأى ان الخصي لم يجد قيد شعرة عن اقواله السابقة ، قال : لقد حكمت انت على نفسك بالموت . ثم اخرج من ردنه الخط الشريف ، وقال . اتعرف ما في هذا الكاغد . اهكذا انتم تدبرون دفة الحكم هنالك ، فلستم سوى عصابة لصوص ، فلا تحسبون حساباً لحياة الذين لا يحابون برضاكم متآمرين على سفك دم حضرة مولانا السلطان ان الصدر الاعظم يروم ان يرى هاماتكم معصولة ، فسيكون له ما يروم ، خذوا هذا الكلب ، واقطعوا رأسه ، وابعثوا به الى الاستانة .

ففي الحال اطاعوا امره . ورفقاء الآغا اطلق سبيلهم ، فعادوا ادراجهم ومعهم رأس الزنجي .

وكان في وسع عبدالله باشا ان يستفيد من حب الشعب له ، ويتمرد على الدولة . لكنه فضل مغادرة بغداد ، والاقامة بين عشائر الاكراد . ثم جاء عفو السلطان وهو هنالك ، والعراقة متوليته على دمشق . وكان في منفاه قد اصابه الضجر وامتلأ الملل ، كما ان المال كان قد فرغ من يده ، فرضي بالمنصب وسافر برفقة مئة من اتباعه .

ولدى وصوله الى تخوم ولاية دمشق ، علم ان اسعد باشا ضرب خيامه في مكان قريب . وكان يعرف ما له من الشهرة ، وانه اعظم رجل انجبته سورية . فرغب في ان يراه ، لاجل ذلك تنكر ، واصطحب مئة فرسان ، وقصد مخيمه ، وطلب مقابلته ، فادخلوه عليه بلا تكليف ، عملاً بالعادة المألوفة في مضارب البادية . وبعد السلام وعبارات الترحيب ، قال له اسعد باشا : من اين اقبلتم وابن تريدون ، اجابه عبدالله باشا : نحن مئة او سبعة فرسان اكراد نطلب عملاً . وقد سمعنا ان عبدالله الشتجي حاكم دمشق فعزمنا ان نطرق بابه . وبما اننا علمنا ونحن في الطريق ، بان مضاربكم قريبة ، فجئنا نطلب علفاً لخيلنا . فقال اسعد باشا : نعطيكم بطيبة خاطر ما تطلبون ، ولكن اتعرفون انتم الشتجي . اجابه عبدالله باشا : نعم ، فقال اسعد باشا كيف هو الرجل ، ايحب المال . اجاب عبدالله باشا : هو غريب الاطوار ، فلا المال يهمه ، ولا الدر ، ولا اللآلئ ، ولا النساء . فهو لا يحب الا السلاح الطيب ، والجياد الكريمة ، والحرب الضروس ، ويحب العدل ، ويحمي الارملة واليتيم ، ويقرأ الكتاب الكريم ، ويعيش على السمن والعسل . فسأله اسعد باشا هل هو طاعن في السن . اجابه : اقل مما يبدو عليه ، اذ الشقاء

صيره شيخاً قبل الاوان . وقد جرح مراراً عديدة ، وعلى اثر ضربة سيف ، غدا يعرج من رجله اليسرى ، وضربة اخرى جعلت عنقه تميل الى كتفه اليسرى . قال عبدالله باشا ذلك ، وانتصب قدامه وقال : اليس هذا اوصف طبق صورتي من رأسي الى اخمص قدمي ؟ .

فلما سمع اسعد باشا هذا الكلام امتقع من شدة خوفه ، ظاناً ان ساعة هلاكه قد ازفت . غير ان عبدالله باشا جلس وقال . ليطمئن بالك ، يا اخي ، اني لست برسول جاءك من كهف هؤلاء اللصوص . وما اتيت لاخونك ، فثق بي ، واذا استطعت ان اخدمك ، فاني لا اتوانى مطلقاً . فكلانا صنوان في نظر سيدنا ، فقد رضوا عني واعادوني الى بيعهم ، لانهم يريدون الاقتصاص من البدو ، واذا ما تم لهم ما يريدون ، استأنفوا التفكير في قتلي . لكن الله كبير فيفعل ما يشاء .

فذهب عبدالله باشا الى دمشق ، واعاد الى السكان الراحة والطمأنينة ، وردع العسكر عن التعدي عليهم ، وسار في مقدمة الجيع ، والسيف في يده ولم يؤدِ فلساً واحداً الى الدور . وفي اثناء حكمه الذي دام سنتين كان المدوّ ناشراً لوائه على البلاد . « فكان الناس ينامون وابوابهم مفتوحة » هكذا يقول الدمشقيون حتى اليوم . وهو نفسه كان ينكر متخذاً هيئة شماذ ويطلب كل شيء بنفسه ، والاحكام التي كان يصدرها وهو متنكر كان لها المفعول الحسن . ويروون على سبيل المثال انه وصل الى القدس في طوافه ، فحذّر رجاله من اغتصاب شيء من السكان . وقد حدث ذات يوم اذ كان يجول متخذاً شكل فقير وفي يده عصى عدس ، ان جندياً معه حزمة حطب ، قابله واجبره على حملها عنه ، فوضعها عبدالله باشا على ظهره ، وسار بها امام « العلي باش » الذي كان يشتمه ، وهو يسب ويشتم . ولكن سرعان ما

عرفه احد الحضور ، وهمس الى زميله بالامر ؛ فما كان من صاحب حزمة الحطب الا ان لاذ بالفرار ، متسللاً في لافتة . ولما خطا الباشا بضع خطوات ، ولم يعد يسمع صوت احدهم ، التفت ، فلم يره فاستأنف من انه خلص من يده . فالقى الحمل الى الارض ، وقال : يالله من لص لئيم . فقد فرّ اخذاً معه صحني واحرقي . غير ان امر الحمدي لم يطل ، لان عبدالله باشا فاجأه بعد ايام قلائل اذ كان يسرق بعض البقول من بستان امرأة فقيرة ، ويبيعها ، فعاقبها فضرب عنقه للحال .

واما هو فبعد نجاته غير مرة من قتلة كانوا يتربصون به ، مات مسموماً بيد ابن اخيه . وقبل موته عرف من هو سامه ، فدعاه اليه وقال له : يالك من شقي ، لقد عرّك الاشرار ، فدسست لي السمّ ، لتستولي على ما اتركه من بعدي . فهي وصيي قبل موتي ان اجنب امثالك ، واعاقبك على معلّتك ، غير اني اعرف الاشرار ؛ فهم سيأخذون ثأري منك .

فكان الامر كما قال ، لان بعد موته ارسل الباب العالي مندوباً معه خط شريف بخنق ابن الاخ ، فخنق .

وبعد عبدالله باشا آل الحكم الى شابك ، فعثمان ، فمحمد ، فدرويش ابن عثمان الذي تقلد الحكم في سنة ١٧٨١ . فدرويش هذا لم يكن له شيء من مناقب ابيه ، ولم يرث منه سوى الميل الى الاستبداد . فهاك حادثاً جديراً بالذكر :

في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٨٤ طُلب من قرية واقعة على مقربة من دمشق ان تدفع ضريبة المري ؛ فشرع القرية ابرزوا اوثائق الدالة على ان المريين دفعوا جميع المال المستحق عليهم ؛ لذلك رفضوا دفعه ثانية ؛ فما كان من بعض الجنود الا انهم اكتسحوا القرية ليلاً ، وقتلوا واحداً وثلاثين رجلاً

من سكانها . فاستولى الدير على القرويين الساكين فاخذوا هامات قتلاهم وجاءوا بها الى الوالي في دمشق ، وطلبوا منه انصافهم ، فاضفى درويش باشا الى شكواهم ، ثم اشار عليهم بدفن الهامات في الكنيسة الى ان يقوم بالبحث اللازم ، فمرت ثلاثة ايام ، ورمت الهامات ، ولما ارادوا دفنها لم يستطيعوا نقلها من مكانها بدون اذن الدير الذي لم يسمح بدفنها الا بعد اخذ مبلغ اربعين كيساً .

وفي السنة التي تلتها نزل درويش باشا وعلى عهده حدث خلاف بخصوص المال الوافر الذي بعث به الى اوليا الشأن في الاستانة . وقيل انذاك ان تنتهي السيطرة على ولاية حلب ايضاً . فلم تنل ما دعا اليه ، لأضحى سيد سورية باجمعها ، واستطاع ان يشق عصا الطاعة ويتصرف في الحكم بتصرف المستقل بامره .

بيد ان الدولة كانت مرتاحة الى من عدا تقصير اولا ان المشاكل التي كانت قائمة بينها وبين روسية ، شغلتها كثيراً عن الاهتمام بشؤون بلادها ، وتصرف عمالها فان خيرة واسعة علتها ان لابد للعصاة المتمردين من الوقوع ذات يوم في يدها ، فتوبث شوكتهم وازدادت سطوتهم .

واحرار ايضاً مع ما كان عليه من دهاء وفطنة وقوة ، عرف حق المعرفة انه يعجز عن التمرد على تلك القاعدة ، فلم يخطر قط على باله ان يتعرض على الدولة ، بل اتبع الخطة التي سار عليها اسلافه ، فلم يهتم بمصلحة العامة الا بقدر ما كانت تعود عليه بالمنفعة . فالمسجد الذي اقامه في عكا لم يقدم على بنائه ، وينفق في سبيله مليوناً ونصف قرش الا لانه كان يحب الظهور ، ويميل الى المباهاة . والسوق التي شيدها لا تتكبر فائدتها ، غير انه كان يجب عليه قبل التفكير في احداث مكان تباع فيه الطلة ، ان يهتم بالارض التي

تعطيها ، والزراعة على بعد عشرة من مكنا كانت معدومة .

وكان يتعشق اعظم جانب من ماله على حدائقه وحيواناته وسمائه البيض اللاتيني كان عددهن ثماني عشرة في السنة ١٧٨٤ ، وجميعهن يعرفن في التبذير والاسراف على تهجينهن .

وبعد طعنه في السن ، ودخول السآمة على نفسه ، اخذ جمع المال يستغويه ، فكان من حرآء بخله ان نفر منه جنوده ، ومن حرآء شراسته ان كثر اعداؤه حتى عدا بيته داته لا يخلو منهم ، فقد حاول اثنان من عظماء اهتياله ، الكتبه بما من نار عداوتهم ولم يجن من ادخاره المال سوى اثارة طمع الباب العالي فيه ، ومقت الشعب له .

ولنتحدث الآن عن الاماكن الجديرة بالذكر التي في هذه الولاية ، فان اول مدينة تسترعي الانتباه دمشق نفسها ، قاعدة الولاية ، ومقر الولاة ، والعرب يدعونها الشام ، واما الاسم القديم « دمشق » فلم يكن يعرفه سوى اصحاب تقاويم البلدان .

تقع هذه المدينة في سهل مترامي الاطراف ، وهي مفتوحة على البادية من الشرق والجنوب ، ومحصورة شمالاً وغرباً بالجبال العالية حيث تتفجر الينابيع ، وتتدفق الجداول التي تحمل جنتها وعوطتها الخصب الاراضي السورية ، واوفرها ري واروعها منظراً ، والعرب لا يذكرون دمشق الا بالثناء والاطراء معجبين بناظر ساتينها ، والخضرار حدائقها ، ووفرة ثمارها ، وكثرة غدرانها ، وصفاء مياهها .

غير ان التربة فيها حصة ضعيفة جرآء لا تصلح لزراعة الحبوب ، بل تلائم كثيراً اشجاراً تعطي الدّ الاثار .

وما من مدينة تضاهيها من حيث غزارة مياهها ، وكثرة سواقيها فكل

بيت له فسقية ، وجميعها تتغذى من ثلاثة عنران ، او دلاحرى من ثلاثة فروع لنهر واحد يروي الحقاق والساقيات المنسعة على تنعتيه بطول ثلاثة فراسخ ، ثم يتجمع في ارض منخفضة رقعة في وسط البرية فيكوّن مستنقعاً واسعاً يدعونه بحيرة المرج .

وتعد دمشق من حيث موقعها احد مدن تركية قطعاً ، لكن هواءها ليس في غاية النقاوة . والدمشقيون معرضون للانقباض ، وبياض بشرتهم ليس الدليل على جودة الصحة ، وامراضهم في اكثر الفراكة ، ولا سيما مشمش ، تنجم عنه في فصلي الصيف والخريف زحار و لحميات .

وشكل المدينة مستطيل ، « وبيهر » الذي صوّر مخططها في القرن الثامن عشر ، قدّر انها تحتوي بتسعة عشر الفاً وخمسمئة قدم مربعة ، باعتبار ان طول دائرها فرسخ ونصف الفرسخ . فكان عدد سكانها ثمانين الفاً ، خمسة عشر الفاً منهم نصارى ، ثلثهم ارثوذكسيون .

والدمشقيون يعتقدون ان مدينتهم مقدسة ، لكونها ليس الكعبة فقط يجتمع الحجاج القادمون من مختلف الانحاء الشرقية ، كما يجتمع في القاهرة حجاج اوربة . فيتوافد عليها كل سنة جمهور مهم ، يصل بعضهم اليها قبل الاوان بعدة اشهر ، واما الجمهور الاعظم فيأتيها في اوائل شهر رمضان . فتشبه دمشق حينئذ بندراً او سوقاً عظيمة ، لا يُرى فيها سوى عربات حاملوها من سائر اطراف البلاد التركية وما حولها ، تزدحم فيها الابل والخيل والبغال ، وتكتنظ حاناتها وخاناتها شتى انواع البضائع .

وبعد استعدادات وتأهبات دوم بضعة ايام ، تبادر تلك الجماهير الى السفر بلا ترتيب ولا نظام ، متسعة طرق البادية ، فتصل الى مكة بعد اربعين يوماً ، اي في عيد الاضحى . وعلى انها تمر بأراضي بعض القبائل ، فتدعو الحاجة الى

الاتفاق معهم باعطائهم مالاً واستخدامهم كأدلاء .

وقد يقع في غالب الاحيان اختلاف بين مشايخهم ، فيتخير امير الحج الفرصة للاستفادة من نزاعهم ، فيبادر الى مساومتهم . ومن المعتاد ان تُعطَى على عهدها القبائل الضاربة بطول بلاد حوران ، فيبعث الباشا الى رؤسائها سلاح وحنطة وحبة ، ويبشه بانه جعله رئيس الادلاء . ويعني بذلك انه عهد اليه في امداد ، يحتاج اليه القفل من ابل بأجر معين من غير ان يضمن له اي تعويض كان من الخسائر التي تلحق به ، لانه يموت عادة عشرة آلاف بعير في الموسم الواحد .

والحج فرصة فريدة لمعاطاة تجارة جزيلة الارباح ، فان فريقاً كبيراً من الحجاج يغادرون بلادهم ومعهم بضائع يبيعونها في اثناء السفر ، والمال الذي يجنونه منها يحولونه الى المال الذي يحلونه معهم ، فيشترون بعض في مكة ، الشاش والاقمشة الهندية المنسوجة في السند والمدار وشال كشمير ، وعود الصين وبنّه ، وعدن الهند ، ولآلىء البحرين ، والتوابل ، والاباذير والبن اليمني .

وقد يتفق احياناً ان يجيء البدو الامال ، لهيبهم اموال المتباطئين في السير ، وعزلهم المنفصلين عن القفل . ومع ذلك يصل الحجاج الى بلدهم سالمين ، فيعبطهم مواطنهم بمظاهر الاكرام والاحترام ، فيصغون للذين يأتون للسلام عليهم ، عجائب الكعبة ، وحمل عرفات ، وهوج الحجاج ، وكثرة الذبائح المنحورة يوم العيد ، والمشقات التي كابدوها ، وهيئات البدو الغريبة ، والبادية التي لا مأوى فيها ، وضريح النبي في المدينة . فوصفهم هذا يثير اعجاب السامعين وحميتهم .

ودمشق التي هي محور تجارة واسعة النطاق ، تتصل من طريق حلب

بارميية ، وبلاد الاناصول ، وديار بكر ، وبلاد فارس ، وتوفد القوافل الى القاهرة عن طريق حمص وحلب ، وطرابلس ، ونابلس ، وغزة ، وتستورد البضائع من الاستانة واوربة عن طريق بيروت ، وتصدر منها ايضاً الاقمشة الحريرية والقطنية التي اشتهرت بنسيجها ، والفواكه المجففة ، ومرب الورد والمشمش ، وغير ذلك من الحلاوي التي تتقن صنعها . وتشتري تركية من هذه الاقمشة والمرتبات ما تساوي قيمته اربعمئة الف قرش . وتجارة كهذه تجلب على دمشق مالاً واموراً ، ويرجع عهدها في سورية الى اقدم العصور . وقد قامت طرقاً متعددة واتخذت اساليب مشروعة ، على حسب تعدد الامكنة ، وتبدل الاحوال ، وكان يحميها في وراء ذلك دائماً حتى بعد زوالها ، وولاية دمشق تعطينا من هذا القبيل شاهداً حديثاً يمكن اعتباره ، الا وهو قدم التي دامت شهرتها في حقبة الثالثة روما ، من حرير سور المجيد الذي نمت به في مصنوع الذراع الذي نشب بين الاطيين (Parthes) والرومانيين ، سواء كان في ايام اديسة وتراجان او بعد سقوطها ، وحراجها في مصر أوريانوس قيصر ، خلدة في بطون التاريخ ذكرى مجيدة ، الخ

وبما ان معالم عظمتها لم تعرف بالضبط ، فلم يكن من السهل تكوين فكرة صحيحة عنها . حتى في اوربة عينها لم يكن يخطر على بال احد وجود آثار لها ، الى ان صنع في اواسط القرن السابع عشر بعض التجار الانكليز المقيمين بحلب ، ان في الصحراء خرائب عظيمة ، فوطدوا انفسهم على كشف القناع عن حقيقة امرها . لكنهم اخفقوا في محاولة اولى اقدموا عليها في سنة ١٦٧٨ ، لان البدو اطبقوا عليهم ، وهم في الطريق ، وجردوهم مما كان في حوزتهم ، فاضطروا ان يعودوا ادراجهم من حيث اتوا بخفي حنين .

وعادوا الكرة في سنة ١٦٩١ ، وتوصلوا بعد الجهد الكثير الى العثور

على الآثار التي ذهبوا للبحث عنها . لما نشروه آنئذٍ في المجلات العلمية الى الكثيرون تصديقه لاعتقادهم انه ليس من المعقول ان تقوم في بقعة بعيدة عن الاماكن المأهولة مدينة كالتي مثّلها وصفهم وتصويرهم .

ولكن منذ ما نشر « داوكنس » الانكليزي [1] في سنة ١٧٥٣ الرسم الكامل الذي نقله هو نفسه عن تلك الآثار والاطلال في السنة ١٧٥١ لم يبقَ للشك اي محل ما . فاجمعوا عندئذٍ على القول ان الاقدمين لم يتركوا شيئاً سواء كان في بلاد اليونان او ايتالية يضاهي محاسنه آثار تدمر .

فهاك ملخص ما رواه « دوبرت وود » رسيل « داوكنس » ومدوّن وقائع رحلتهما قال :

« لما وصلنا ونحن في دمشق ان تدمر تقع في المنطقة التي يسيطر عليها آغا يقيم في قرية الحسية الواقعة في الصحراء على الطريق التي ما بين دمشق وحلب ، قصدنا اليه ، وقد استغرقت رحلتنا اربعة ايام ، فاستقبلنا الآغا احسن استقبال ، واولانا ضيوفاً عليه بذلك الكرم الذي اشتهر به اهل تلك البلاد ، اعني اكلوا او فقراء . وما ان علم بقصدنا حتى دهش من قصدنا ، لكنه ادرك اننا كنا في حاجة الى معرفته ليبلغ هدفنا .

« اننا وصلنا الحسية في ١١ اذار سنة ١٧٥١ وتصعدنا حرس من احسن فرسان الآغا مسلحون بالدروع ورماح طوال ، فوصلنا الى قرية سدود بعد مسير اربع ساعات في سهل قاحل ، ينبت فيه عشب لا تقوى على رعيه حتى الغزلان التي لقيناها اسرابها هنالك . وهذه القرية حقيرة فقيرة ، بيوتها مبنية باللبن وسكانها موارنة ، يزرعون في الاراضي التي حولها ما يقتاتون به ، ويصنعون خمراً جيدة .

---

(١) راجع الحاشية صفحة ٦١ .

« وفي المساء استأنفنا السير ، فبلغنا القرية التركية حوارين بعد ثلاث ساعات ، فقضينا ليلتنا فيها ، وهي ليست احسن حالاً من سدود . وقد شهدنا في حوارها قرية مهجورة ، وهو امر كثيراً ما يحدث في تلك البلاد حيث ينتزح السكان عن اراضيهم ، ان لم تأتهم منّة تزكي جهودهم .

« غادرنا حوارين في ١٢ اذار ، فوصلنا الى القريتين بعد ثلاث ساعات سرنا في اثنائها شرقاً بجنوب . وهذه القرية تماثل القرى التي مرجنا عليها ولو انها اكبر منها . وقد عزمنا ان نقضي فيها باقي يومنا لنتأهب للشطر الاخير من رحلتنا الذي يستغرق اربعاً وعشرين ساعة اخرى يجب قطعها في مرحلة واحدة اذ الطريق لا ماء فيها .

« فقمنا اداً من قريتين في اليوم ١٣ اذار ، وكنا حينئذ نحو منتصف نهار ، وعلمنا ما يقارب ذات العدد من جمل وبغال وحمال ، وكان معنا شكل عجيب واما اتجاهنا فيها فانه كان شمالاً شرقي ، فاجتزنا بصحراء رملية عرضها ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ لا ماء فيها ولا نبات ، يحدق بها جنة ويسرة جبال قاحلة بدت لنا من بعد كانها تتلاقى على مسافة ثلثي الفرسخ من قدمنا .

« وعند ظهر اليوم ١٤ وصلنا الى المكان الذي خيل الينا ان فيه تتلاقى تلك الجبال ، واذا بواد يفصل بينها ، فرأينا فيها آثار قناة كان الماء يسيل منها الى قدمنا ثم شهدنا يميناً ويساراً ابراجاً مربعة الشكل عالية . ولكن ما ان دنونا منها حتى اتضح لنا انها قبور القدريين وبعد ما اجتزنا تلك الآثار الجليلة ، بدت لنا فجأة من فرجة الجبال التي على اليمين ، خرائب مدينة ، لم نكن رأينا مثلها قط ، تمتد وراءها حتى نهر الفرات صحراء جدباء .

« فرأينا اغرب ما يمكن تصوره ، اي عدداً كبيراً من الاعمدة الكورنثية ،

ويجوارها جدار وابنية »[1] .

وفي وسط تلك الاعمدة العظيمة ذات الاطناف المزدانة باجمل ما توصل الفن الى ايجاده من نقش وحفر . وفي وسط الجدر المنيعة والاقواس البديعة التي ما زالت منتصبة تنتهي الروعة والجلال ، يصادف المرء اكواماً حقيرة قذرة تقيم فيها أسر بدوية بائسة ، فقرها مدقع ، لا تملك من حطام الدنيا الا بعض المعز والنتاج .

وكانت تدمر قبل المسيح المكان الذي ترد اليه بضائع الهند عن طريق الخليج الفارسي ، فتسعث بها الى فينيقية واسية الصغرى عن طريق الفرات والصحراء .

ومما كان يحمل على السكنى في تدمر عيان يتدفق منها ماء عذب في تلك الديار . فوقعها هذا جعل سليمان يقدم على فتحها . وقال يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الاول بعد المسيح : وهي (سليمان) فيها اسواراً متينة بضمن امتلاكها ودعاها تدمر اي بلاد النخيل .

واذا ما غادرنا تلك الخرائب العظيمة ، وعدنا الى الاماكن الآهلة وجدنا مدينة حمص الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ، والتي كانت كثيرة السكان في سالف الزمان . واما الآن فهي بلدة خربة يقطن فيها نحو الفي نسمة بعضهم روم والبعض الآخر مسلمون . وكان متولياً عليها آنما قد اقرها من والي دمشق ، ويشمل التزامه جميع الاراضي الممتدة حتى تدمر ، وهي التي

---

(١) وهنا يشرح والي حمل تلك المباني مستعيناً برسم طويل جميل صنعه الى كتابه مثلث فيه تلك الاطلال الرائعة ، احسن تمثيل . ثم يحمل شرحه سهلا جدا . فيورد الدارس ما ذكر الى تلك العصور التي استطاعت امرأة عظيمة ان تشيد في الصحراء مدينة على وشك ان تحطم قواعد ملك يتوارث على عرشه عظماء .

مع حماة ومعرّة النعمان ، اقطعها السلطان والي دمشق باربعمئة كيس .

وعلى مسير يومين من حمص تجد حماة الشهيرة بنواعيرها التي هي اكبر النواعير المعروفة ، فدائرة عجلاتها مؤلفة من قواديس مركبة بنمط يجعلها تدور على نفسها وهي ممتلئة ماء . واذا ما وصلت الى قمتها انحدر منها الماء الى حوض متصل بقنية ، فيسيل فيها الى الحمامات الخصوصية والعمومية .

وتقع حماة في واد ضيق على ضفتي نهر العاصي ويبلغ عدد سكانها اربعة آلاف . وتجارتها لا بأس فيها . وتلائم تربتها القطن والحنطة . واما الزراعة فيها ضئيلة من جراء عسف المتسلّم وتعدّي العرب .

واذا واصلنا سيرنا نزولاً مع نهر العاصي على طريق قلما يسلكها المسافرون رأينا في وسط البطائح مكاناً يسترعي الانتباه من جراء التمر العظيم الذي طرأ عليه . والمكان يُدعى « قامية » وكان يعرف باسم « ابامیا » وهي من المدائن الشرقية الشهيرة . وقال « استرابون » : « كان السلوقيون قد جعلوا هنالك ميداناً للتدريب على ضروب الفروسية ، وحوشاً واسعاً تتوالد فيه وتنمو الجياد المعدّة لفرسانهم .

والاراضي التي في جوارها تكثر فيها المراعي ، فثلاثون الف فرس ، وثلاثمئة حصان ، وخمسمئة فيل كانت ترتع فيها وتمرح وجنود الاسكندر الذين جعلوا من هذا المكان محطة استراحة ، حفظهم عليه فلاحون فقراء ، يقضون العمر في خوف دائم من جور الحكام وتعدي البدو . وتلك هي ايضاً حالة سكان القرى التي ما بين الصحراء والطابق الجنوبي من دمشق عند سهول حوران .

والحجاج الذين يسيرون في وسط تلك السهول خمسة و ستة ايام في مخاوف مقرهم ، يرون امامهم كثيراً ما يمثّرون على انقاض منازل قديمة ، غير انها لا

تستوجب الانتباه ، ولا هي ذات اهمية من الوجهة التاريخية .

ان المواد الصلبة التي تصلح للبناء مفقودة من هذه السهول ، والارض لا تقض في تربتها ولا حصى ، فما يرونه من حصها ، يؤيد ما قالته فيها حكماء العراقيين ، وانها ترزع القمح ، ينضج نجماً باهراً ، ويتم حتى يباع طوه قافلة رحل ، معطيةً غلة وافرة ، ذلك ما لم تحبس السماء الغيث عنه . ويؤكد الحجاج ان الرجال هنالك ذوو قوة وقوام لا مثيل لهم في سائر انحاء سورية ، ويشبهون المصريين بلاجهم ولون بشرتهم تحول هواء اصقاعهم الكثيرة الحرّ و الحمأ .

ومعظم قراهم يحميها العرب ، غير انهم يؤدون الخراج الى صاحب دمشق والأمن مستتبٌ في الجبال المتحدة نجاداً وعراً . لاجل ذلك التجأت اليها بعض الاسر الدرزية والمارونية التي اضنتها قلاقل لبنان وحروبه ، واقامت ها قرى ، وشيدت فيها معابد حيث تقوم شعائر دينها بلا مانع ولا عائق .

وكل اقترب المسافر من نهر الاردن ، تعاقبت الجبال ، وتوالت الاراضي المروّية . واو دي الذي يجري في وسطه النهر ، كثير المراعي ، غزير الكلا وعلى الاخص في شطره الاعلى . والعرب الذين لا يعرفون لفظة « اردن » ، يسمونه نهر الشريعة . ومتوسط اتساعه ما بين البحيرتين الكبيرتين نحو خمس وسبعين قدماً . واما عمقه فهو نحو اثنتي عشرة قدماً ، فاذا تضخّم في الشتاء خرج من مجراه على اثر سقوط الامطار التي تنحدر اليه سيولها ، فيفيض عندئذٍ على ضفتيه ، فيصبح عرضه ربع فرسخ ، وفيضانه الاعظم يحدث في شهر اذار اذ تذوب الثلوج المتراكمة على جبل الشيخ فتتكدر حينئذ مياهه ، ويزداد انحدارها سرعة . وعلى شطئيه غابات متكاثفة تأوي اليها الخنازير البرّية والسمورة وسنانير آوى والارانب والطيور .

واذا عبرت النهر في منتصفه ، ولجت اراضي حملية عُرفت في قديم الزمان

باسم مملكة السامرة ، ويدعونها اليوم بلاد نابلس ، قاعدتها مدينة نابلس . هذه المدينة ، او بالحري القرية ، مشيدة على انقاض « نيابوليس » اليونانيين . وهي مقرّ شيخ ملتزم يعينه صاحب دمشق .

ولا فرق بين هذه الاماكن وبلاد الدروز الا من حيث ان سكانها مسلمون ذوو حمية ، لا يرضون بان يعيش بين ظهرانيهم من لا يدين بدينهم ، واما اراضيهم فانها جبلية خصبة الغرسة ، تعطي بوفرة التبغ والقطن والزيتون .

وبعدهم عن دمشق ووعورة اماكنهم يجعلانهم في مأمن من جور الحكام ويمكنانهم من ان يعيشوا بهناء وسلامة بال ، فكانوا يُعدّون امنى شعب في سورية . ولما انهم لزموا جانب الحذر في اوان الاضطرابات التي حدثت في بلاد الخليل وفلسطين فنقل الكثيرون من ذوي اليسار الى مجاورتهم لكي ينجوا من مفاجآت الزمن وجشع الحكام . غير ان طمع بعض رعاتهم ما فتئ ان اوجد فيهم ميلاً الى النزاع والعصيان والشقاق ، فكانوا من جرّاء ذلك اضراراً لا تقل جسامة عن التي يلحقها بغيرهم حكام البلاد .

وبعد مسير يومين من نابلس جنوباً ، في وسط جبل تُرداد على التوالي وعورة ، يصل المرء الى مدينة تعدّ شاهداً ناطقاً لتقلبات الزمان وعوائل الحدثان . فاذا ما رأيتَ اسوارها المهدومة وخنادقها المردومة ، والانقاض المكتنفة بها محيطها ، صعب عليك ان تصدق انها هي اورشليم ، تلك العاصمة الشديدة البأس التي قاومت في مابر الزمان جيوش اعظم الممالك . وها هي ذي الآن ، مخمول تعاقب الحوادث ، وتبدل الاحوال ، تحتط شتّى ضروب الاكرام والاجلال . ومما يحمل على العجب من الحظ العظيم الذي تتمتع به ، كونها قائمة على بقعة وعرة ماحلة قاحلة ، لا ماء فيها ولا كلأ ، تحدق بها الاودية والمنخفضات والهضاب . ونظراً الى بعدها عن الطريق الكبرى ، كانت تلوح لنا كما لو تصير

مدينة ذات شأن . غير انها انتصرت على جميع العوائق ، مهتمة على ما يستطيع التكر فعله اذا ما سيطر عليه شارع ماهر او جاءته فرص طيبة .

والمقرة الرهيبة ، التي لها عند اليهود والنصارى والاسلام ، قد تحمل على الظن ان اهلها اكثر الامم ورعاً وصلاحاً . غير ان الحقيقة هي بخلاف ذلك . وعددهم يناهز اربعة عشر الفاً . واما مسيحيوها فان تحاصمهم متواصل ، وتحاقدهم دائم ، فدراهمهم التي تثيره دراهم تافهة ، يعود عليهم بالضرر ، وعلى الحاكم بالفائدة . فاولياء الامر يتهورون خصامهم ، فيبتزون اموالهم . لذلك يدأب الحاكم في توسيع شقة الخلاف ما بين طائفة واخرى .

ودخل المتسلم اي الحاكم يناهز مئة الف قرش ، فهو يتقاضى من كل زائر رسماً قدره عشرة قروش ، وخفارة من الزوار الذين ينوون الذهاب الى نهر الاردن ، فضلاً من المغارم التي يفرضها عليهم لدى كل سانحة وبارحة .

وله على كل دير من الاديار الطوائف المختلفة مبلغ مال معلوم يأخذه باسم رسم طواف او اصلاح عمار . وبما ان التنافر مستحكم الحلقات بين تلك الديورة فان كل واحد منها يرشوه لكي يشمله بعطفه ، ويؤيده بنفوذه ، او يغض الطرف من مخالفته النظم المتبعة القائمة عليها حقوق الطوائف . والاديار تقدم له الهدايا في بدء تقلده منصبه ، او عندما يولى عليها رئيس جديد .

ويتقاضى ايضاً ضريبة على السلع المختصة بصنعها مدينة القدس كالمسبح والصلبان وما اليها من التحف الدينية التي يصدرون منها كل سنة ثلاثمئة صندوق ، والتي تشتري منها الاديرة شيئاً كثيراً . ودير اللاتين وحده ينفق على مشترياته خمسين الف قرش في السنة .

وتوافد الزوار على بيت المقدس يدر على الديورة والمدينة الارباح الجزيلة . غير ان عددهم آخذ في التضاؤل ، وفي سنة ١٧٨٩ لم يرد منهم سوى الف زائر

بعد ما كانوا فيما سبق اثني عشر الفاً او يزيدون . واما ما ينفقه الواحد منهم فيتجاوز الالف والستمئة قرش ، وهو مبلغ كانوا آخذين يعدونه جسيماً ، بيد ان بعض الزوار الاغنياء ينفقون اضعافه .

ورحلة الزوار الى نهر الاردن تأتي الحاكم بدخل لا يقل عن الاربعين الف قرش في السنة ، يُنفق بعضها على مواكبة الزوار لاجل حراستهم . والكثيرون منهم يشمون يدهم بيقين الوشم شاهداً ناطقاً على انهم حجوا بيت المقدس ، وانما الوشم لا يخلو من الخطر ان مرر الواشم الابرة في عصب الكتاع ، فقد يؤول ذلك احياناً الى بتر اليد الموشومة .

وعلى مسير ستة فراسخ من القدس بلدة اريحا الواقعة في وسط سهل طوله نحو سبعة فراسخ ، وعرضه ثلاثة ، حوله جبال جرداء ، تجعل الحر حاراً . وكان سكانها يعتنون بغرس شجيرة البلسم التي تشبه الورد ، فاوراق كاوراق الخردل ، وتحمل ثمراً داخل لوزة يستخرجون منها مادة يدعونها بلسماً . غير انهم عدلوا الآن عنها واستبدلوها بشجرة يسمونها الزقوم ، وهي تشبه شجر الخرنوب ، فيستخرجون منها زيتاً حلواً ينفع في الجروح والقروح ، فاشواك طول الواحدة اربع اصابع ، وورق كاوراق الزيتون ، انما اضيق منها ، واكثر اخضراراً ، واطرافه شائكة . وثمرها كالبلوط ، ولكن ليس له كمّ ، وتحت قشرته اب فواكه ، يستخرجون منها زيتاً ، يُباع باسعار طيبة . فتلك هي تجارتهم الوحيدة . واريحا ليست سوى قرية صغيرة حقيرة .

وبيت لحم لا تبعد عن القدس سوى فرسخين جنوباً بشرق ، وهي مشيدة على اكمة في بقعة كلها تلال واودية صغيرة . لاجل ذلك هي جميلة الموقع ، وتربتها تفوق بجودتها تربة غيرها من الاراضي التي تجاورها ، فتنجح فيها اتمّ نجاح الاشجار المثمرة والكرمة والزيتون والسمسم . ويقدرون بستمئة عدد

رجالهُ القادرين على حمل السلاح ، وكثيراً ما يختفون الحسام لمقاومة الباشا ، او لشنّ الغارة على القرى المجاورة ، او لبعض نزاع ينشب فيما بينهم .

واصحاب الطقس اللاتيني عددهم مئة ، يقوم بخدمتهم الروحية احد رهبان دير القدس الكبير . وكانوا يتعاطون جميعهم صنع السرج ؛ غير ان الرهبان لم يستطيعوا شراء كل ما كانوا يصنعونه منها لذلك اضطروا ان يعودوا الى فلاحة اراضيهم . والمسيحيون في بيت لحم يعيشون بسلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين ؛ وجميعهم من الحرب اليمنيّ والفلسطينيون حزبان : يمنيون وقيسيون .

وعلى مسافة ستة فراسخ من بيت لحم الى الغرب مدينة حبرون التي يدعوها العرب « الخليل » نسبة الى ابرهيم الخليل المدفون فيها . وبيوتها مبنية بالحجارة قليلة قديمة . والاراضي التي حولها لها شكل حوض مستدير ، طوله خمسة فراسخ او ستة ، تتوالى فيه على خط لطيف الآكام الوعرة ، وعليها البلوط والصنوبر ، وبساتين الزيتون ، والكروم التي لا يستخرج السكان من عنبها خمراً ، لانهم جميعهم مسلمون ، بل يجففونه زبيباً ، ولو انهم لا يتقنون عمله . ويزرعون القطن ، فيمزلونه ، ويبيعونه في القدس او غزة . ويصنعون الصابون ، ويأتيهم البدو بالعلي الذي يدخل في طبخه . وعندهم معمل للزجاج وهو الوحيد في سورية . ففيه يصنعون الجوائم الملوّنة ، والساور ، والخلاخل ، واشياء اخر تافهة يبعثون بها الى الاستانة .

فتلك الصنائع جعلت لحبرون مقدرة ممتازة ، وهي اقوى بلدة في تلك الارجاء ويمكنها ان تسلّح ثماني مئة رجل . وبما ان سكانها ينتمون الى الحزب القيسي فهم وسكان بيت لحم اضداد وخصوم . فالنزاع القائم منذ القدم بين اهل تلك البلاد يجعلهم متحفزين دوماً للقتال وخوض الحروب الاهلية . وكثيراً ما يغير بعضهم على اراضي البعض ، فيتلفون الزرع ، ويقلعون الشجر ،

ويحطمون الغم والمعز والابل . وقلما يحاول الحكام ردعهم من حرآ. عجزهم وضآلة نفوذهم .

ان البدو المقيمين في الاراضي المنبسطة مجمعون على مشاكسة الملاحين الذين يلتقمون منهم دشن الغارة عليهم ، فيؤدي ذلك الى احداث فوضى هي شر من الاستبداد الواسع تحته باقي البلاد .

واذا ما برحنا جهون الى الغرب ، وصلنا بعد سير ست ساعات الى مرتفعات هي في هذا الجانب الحلقة الاخيرة لجبال اليهودية . والمسافر الذي يكون قد سئم تلك المناظر الوعرة التي فارقها ، يلقي نظره مرتاح على السهل الواسع المتساوي الذي يمتد عند قدميه حتى البحر المتوسط امامه ، فذلك هو السهل المعروف باسم فلسطين ، الذي تنتهي به ولاية سورية .

ايالة فلسطين

كانت ايالة فلسطين تشمل في اواخر القرن الثامن عشر الاراضي الواسعة من الحاب الواحد ، ما بين البحر المتوسط غرباً ، وسلسلة الجبال شرقاً ؛ ومن الجانب الآخر ، ما بين خطين ، يبدأ احدهما عند خان يونس ، ويمتد الآخر شمالاً من قيصرية حتى غدير يافا .

فهذه البقعة تتكون من سهل شبه مستوٍ لا انهار فيه ، ولا غدران ؛ غير ان تربته جيدة ، وقد تكون كثيرة الخصب اذا ما جادت السماء عليها بالمطر . وهي سوداء دسمة ، تدخر في جوفها من الرطوبة ما يكفي لانضاج الغلول والحبوب في الشهر الصيف . لذلك يكثر فيها زرع الذرة والسمسم والبطيخ والفول والقطن والشعير . واما القمح فلا يزرعون منه الا ما هم في اقصى الحاجة اليه ، لخوفهم من طمع الحكام واعتداء البدو .

وهذا الصقع هو الاكثر خراباً من سواه في سورية باجمعها ، اذ الاغارة عليه سهلة لكونه مفتوحاً امام البدو ، والذين يرغبون فيه ، يفضلونه على غيره لخلوه من الجبال . لذلك لم تزل ترد اليه يعارون الحكام لاستيلاء عليه ، حتى اكثرهم على التغلب لهم من جانب منه ، بدل مال يؤدونه الى الدولة في مواعيد معينة ؛ فاخذوا يشنون الغارة منه على المسافرين ويقطعون الطرق ، وهو امر جعل السفر ما بين غزة وعكا محفوفاً بالاخطار .

وكان يمتاز في فلسطين حكامه عما لقب بشا والى حرت العادة بعدئذ بجعلها ثلاث ايالات ، هي يافا والقدس وعجلون ؛ فالاولى منها خصت بالسلطنة الواسعة ، اي ام السلطان ؛ والثانية والثالثة سميتا الدولة الوزان الاعلى

مكافأة له على ماقام به من الاعمال المجيدة ، وعلى فوره بالشيخ ظاهر العمر ، وهو يعطي التزامها بمئتين وخمسة عشر كيساً لما يقيم بالرملة اي ١٨٠ كيساً عن غزة والرملة ، و٣٥ كيساً عن اللدّ .

واما التزام يافا فانه استند الى آغا آخر بمئة وعشرين كيساً يدفعها الى السلطانة الوالدة ، فيتقاضى بالاموال التي يجبيها من المدينة والقرى المجاورة غير ان الجانب الاكبر من دخله يأتيه من المكوس التي يتقاضاها على جميع البضائع صادرة كانت او واردة ، وهي لعمري ذات شأن ، اذ في يافا يحولون الارز الذي ترسله مدينة دمياط الى القدس ، واليها يمشون بالبضائع المعدّة للوكالة التجارية الفرنسية التي في الرملة ، وفيها يحول الى البرّ الزوار الآتون من بلاد اليونان والاستانة ، واليها ترد غلال الساحل السوري ، ومنها يصدر القطن المغزول ، وتودع الغلال التي تبعث بها فلسطين الى مدنها الساحلية .

واما الجنود الذين تحت يد الآغا وعددهم ثلاثون ، فلا يقوون على حراسة الاماكن الموكول اليهم امرها . ومدينة يافا ليست حصينة ، ولا هي ذات مرفإ حسن . وانما هيناً الآغا القلعتان فيها قرب شاطئ البحر تجعلانها اجمل مدن ذلك الساحل . وقد حصنتاها في الحروب الاخيرة من مقاومة المحيرين عليها .

واما مرفأها فهو في اسوإ حال ، فقد ازالوا منه الردم المتراكم فيه ، لاستطاع استيعاب عشرين سفينة ، حمولة كل واحدة منها ثلاثمئة طن . لاجل ذلك تضطرّ السفن التي تأتي اليها ان تلقي مراسيها على مسافة فرسخ من الشاطئ ، وهي مع ذلك لا تأمن الخطر ، لان قعر البحر صخور كثيرة الصخور .

وكانت يافا قبل الحصارين الاخيرين احسن مدينة على الساحل . وكانت تكثر في جوارها بساتين الرتقال والليمون والكباد والسجيل والزيتون الذي

يشبه شجرة دوح الخروب . فالمماليك قطعوا جميع تلك الاشجار للاستدفاء او للاشعلة . غير ان العدو لم يستطع ان يحرم باباً الآء الطيب الذي يروي ساقيتها وهو الآء الذي احيا حرائم تلك الاشجار فأخذت تتشكر بسرعة .

وبلدة اللدّ التي تبعد عن ياف ثلاثة فراسخ ، عرفت في قديم الزمان باسم ديوسبوليس ، وهي اليوم تشبه مكاناً احرق عليه العدو النار والدمار ، فلا يرى في الرقعة التي ما بين اكواخ السكان وقصور الآغا ، سوى انقاض واطلال وبيوت منهدمة . ومع ذلك تقوم فيها سوق يتوافد عليها اهل القرى المجاورة لبيع القطن المنزول .

ونصارى اللد يشيرون باحترام الى انقاض كنيسة مار بطرس ، ويدعون الزوار الى الجلوس على عمود يزعمون ان القديس كان يجلس عليه ويشيرون ايضاً الى محرابين ، زاعمين ايضاً انه كان يصلي في الواحد منهما ، ويبصق الناس من على الآخر .

وعلى مسافة ثلث فرسخ من اللدّ بلدة الرملة اي ارمانيه القديمة ، وعلى جانبي الطريق المؤدية اليها سياجان من الصبر . والرملة كاللد حرة . وتآمرة حداها مقرّه باقامته في دار سقفها وحيطانها متداعية . وقد قيل ذات يوم لاحد عوام الآغا : « لماذا لا يصلح الآغا عرفته ، ما دام يأتي ترميم الدار كلها ؟ » فقال : « وان نُزل في العام المقبل ، فمن يعوّضه من نفقات الترميم ؟ »

وتحت يده مئة فارس ومئة جندي مشاة ؛ ويقيم فريق منهم في كنيسة قديمة ، وفريق آخر في خان تكثر فيه العقارب والحشرات .

والاراضي التي في جوار هذه البلدة تعطي ريشوناً جيداً ، غرست اشجاره على نمط هندسي لطيف ، وهي اشجار كثيرة كدوح الخروب . بيد انها قادرة على التلف من جرآء قدمها او اهمالها او العبث بها .

والعبث بالشجر كثير الحصول في هذه الاحياء اذ القروي يأتي فيقلع شجرة خصمه ويكسرها او يثقبها عند اصل جذعها ، ثم يعطيها للتراب ، فتسيل مادتها وهكذا تتلف شيئاً فشيئاً .

وان احتاج المرء بهذه البساتين يرى الكثير من الآثار الجلية والصهاريج الحجرية والمصانع المقببة ، مما يدل على ان البلدة كانت ذات سوق محيط يبلغ الف سنخ ونصف الفرسخ . واما الآن فليس فيها مئتا نسمة .

والاراضي القلائل التي يعمرها ويزرعها ، يملكها المفتي او اتباعه او ثلاثة من اقربائه ، واهم ما يتعاطاه من الاعمال بعضهم حرث القطن الذي يبثه بهم تجار فوسيون . ويصنعون ايضاً اصباغاً فيبعثون به الى مصر . ومما يجدر بالذكر انه في سنة ١٧١٨ عهد لأحد اتباع المفتي في اقامة طاحون هوائي في الزمنة ، وهو الوحيد في مصر وسورية مع انه يقال ان مخترع دواليب الريح ورحى الهواء شرقي .

والاثر القديم في الزمنة ، مئذنة جامع قائمة على طريق يافا ، يؤخذ من الكتابة العربية التي عليها ان بانيها الناصر محمد قلاوون احد سلاطين مصر . ويمكن تشريح الطارف من اعلاه على الخيال التي تأتي السهل حيث بعض القرى الخفية التي تحمل على حروف اسطحها صنع الدلّ والفقر . والبيوت هناك بعضها منفرد ، والبعض الآخر مؤلف من حجر متشعثة حول باحة يحيط بها سور من لبن .

وفي فصل الشتاء يقيم القرويون حيث يزرعون مواشيهم ، فيدفأون من غير ان يصطلوا بنار ، ففي ذلك توفير ذو شأن في بلاد يعوزها الحطب . واما نازلهم فهي من بيوت حقيرة اقرصاً يجففونها في الشمس يبسطونها يحيطان اكواخهم . ولهم في الصيف مسكن آخر ليس فيه من الاثاث سوى حصير

والأرز للأرز . ولا يزرعون الا الاراضي القريبة من مساكنهم ، واما البعيدة فيتركونها للبدو الذين يرعون انعامهم عليها .

وكثيراً ما يصادف المرء هناك خرائب ابراج وشرف وقلاع حولها خنادق ، يقيم في بعضها رحل من قبل الاعراب ، وثلاثة عرب ، لا يملك الواحد منهم سوى قميص وبندقية ، بينما البعض الآخر قد تُرك لذئاب آوى والابوام والعقارب ، فتأوي اليها وتمرح فيها .

ومدينة عزة مؤلفة من ثلاثة احياء ، احدها قلعة حربية يشغل قصر الاعراب جانباً منها ، وهو متداع كقصر الرملة ، لكنه يطل على ما حوله الى ابعد مدى ، ومنه يرى البحر الذي يفصله عن الجهة ساحل من الرمال عرضه ربع فرسخ . فهذه القلعة تشبه اراضي مصر بشكلها المنبسط والنخيل القائم عليها ، فتربتها وهواؤها يماثلان هواء مصر وتربة شواطئ النيل . حتى ان السكان هم مصريون بقوامهم وعاداتهم وملامحهم ولون بشرتهم ، اكثر من هم سوريون .

وغزة هي عقدة الاتصال ما بين سورية ومصر ، لاجل ذلك طلبت مدينة ذات شأن ، مع ما طرأ عليها من تقلبات الزمان وعوادي الحدثان . وتدل الانقاض من الرخام الابيض التي فيها ، على انها كانت عامرة غنية . ثم ان تربتها السوداء كثيرة الخصب ، ومبانيها التي يؤويها الآن مذبذب ، تعطي رماناً وبرتقالاً وثماراً عديداً .

وليست غزة اليوم سوى مزرعة سكانها لا يعيشون على العيش نفسه ، اهم صناعتهم الحياكة التي يستعملون لها نحو خمسمئة نول . وعندهم ايضاً معملان او ثلاثة معامل للصابون ، وكانت تجارة الفلي رائجة ، وكان البدو يبيعونه منهم بالحبس الانفاس . ولكن بعدما احتكره الاعراب على بيعه منه بالسعر الذي يريده ، توقفوا عن جلبه . وهذا الرماد او الفلي مرغوب فيه لكثرة الطرض الذي يحويه .

والقوافل الرائحة والغادية بين مصر وسورية ، مصدر ارباح جزلة لسكان غزة ، فمن عزة تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت والتمر ، وما يعوزها من المواد الغذائية في خلال الايام التسعة او العشرة التي تقضيها في اجتيازها بالصحراء .

والتجار العربيون يقصدون الى ترعة السويس عندما ترسو فيها السفن الآتية من جدة ، او الذاهبة اليها ، فيبلغون بعد مسيرهم ثلاثة ايام ويوقدون كل سنة قافلة كبيرة الى الحجاج الهنود من مكة ، فيحملون اليهم المرطبات « وجردة » فلسطين ، ويصدرون الملحى في سفن التي تقطع مسيرة اربعة ايام من غزة جنوباً لشرق .

ثم انهم يبتاعون الاسلاب التي يأتيهم بها البدو ، فتدر عليهم الارباح الطائلة . ومسلوبات سنة ١٧٥٧ التهم تكاليف لا تقوم تحت حصر ، لان ثماني العشرين الف جمل التي كانت في فصل احتجاج ، جيء بها الى غزة ، فابتدو اخياع الجمال الذين لا يصأرن بالحمر الرقشاء ، غير عارفين ما قيمة ، بيعوا بضعة قروش شلالات الكشمير والسجاجيد الفينسة والشال الهندي والبن اليمني والصمغ العربي واللآلىء الرائعة .

ويروون حادثاً يدل على سذاجة هؤلاء البدو ، وهو ان أعرابياً من قبيلة عزة وجد بين الاشياء التي نهبها عدة صناديق فيها اللآلىء الناصعة . فظنها ذرة ، فملأها قاصداً طبخها . ولما راقه لم يصبح ، ثم تصرفها جاساً ، فجعله عربي واخذها منه ، واعطاه بدلاً منها طربوشاً احمر .

وقد حدث ايضاً مثل ذلك عندما نزا البدو قافلة الطور التي كان فيها « ابن حرمن » (١) . وقد تهموا حديثاً قبل احتجاج الدردة واحمله التي كان

(١) *Charles-Louis comte d St Germain* كان وزير الحرب في ايام لويس السادس عشر ، وهو الذي اعاد تنظيم الجيش الفرنسي . مات في سنة ١٧٧٨ .

عددها ثلاثة آلاف . غالب الذي وقع في يدهم كان شيئاً كثيراً ، فهبط سعره في فلسطين هبوطاً كبيراً ؛ لكن الآمر حرم على السكان ابتياعه لكي يجبر البدو على بيعه منه . فذاك الاحتكار اتاه بارباح طائلة . فدخل السوي من اموال المزي ، والمكوس ، والالف والمئتين حملا التي يختلسها من الثلاثة آلاف حمل المؤلفة منها « الجزية » ، والمغارم التي يفرضها على السكان ، يساوي ضعف المئة والثلاثين كيساً التي هي بدل الترامه .

وتلي الصحراء عزة ؛ فلا يعني ذلك ان الاراضي هنالك غير مأهولة ، فانك ان سرت مسافة يوم تواجه شاطئ البحر ، رأيت زرعاً وقرى ، نذكر منها على سبيل المثال خان يونس الذي يشبه حصناً يحميه اثنا عشر مملوكاً ؛ وفي العريش الذي هو آخر مرحلة قبل حافة مصر ، يجد المسافر ماء زلالاً .

واذ ما توغلت في الصحراء شرقاً ، وسرت حتى طريق مكة ، رأيت اراضي مزروعة ؛ فهنالك اودية حيث بعض الآبار ، و لامطار التي تتساقط في الصيف ، قد جلبت الى نبات الاثل . فلاحين هم اكثر قساوة وغلاظة وبؤساً من البدو انفسهم .

والى جنوب البحر الميت تشرق على بقعة من الارض ، يقطعها المسافر في ثلاثة ايام ، عدة مدائن خربة . في البعض منها اطلال عظيمة ، تدل اهميتها على انها بقايا هياكل وكنائس قديمة ؛ والبدو الذين يرعون قطعانهم في حوارها لا يجرؤون على دخولها خوفهم من العقارب الضخمة التي تكثر فيها . فآثار كتلك تدل على ما كانت عليه البلاد من العمران ؛ هي بلاد النباطيين الذين كانوا اقوى العرب قاطبة ؛ وموطن الايدوميين الذين كانوا لا يقلون عدداً عن اليهود في آخر ايام اورشليم كما يؤكد ذلك ما رواه يوسيفوس المؤرخ اليهودي من ان ثلاثين الفاً منهم اسرعوا الى نجدة اورشليم اذ علموا بزحف

تيطوس اليهـا .

ويبدو لنا ان عمران تلك الديار اوجدته فيها شرائع حسنة ، و تجارة رائجة . ومن المشهور انه في عصر سليمان كان هنالك مدينتان واقعتان على خليج البحر الاحمر ، ترد اليهما البضائع الوفيرة ، فيكثر التردد اليهما ، فاحداهما هي العقبة ، والمكانان يسيطر عليهما البدو ، لكنهم لا يقيمون فيهما ، اذ انهم لا يمارسون التجارة ، ولا يزاولون الملاحة . والحجاج المصريون الذين يمرون عليهما ، يرون ان في العقبة حصناً تحفره عساكر اتراك ، وسفالاً عديم القيمة في تلك الانحاء المقفرة النائية .

والايدوميون الذين لم ينتزع منهم اليهود تلك الثغور الا في فترات قصيرة ، كانوا يجنون منها مني ويسراً ضارعوا بهما الصوريين الذين كانوا يملكون هنالك ثلاث مدن ، احداها ، وهي المجهولة الاسم ، تقع على ساحل الخليج في برية التيه ، والثانية مدينة فران ، والثالثة مدينة الطور التي هي مرفأ لفران هذه .

وكانت القوافل تذهب من تلك المدن الى فلسطين واليهودية في ثمانية ايام او عشرة ، سالكة طريقاً اطول من التي تصل السويس بالقاهرة ، واقصر من التي يذهبون عليها من حلب الى البصرة .

وبرية التيه هي ذات البادية التي قاد موسى الكليم العبرانيين اليها ، وطوحهم فيها زمناً طويلاً ، ليدربهم على اساليب القتال ويجعل منهم شعب حرب [1] . والاسم « التيه » له علاقة بدعث كما يدلُّ معناه ! وانه من الخطأ الاعتقاد انه ظلَّ شائعاً بعامل النقل ، فلم يردده العرب الا لانهم يقرأونه في

---

(١) هذا فكر المؤلف . وامَّا الروح [illegible] فيرون في سفر العدد [illegible] وتأخيم الرب في البرية اربعين سنة حتى انقرض جميع الجيل [illegible] في سفر العدد ١٤ : ٣٣ و ٣٤ .

التوراة والقرآن .

فتلك الصحراء التي تتاخم سورية من الجنوب ، تمتد بشكل شبه جزيرة فيما بين خليجين واقعين على البحر الاحمر ، اي خليج السويس غرباً ، وخليج العقبة شرقاً ، فتتوسط عرضها ثلاثون فرسخاً ، وطولها سبعون ، ومعظمها جبال ارضها قفار ، متصلة شمالاً بجبال سورية ، وهي مثلها مكونة من صخور جيرية لكنها صوانية في الجنوب ، كما هما جبلا سيناء وحوريب ، لا ينبت فيها الا الطلح والاثل والرتم وبعض الشجيرات .

وينابيع الماء فيها نادرة الوجود ، فان وجد هنالك عين ، كان ماؤها كبريتياً حاراً ، كالعين التي يدعوها حمامات فرعون ، او ملحاً آسناً ، كالتي تدعى « النبع » ازاء السويس .

وفي الجانب الشمالي يكثر الملح المعدني ، بيد ان التربة في بعض الاودية ليست ملحة ، لانها مكونة من فتات الصخور ، فتصلح للزراعة ، بل تكون ايضاً خصبة اذا ما رويتها الامطار ، كتربة وادي جرندل حيث بعض المياض ، ووادي فران حيث اطلال مدينة فران القديمة . وكانوا في سالف الزمان لا يدعون تلك المزايا تذهب سدى . واما الآن وقد اهمل شأنها ، فلا ينبت فيها الا الحشائش البرية .

فبمثل تلك الوسائل البسيطة تقوم الصحراء بامسّة ثلاث قبائل عدد افرادها يناهز ستة آلاف ، يدعونهم عادة طوّارة ، نسبة الى الطور الواقع على الساحل الشرقي لذراع السويس في بقعة رملية منخفضة ، ومزيته ان فيه رصيفاً جيداً وماء عذباً تأخذ منه حاجتها السفن الذاهبة الى جدة . وليس هنالك الا بعض النخيل ، وحصن حرب ، ودير للروم حرب ايضاً ، واكواخ يقيم فيها عرب فقراء . والقبائل الثلاث تعتمد لاجل معيشتها على تمرها والبها والصمغ

الذي تجمعه من شجر الطلح وتبيعه في مصر ؛ وايضاً على ما تقدمه في الفرودات التي تقوم بها على طريقي الحج والسويس .

وهؤلاء البدو ايس عندهم جبل كما عند غيرهم من القبائل بما انه لا مرعى له في تلك الاصقاع ، فيتقاضون منه بدلاً من الابل التي تمتاز عن غيرها ببياضها ، ونعومة وبرها ، ورشاقة اعضائها ، وخفة حركاتها وسقدرتها على الجري السريع ؛ وفي وسعها ان تسير سيراً متواصلاً ثلاثين او اربعين ساعة بلا أكل ولا شرب . ويستعدونها في نقل البريد وقطع المراحل الشاسعة ، واما يحب ان يألف المرء حركاتها ، اذ وحدها تقضي حتى امهر الفرسان .

ان زيارة الروم لدير جبل سيناء تعدّ الاربح الطيبة على بدو الطور . فالروم الارثوذكس يكرمون احسن تكريم القدسة كاترينا ، ويعتقدون ان في هذا الدير رفاتها ؛ وحتمهم لقائها ، ولو مرة واحدة ، يعدونه من اعمال البر التي تجلب البركات ومغفرة الزلات . لاجل ذلك يقصده الزوار من القسطنطينية واقاصي بلاد اليونان ؛ فيجتمعون في القاهرة حيث رهبان جبل سيناء لهم محلاً ، فهؤلاء يتفاوضون مع العرب على مواكبة الزوار حتى الدير باجر قدره خمسة وخمسون قرشاً من كل شخص .

وعندما يصل الزوار الى الدير يقومون بفرائض العبادة ، ويزورون الكنيسة ويقبلون الذخائر والايقونات ، ويصعدون الى جبل موسى زحفاً على الركب ويختمون زيارتهم باعطائهم الدير ما يتيسّر لهم من المال . غير ان مقدار العطاء لا يقل عن مئة قرش او مئة وعشرين .

فتلك الزيارة لا تحدث الّا مرة واحدة في السنة . واما الاقامة في الدير فانها ليست من الامور المنهجة ، نظراً الى بعده ، واقفار موقعه ، فليس حوله سوى صخور هائلة كثيبة . والجبل الذي يقوم الدير على سفحه ، مكوّن من

كلة عظيمة من الصوان تسدو كانها ستنهار عليه . وهو يشبه سجناً مربع الشكل ، ليس في سوره سوى فتحة واحدة ، يسلي الرهبان منها قفة لمن يروم الدخول ، ثم يسحبونها وهو فيها .

واما الباعث على هذا الاحتراز فهو اخوف من البدو الذين يداخلون الدير عنوة ان فتح بابه الكبير ، الذي يظل مُوصداً ولا يفتحونه الا للمطران الذي يفد عليهم مرة كل سنتين او ثلاث سنين . وزيارته كثيرة المفقات بداعي الاتاوة التي يتقاضاها البدو آنئذ . وعلى الرهبان ان يقدموا لهم كل يوم عدة حصص من الطعام ، والذراع الذي يمتد من حين الى آخر لسبها ، كثيراً ما يزول الى رحم الرهبان واطلاق الرصاص عليهم .

وهؤلاء الرهبان لا يغادرون قط ديرهم ، وقد توصلوا ، بجهودهم وطول اناتهم ، الى احداث حديقة على تلك الصخور ، ينقلهم القوارب اليها ، تعني متزهمهم . ويجنون من اشجارها ثمراً فاخراً ، كالمشمش والتين والاجاص الذي يهدونه الى كبار قومهم في القاهرة .

وتشبه حياتهم النسكية حياة رهبان الروم والموارنة الذين في لبنان ، اي انهم يقضون الوقت في الصلاة والعبادة والاعمال المفيدة . بيد ان رهبان لبنان يعيشون بأمان واطمئنان بخلاف رهبان دير سيناء .

ثم ان حياة السجن والانزواء هذه المجردة من كل تنعم وتمدد هي حياة جميع الرهبان في الشرق ، فعلى هذا المنوال يعيش رهبان دير مار سمعان في شمال حلب ، ودير مار سابا القريب من بحيرة لوط . وهكذا ايضاً يعيش اقباط ديورة صحراء القديس مقار و لقديس انطونيوس .

فجميع تلك الديارات هي كالسجون ، لا نافذة لها تطل على الخارج الا التي تأتيهم منها مؤونتهم واقواتهم . وهي مشيدة في اماكن بشعة قفرة ، لا

يرى فيها سوى حجارة وصخور ، ومع ذلك تجد الرهبان فيها عديدين ، فخمسون منهم يقيمون في دير طور سيناء ، وخمسة وعشرون في دير مار سابا ونحو ثلاثمئة في ديورة صحارى مصر .

نظرة شاملة

تتألف البلاد السورية من ثلاث قطع مستطيلة تتوسط احداها غوطة النهر الابيض ، وهي وادٍ رطب ، عرضه ليس هكذا يوم ، والما ترتفع وافرة الخصب .

والقطعة الثانية تتاخم الاولى ، وهي جبلية ، وعرة المسالك والمعابر ، لكنها طيبة الهواء .

وتقع الثالثة الى ما وراء الجبال شرقاً ، فتتسع بين حرّ القطعة الاولى وجفاف الثانية .

ولقد رأينا كيف تمتاز سورية بعدة مزايا من حيث تربتها وجودة هوائها فتبدو كأن الله جعلها المكان الاكثر ملاءمة للسكن ، على انها تفتقر الى الحضرة البهجة التي تزدان بها على الدوام بعض البلاد الاوربية ، فلا ترى فيها العشب الاخضر ، ولا الزهر الزاهي ، ولا الغابات الرائعة التي تسبغ البهجة والنشاط ، وذلك امر ناشيء من عوامل عرضية اكثر منها طبيعية .

ولولا الخراب الذي جلبه عليها ابن آدم لكسحت الدبابات محاصيلها .

ومن البديهي ان الارض العريرة المياه في الاصقاع الحارة ، تكون وافرة النبات إن اعتني بها . فيلي حينئذ ازهارُ لازهارَ . والازهارُ الازهارَ وهكذا دواليك . وبذلك تمتاز البلاد الحارة عن البلاد الباردة .

وفي الانحاء المعتدلة امطار تطل الطبيعة عندها عدة اشهر ، فيذهب ثلث بل نصف السنة في سبات لا حيلة فيه ، لان الارض التي حملت الحبوب لم يبقَ لها منبع من الوقت لتنبت النقول قبل انقضاء اشهر الصيف ، فلا يبقى والحالة هذه امل في جني غلة ثانية . فالفلاح يجد نفسه حينئذٍ مضطراً الى العطلة والبطالة .

واما في سورية فان الامر ليس كذلك ، فان كانت ممطارها هي دون ما تستطيع اعطاءه . فالبلبلة الاول والاكبر يعود الى سوء الحكم القائم فيها .

ولنلخصنَّ ما شرحناه مطولاً من دخل الدولة وعساكرها ، وعدد السكان ، فنقول : تدفع سورية الى خزينة الدولة الفين وثلاثمئة وخمسة واربعين كيساً ، وهي جملة الضرائب المفروضة عليها ، فهاك تفصيلها :

٨٠٠ كيس تدفعها حلب

٧٥٠ كيساً « طرابلس

٤٥ « « دمشق

٧٥٠ « « محكما

٢٣٤٥

(اي ما يعادل ٢٥٠٬٩٣١٬٢٥٠ ليرة من نقود فرنسة في القرن الثامن عشر ، او ١٬٢٧٢٬٠٠٠ قرش تركي ذهباً) .

ويجب ان نضم الى هذا المبلغ : اولاً – قيمة تركات الباشوات والافراد ، وهي تناهز الف كيس ، ثانياً – الحرية اي مال الاعناق ومال الحوالي

المفروض على المسيحيين ، وينظر في امره ديوان خاص تابع لبيت مال الدولة في الاستانة . واما مسيحيو البلاد التي حق تاريخها مسوط باباشا الحاكم ، كبلاد الموارنة والدروز ، فانهم معفون منه ، وهو على الشخص الواحد ، ثلاثة او خمسة قروش او احد عشر قرشاً ، وقد يصعب تقدير محموعه ، وانما اذا فرضنا ان عدد الذين يؤدونه مئة وخمسون الفاً ، ومتوسط ما يؤديه الواحد منهم ستة قروش كانت الجملة تسعمئة الف قرش .

فلا نخطئ ان قدرنا جملة ملايين ونصف مليون ليرة حملة المال الذي تدفعه سورية الى خزينة الدولة . واما ما يجبيه « المتزمون » فيكون تقديره كما يلي :

٢٠٠٠	كليس	حلب
٢٠٠٠	«	طرابلس
١٠٠٠٠٠	«	دمشق
١٠٠٠٠٠	«	بيروت
٦٠٠	«	فلسطين
٢١٦٠٠٠		

هذا المبلغ هو دون ما تستطيع سورية دفعه ، لان ارباح « الالتزامات » التي يعهد فيها الحاكم الى الافراد ، كما هو حاصل في بلاد الدروز والموارنة والنصيرية ، لم تدخل في هذا الحساب .

والجنود في سورية لا يتناسب عددهم مع ما يجب على بلاد كذلك هو دخلها ، ان يكون فيها . اذ جميع الجنود في سورية من مشاة وفرسان لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف وستمئة ، متوزعين عليها كما يلي :

حلب	٦٠٠ فارس	٥٠٠ من مغاربة مشاة	
طرابلس	٥٠٠ »	٢٠٠ » »	»
حماة	١٬٠٠٠ »	٩٠٠ » »	»
دمشق	١٬٠٠٠ »	٦٠٠ » »	»
فلسطين	٣٠٠ »	١٠٠ » »	»
	٣٬٤٠٠	٢٣٠٠	

وعند الضرورة يضم الباشا الانكشارية الى هؤلاء الجنود ، كما أنه يدعو الناساً آخرين الى الالتحاق بهم ، فهكذا تألفت نسرعة تلك الجيوش التي رأيناها تشن الحرب على الشيخ ظاهر العمر ، وعلي بك المصري . بيد ان ما بسطناه من نظامها ، والاساليب التي تتبعها في حروبها ، يدل على ان سورية ، من حيث الدفاع ، هي دون مصر . على ان الجندي التركي خليق بكل اعجاب ، نظراً الى زهده وجودة صحته . وهما ميزتان تجعلانه يستطيع ان يعيش في اقفر الاصقاع ، ويتحمل اشد المتاعب والمشقات ، بما انه اعتاد الحياة الشاقة منذ الصغر اذ كان في الحقل يفتش الارض ويلتحف السماء . لاجل ذلك لا يشعر بميل الى التنعم ، ولا هو يبالي بشظف العيش في المعسكر .

وان قابلنا سورية بمصر ، رأينا بينهما بوناً شاسعاً من حيث مقدرة كل منهما على الدفاع عن نفسها ، فمصر تستطيع ان تحمي نفسها براً بصحراواتها وبحراً بسواحلها . واما سورية فانها مفتوحة من البر عن طريق ديار بكر ومن البحر عن طريق سواحلها التي يسهل الاقتراب منها .

واما مصر فالغزو منها ليس بالامر الهين ، ومن يحاول فتحها يصعب

عليه البقاء فيها ، لانها تستطيع التملص منه بسهولة . ومن يستولي على سورية يتعذر اخراجه منها لان الاحتفاظ بها سهل .

وما ذلك الفرق بينهما الا لان مصر تقع في سهل ، فالحرب فيها تدور بسرعة بخلاف سورية التي جبلها تجعل الحرب سكانية ، وانكسار احد الجيشين فيها لا يحرم الآخر وسائل الدفاع .

واذا حاولنا تقدير عدد سكان سورية . بالاستناد الى بعض الادلة حصلنا على الاحصاء التالي :

٣٤٠٬٠٠٠	ولاية حلب
٢٠٠٬٠٠٠	« طرابلس ما عدا كسروان
١١٥٬٠٠٠	كسروان
١٢٠٬٠٠٠	دروز
٣٠٠٬٠٠٠	ولاية عكا
٥٠٬٠٠٠	فلسطين
١٬٢٠٠٬٠٠٠	ولاية دمشق
١٬٣٠٥٬٠٠٠	الجملة

الفلاحون والفلاحة [1]

في سورية بل في البلاد العثمانية بأجمعها، يُعدّ الفلاحون كغيرهم من السكان عبيد السلطان. غير ان لفظة «عبيد» تعادل ههنا كلمة «رعايا». ولا ريب ان السلطان هو السيد المطلق، لكنه لا يبيع الناس كما يُباع الرقيق، ولا يكرههم على الاقامة في مكان معيّن. وبدا مع احد كبار دولته الطاعة ما، فلا يعني ذلك انه قطعه في الوقت ذاته عدداً معيناً من الفلاحين، كما هو جارٍ في روسية وبروسية. وقصارى القول ان فلاحين في سورية يرزحون تحت حكم الحكومة وحدها، من غير ان يكونوا عبيداً لاصحاب الاقطاعات، ارقاء لهم.

وقد فتح السلطان سليم سورية، اراد ان يجعل جباية الضرائب سهلة، فلم يفرض سوى ضريبة واحدة، واعفى بها «المليي». ويبدو لنا ان هذا السلطان مع ما كان عليه من قسوة الطبع، شعر بضرورة مراعاة حالة الفلاح. فلو قاسما المليي مساحة الارض لوجدناها في غاية الاعتدال، لاسيما وان عدد سكان سورية كان آنئذ اكثر منه في القرن الثامن

---

[1] سوف نوفي فصل طرقه هذا حقه ان يشرح طريقة الحكم في سورية، وبعض العوامل التي تحمل مستقبلاً خائراً، لا محل فيه، ولا رجوع، وتجرد الدولة العثمانية عليه، حتى لم تكن تحت قاهر اجنبي. وسيجيء حين ذلك ان قال في كتابه على الاقتصاد، وتأثير الدين في المعاملات، والعلاقة التي بين الحكام والرعية. فكتب عن كل موضوع فصلاً مبيناً، مدعماً كثيراً من الآراء التي لا يمكننا مواقفته عليها. لاجل ذلك طوينا كشحاً عنها، اقتصاراً على الفائدة من ترجمة مطالعتها، فهي عصرة اكثر منها مجلدة.

عشر . ولربما كانت تجارتها اذ ذاك لا تقل عما صارت اليه بعدئذٍ ، لان « رأس الرجاء الصالح » لم يكن في ذلك العصر مقصوداً كثيراً ؛ فكانت سورية واقعة على الطريق المفضل على غيره من الطرق المؤدية الى الهند .

ولكي تجري الجباية بانتظام ، جعل لها السلطان دفتراً او سجلًّا مبيناً فيه ، سهم كل قرية ؛ اي انه جعل المجبي ت لئلا يجرؤ احد على الغش فيه . ففي حالته تلك لم يكن ثقيلًا على كاهل الشعب . مع ان عيوب نظامه مكّنت الحكام وغيرهم من جعله مرهقاً . وربما انهم لم يجرؤوا على الغش بالشريعة التي سنّها السلطان لجعله الضريبة غير قابلة الزيادة او النقصان . فقد اضافوا اليها بدعاً وهي تعمل عمل الضرائب ، ولو انها لا تدعى ضرائب . ومن ذلك انهم لا يتعهدون لاحد عن اي جزء من الارض المعطاة لهم ، الا بشروط باطلة ، مطالبين بنصف الغلة او ثلثيها . ويحتكرون ايضاً الدور والحيوانات ، فيحظر الفلاح ان يشتريها منهم باسعار تزيد على قيمتها الحقيقية . وعندما يتسلمون الغلة منه ، يحكمونه بنقصها ، او مدعين اختلاسه لجانب منها . وربما انهم اصحاب السطوة والنفوذ ، فيأخذون قسراً ما يريدون . واذا جاءت السنة ماحلة فلا يرأفون به ، ولا يصطبرون عليه ، بل يطالبونه بما سلفوه ويبيعون جميع مقتنياته ليستوفوا ديونهم منه . ومن حسن الصدف انه لا يحكم عليه بالسجن ان لم يعد يملك شيئاً ، فيعمل اذاً حراً طليقاً .

وقد يصلون الى تلك المعاملة المرهقة لاقل قسر ، فتارة يفرضون غرامة على القرية باسرها لذنب ارتكبه بعض سكانها ، او اتهموا به زوراً ، وتارة يوجبون عليها ضرباً جديداً من السخرة ، فيطالبونها بهدية لدى قدوم حاكم جديد ، او بتأدية علف الى خيله وخيل فرسانه ، ويجبرونها على قرآء

الجنود الذين يرون بها اتفاقاً ، او يأتونها قصداً ليبلغوها اوامر الحكام .

وقد يبذل الحكام جهدهم الاكثار من تلك البعثات التي تؤول الى اقتصادهم في النفقات ، ولو انها ترهق الفلاحين . والقرى ترتعش خوفاً ان وفد عليها « لاوند » فهو لعمري لص قد انتحل اسم « صندي » . فيدخل القرية كانه فاتح ، ويأمر كانه المولى المطلق السلطة . وعند ما يرحل يطالب بقطعة مما يسمونه « كلّ الفرس » .

والفلاحون يستغيثون من هذا الطاء ، ولا من مغيث ، فتوسطو احوال فيهم تتأخر اشغالهم ، ويتخاذل دخلهم ، ويضطرون في نهاية الامر من تأدية « الميري » فيسيرون عبئاً على عاتقهم ، او يتحولون الى المدن . وبما ان الميري مقداره ثابت ، اي انه لا ينقص ولا يزيد ، ومن المحتوم وفاؤه بتمامه ، فالمفروض عليهم منه ، يترتب على الفروبين الآخرين القيام بدفعه . وهكذا الحمل الذي كان في بدء الامر خفيفاً ، صار على التوالي ثقيلاً . واذا حصل خلل على مدار سنتين متواليتين ، دمرت القرى بأجمعها ، وانقرضت من سكانها ، حيث ان « ميريهم » يقع حينئذ على جيرانهم .

ودات الامر يحدث في ما يختص « بجربة » النصارى التي تمثلت في الاصل تقتضي احصاء ثروة الدولة ، ويجب الا ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء ، فمثلاً اذا انتزع عن بلدة عدد من سكانها المسيحيين ، فعلى الباقين منهم ان يقوموا بتأدية الجزية المفروضة على الجميع ، فيصبح عندئذ على الشخص الواحد خمسة وثلاثين او اربعين قرشاً ، فيزول ذلك الى الثقل كامل ذلك الشخص ، او اكراهه على هجر دياره .

ثم ان اصحاب الاقطاعات يطلقون يد الملتزم ، رغبة منهم في زيادة

دخلهم ؛ فالملتزمون هم الذين اتقنوا اسلوب فرض الضرائب والفوائد واوجدوا رسماً على الاحمال والاطلال . فاساليب السلب واجت رواجاً عظيماً في اواسط القرن الثامن عشر ؛ حتى تفاقت من جرائها حالة الارياف ؛ فاقفرت القرى واندثرت المساكن والمزارع ، فتضاءلت الاموال التي كانوا يبعثون بها الى الاستانة .

واما البدو فاذا كانوا في حرب تهبوا لجمة انهم يهمون اعداءهم واذا كانوا في السلم انتهبوا كل شيء باعتبارهم ضيوفاً . ولاحد دنث يقول المثل : « احذر البدو ان صديقاً وان عدو » .

واحب الفلاحين بؤساً فلاحو البلاد التي تعاصت عنها الدولة ، كبلاد الدروز وكسروان ونابلس . غير ان ثمت مصدر اذى آخر يجب عدّه من اكبر الضربات التي تنزل بفلاحي سورية ، الا وهو الرماّ. الجائش ؛ فان احتاج القروي الى بذار او بهيمة او غير ذلك ، فانه لا يجد المال لشرائها الّا ان باع سلفاً وبابخس الاثمان جميع غلته او جانباً منها .

واطهار المال امر خطر ؛ لاجل ذلك من لديه مال يحرص عليه ويخبيه ولا يرضى بالتخلي عنه الا اذا اتاه بربح وافر سريع . والربى الادنى الذي عشر في المئة ، والعادي عشرون ، وكثيراً ما يبلغون ثلاثين .

فيتضور القروي بؤساً من جرّاء ذلك كله فتحدوه مضطراً الى الاقتيات بخبز الذرة والشعير ، والعدس المطبوخ في الماء وغالباً لم يأكل الاكل الطيب ، فيحسب الزيت الخاد والدهن الزنخ لذاً لما آكل واطرفها وانلا يفقد شيئاً من الحبوب بذلك فيما هو غريب عنها ، حتى الزيزفان الذي يسبب دواراً وحدراً يدومان نصف ساعات . وفي لبنان ونابلس يأكلون في ايام المحل البلوط المشوي تحت الرماد .

ولا يملك الفروي نسمة ضيق ذات يده مما هو في حاجة اليه من عُدد الفلاحة ؛ فان كان لديه شيء منها ، فهو من الصنف الذي لا يجديه كثير نفع فمحراثه ليس في الغالب سوى فرع شجرة له شعبتان ، ويصلح به على الطين والبقر ، وقلما يستخدم الثيران ، لان الثور دليل الغنى الذي يثير طمع الحكام .

وفي الاتحاء المعرضة لاعتداء البدو ، كما هو الحال في فلسطين ، يضطر الى حمل بندقيته عندما يروح حقله ، وما ان تلمح الصافل حتى يبادر الى حصدها وفي يدها واحدة قبضها في المطحن ، ولا يأخذ منه البنر الا ما يعطيه مقدار الذي لا يمكنه الاستغناء عنه لاجل ذلك يقتصر الفلاحون على ما هم في شديد الحاجة اليه من قوت ولبس ، عائشين في ضيق دائم .

الصناعة والتجارة والبضائع

ان التجار واربات الحرف في سورية اقل مؤنة من قرويها وفلاحيها ، اذ ما يملكه التاجر او الصانع مؤنث من الشيآء يسهل نقلها ، فلا يقع بصر او يآء الامر عليها . فمن السهل ان يبحر الصانع والتاجر المقيمان في المدن من نهم الحكام وجشعهم . وهذا الامر هو احد البواعث على اكتظاظ مدن سورية بل سائر مدن تركية . واذ لا يأوي الى المدن من فلاحي البلاد الاخرى الا الذين يشعر ون في حاجة الى مساعدهم ، ى فلاحي سورية يلجأون الى المدن هرباً من الظلم ، هاجرين اراضيهم التي لا غنى لها عنهم ، ويجدون في ملجئهم الامن والعمآئية .

والحكام يبذلون قصارى جهدهم حفظ السكينة مستتبة في المدن ، فسلامتهم ذاتها قائمة عليها . ولو كانت عاقبة ثورة او انتفاض وبالاً عليهم . ثم ان الباب العالي يشترط عليهم ان يرسلوا في أثنى اقوات الشعب لاجل ذلك يبذلون ما في وسعهم لحمل المواد الغذائية بخسة الاسعار في الاماكن الكثيرة السكان ، وعلى الاخص في المدن التي يقيمون فيها حتى اذا حدثت مجاعة ، كانت هنالك حبوبة الوفاة ، فيضطرون عندئذ نقل الحبوب الى بلد آخر ، ويجرون اصحابها ، تحت طائل العقاب الشديد ، على بيعها بالاسعار التي يعينونها ؛ واذا حدث من المدينة ، حلبها من الخارج ، كما حدث في دمشق سنة ١٧٨٤

ففي تلك السنة اقام الوالي المراقيب على الطرق ، واوعز الى البدو بنهب جميع الاحمال المعدة الى عبر دمشق . وامر سكان بلاد حوران باحراج جميع الحنطة من مطامير هم . لاجل ذلك لم يدفع الدمشقي آنئذ

ثمناً لاقة خز سوى ثلاثة بارات [1] بينما كان الفلاح يتضور جوعاً .

ولكن مما ان كل شيء له رد فعل ، فالضرر الذي لحق حينذاك بالفلاحة ، أثر في الصناعة والتجارة . واما التجارة هنالك فهي اليوم حكما كانت عليه في سالف الزمان ، اذ كانت الدنيا غائرة في لجة الجهل والبداوة . فعلى الساحل السوري بجمعه لا نجد مرفأ تستطيع سفينة تستوعب ما زنته اربعمئة طن ، ان ترسو فيه ، وارصفة الموانئ الباقية حتى الان معرضة لاعتداءات الاعادي ، اذ ما من حصون تحميها . فقرصان مالطة كانوا يدنون من تلك الارصفة ، ويدلون الى البر ، ويغنمون ما استطاعوا . وما ذلك الا لانه لم يكن هنالك ما يصدهم . ومما ان السكان كانوا يدقون على مآتي التجار الاوربيين نعمة تلك الاعتداءات ، فالدولة الفرنسية توصلت بمساعيها الى رد القرصان عن الساحل السوري . فصار في وسع السكان ان يزكوا البحر بلا خوف . لذلك احدثت الملاحة تروج ما بين اللاذقية ويافا .

وسورية ليس فيها طرق منظمة ، ولا ترع ملاحية ، ولا جسور على الانهر وعدي السيول . ووسائل اتصال مدينة بمدينة معدومة . والبريد البري هو وحده الذي يأتي من الاستانة الى دمشق عن طريق حلب ، ولا يحط الا على مقربة من المدن الكبرى . وقد أعاروا له ان يأخذ عند الضرورة فرس اي مسافر يصادفه . ويقطر دوماً فرساً ثانياً محلاً بعدة شائعة عند التتر ، وكثيراً ما يصعب ركوبها ، احتراراً مما عساه ان يحدث له من المفاجآت . وتوصيل الرسائل من مدينة الى مدينة يتم بواسطة المكارين ،

---

(١) الرسوم بارة تساوي قرشاً تركياً ذهبياً .

غير ان سفرهم ليس له مواعيد معينة ، كما انهم لا يستطيعون السفر الا في القوافل . وما من احد هالك يقدم على السفر بمفرده ، نظراً الى فقدان الامن . فيجب على من يروم الذهاب الى مكان ما ، ان ينتظر قيام حملة مسافرين قاصدين ذات المكان ، او يتحين سفر احد الناس من ذوي النفوذ الذي يجعل نفسه حامي القافلة ، ولو انه يكون في غالب الاحيان هو المستفيد بها . فاحتقار كهذه لا بدّ منه ، وعلى الاخص في الجهات المعرضة لاعتداء البدو ، كفلسطين واطراف البادية . والطريق التي ما بين حلب والاسكندرون حيث يكثر اللصوص .

والشواحن الجبلية وعرة ، والقرويون بدلاً من تمهيدها ، يزيدونها وعورة وصعوبة ، ليحولوا دون وصول فرسان الحكام اليهم .

وليس في سورية كلها عجل او مراكب ، لخوف السكان من استيلاء الحكام عليها . وجميع الاشياء يجري نقلها على الدواب ، فيستخدمون في الاماكن الجبلية البغال والحمير ، لانها تستطيع تسلق الصخور والانحدار من عليها . ويغلب استعمال الجمل في السهول ، فوزنة حمله العادي سبعمئة وخمسين ليبرة (أي نحو ثلاثمئة وسبعين كيلوغراماً) . وهو لا يأنف من أكل اي علف كان ، ان نباتاً او عوسجاً ، او عجمات قز مسحونة ، او فولاً . فليبرة واحدة من العلف ، وليتر ماء يكفيانه سحابة يومه . ويمكن تسييره اسابيع . ويقطع في الاربعين ساعة او ست واربعين ، بما فيها ساعات الاستراحة ، المسافة التي ما بين السويس والقاهرة ، من غير ان يأكل او يشرب . الا ان امتناعه المتواتر عن الاكل يضعفه ، فيسخر حينئذٍ فمه حتى تمسي رائحة نفسه كرائحة الجيف . وسيره الطبيعي بطيء ومن الصعب استحثاثه على الاسراع لانه لا يستطيع تغيير سيره .

واما الفنادق فلا وجود لها في تلك البلاد . وفي كل مدينة او قرية كبيرة بناية تدعى خاناً يحط فيه المسافرون . وهي مؤلفة من اربعة اجنحة في وسطها باحة . وغرفها صغيرة عارية الا شيء فيها سوى الجدران والغبار ؛ فصاحب الخان يعطي المسافر مفتاح احداها وحصيراً ، وعلى المسافر ان يهتم بما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش ؛ لاجل ذلك يحمل معه اينما ذهب فراشه ، وادوات مطبخه ومؤنته . ومن عادة الشرقيين ان يحملوا عدة سفرهم خفيفة سهلة النقل فما يأخذه معه مسافر يرغب في ان لا يعوزه شيء ، سجادة ، وفرش ، ولحاف ، وقدران احداهما اصغر من الاخرى وصحنان ، وابريقان ، وابريق للقهوة ، ورفّ صغير من الخشب لحمد الملح والبهار ، وستة فناجين بلا عروة تدمج بعضها في بعض داخل علاف من جلد ، وسفرة مستديرة من جلد تملّق بالسرج ، وقرب صغيرة للزيت والماء . والعرق اذا كان المسافر مسيحياً ، « وطيون » ، وقداحة ، وطاس ، وشيء من الابزر ، والزيت ، والتمر ، وحب القهوة ، والبن الاخضر ، وعلبة ، وعاود خشب لسحق البن .

ان الشرقيين يفوقون غيرهم من حيث مقدرتهم على الاستغناء عن اشياء كثيرة استغناء مفيداً . فالاوربيون لا يكتفون بادوات السفر تلك ، بل قلّ ما يسافرون نظراً الى حقائبهم الضخمة ، بينما اكثر السوريين فيّ لا يستكثرون من قصاع حاسب من عمرهم على طريق بغداد ، او البصرة ، والقاهرة ، او الاستانة ؛ واذا قلنا هذا الرجل تاجر ، فكأننا نقول هو مسافر .

فهكذا يتمكن التجار السوريون من شراء البضائع من مصادرها الاصلية باسعار ملائمة ، ومن المحافظة عليها تحلها معهم ، وصيانتها من

التلف . وقد يتوصلون ايضاً الى نيل بعض الاعفاءات من المكوس والرسوم ، والى اتقانهم معرفة الاوزان والمكاييل التي تعتمدها وتباينها يجعلان المتاجرة في غاية الصعوبة ؛ فان كل بلد له اوزانها ومكاييلها ؛ فرطل حلب يساوي خمس ليترات ؛ ورطل دمشق خمس ليترات وربع اللايجة ؛ ورطل صيدا اقل من خمس ؛ ورطل الرملة نحو سبع واما الدرهم الذي هو اساس جميع هذه الاوزان ، فانه لا يتميز اذ هو واحد في كل مكان . واما المقاييس فليس منها الا اثنان هما الذراع المصري ، والذراع الاستنبولي

والنقود قيمتها ثابتة ، ويستطيع المرء ان يحول في جميع انحاء المملكة من غير ان تدعوه الحاجة الى ابدالها واصغرها البارة التي تدعى ايضاً « معدنياً » او « فضة » او « قطعة » او « مصرية » ويليها الخمس بارات ، والعشر ، والعشرون ، و « ولاطة » التي تساوي ثلاثين بارة ، فالقرش الذي يقال له ايضاً « القرش » الاسدي ، وقيمته اربعون بارة ، وهو الاكثر تداولاً ، ويليه قرش « ابو عكلب » وقيمته ستون بارة .

وجميع هذه النقود يسبكونها من الفضة الممزوجة بكثير من النحاس وليس على اي قطعة منها نقش يمثل هيئة انسان او غيره ، فلا يرى عليها سوى شعار السلطان وهذه الكلمات : « سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان بن السلطان ... ضرب في القسطنطينية او في مصر . » وهما المدينتان اللتان يضربون فيهما النقود .

واما القطع الذهبية فهي صنفان ، « الصدقي » و « الزهر المحبوب » .

فتلك هي نقود الدولة ، لكنهم يتداولون ايضاً بعض النقود الاوربية كالريال الفضي الالماني ، وذهب البندقية الذي يرصون فيه كثيراً ، لانه نقي المعدن ، فتتحلى به النساء بثقب قطعه وضمها في سلسلة من ذهب يدليها من عنقهن الى صدورهن . وكلما اكثرت امرأة من تلك القطع والسلاسل ازداد زهوها ومباهاتها .

هو حب الظهور الذي يدفعهن الى ذاك التبرج ، حتى الملاحات ايضاً يحملن على هذا النمط ، بدلا من قطع الذهب ، قروشاً او نقوداً اخرى دون القرش قيمة . مع ان نساء الطبقة الرفيعة لا يأبهن للقطع الفضية ، فلا يرصعن الا في الذهب الصرف ، او النقود الاسبانية الكبيرة فبعض منهن يحملن منها مئتي قطعة او ثلاثمئة يدلين قسماً منها من عنقهن ، وقسماً يضعنه ثم يشددنه على جبينهن عند حاشية عصابتهن . فتلك القطع الكثيرة هي في الحقيقة وقر لكنهن يحملنها بطيبة نفس نظراً الى ما يشعرن به من فخر وارتياح عندما يعرضنها في الحفلات مصرحات بها بيان الحسد والغيرة في قلوب اترابهن .

واما تأثير ذاك التبرج في التجارة فهو حبس مبالغ طائلة من المال عنها . فان اعيد المال بعدئذ الى التداول في الاسواق ، ودست كل قطعة منه ليعرفوا مقدار النقص فيها من جراء ثقبها .

وورق النقود شائع في سورية ومصر وسائر بلاد الدولة ، فانهم يقبلون جميع النقود مهما طرأ عليها من تلف . لان التجار يعمد الى ميزانه ، فيقدر قيمتها . والامر دائر هنا عندما اشترى ابرهيم الخليل رمسه . ولدى تداولهم مبالغ ذات شأن ، يأتون بصراف ، فبعد الوقت اليسير طارحاً جانباً القطع الرديئة . واما القطع الذهبية فانه

بلادها كلها دفعة واحدة ، او كل قطعة بحدودها .

ويزاول التجارة في سورية العرب والروم والارمن . وكانت فيما مضى في يد اليهود . واما المسلمون فانهم لا يكثرون لها . وإعراضهم عنها ليس ناشئاً من خمول ، او مراعاة لعقائد دينية ، كما ظنه البعض . فانهم لا يبالون بها نظراً الى العراقيل التي وضعتها الدولة في سبيلها ، فان الباب العالي بدلاً من تعضيد رعاياه على غيرهم ، يؤثر الاجانب طمعاً في الربح . فبعض الدول الاوربية توصلت الى حمل الباب العالي على ان يعكس مقداره ثلاثة في المئة على البضائع التي تبعث بها الى بلاد الدولة ، بينما رعايا السلطان يؤدون منها حتى عشرة في المئة على بضائعهم .

والتجار الاوربيون المقيمون في سورية يتعهدون وكلاء من الوطنيين اصحاب الدقن اللاتيني . وقد توصلوا الى اشراكهم في امتيازاتهم ، لاجل ذلك ليس للحاكم وعماله سلطة عليهم ، ولا يستطيع احد تعريضهم ، وان اريد مقاضاتهم نظر في امرهم ديوان القناصل .

وهؤلاء الوكلاء يعرفون في الشرق باسم « تراجمة اصحاب براءة » وانهاءات يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في الاستانة ، فكانوا يهدونها الى هؤلاء الوكلاء الوطنيين . لكنهم بدأوا الآن يبيعونها ، فيجنون منها ارباحاً لا بأس فيها ، فثمن الواحدة الف قرش او الفان واربع مئة . وكل سفير يعطى خمسين براءة ، واذا مات خلفها ، احد السفير براءة جديدة بدلاً منها .

ومن الاوربيين اواخذ تجارتهم كثيراً في تركية الفرنسيون الذين يتعاطون فيها بيع حرير « لنغدق » (Languedoc) والدودة القرمزية

والنيلة ، والسكر ، والبن الاميركي ، والخردوات ، والحديد ، وصفائح الرصاص ، والقصدير ، وحدل مدبغة ليون ، وصابون ، وغير ذلك . ويشحنون من سورية غزل القطن ، والصوف ، ونسيجها الخشن .

وللفرنسيين وكالات تجارية (Comptoirs) في حلب ، والاسكندرون واللاذقية ، وطرابلس ، وصيدا ، وعكا وارملة . والبضائع التي يأتون بها سنوياً من فرنسة تساوي قيمتها ستة ملايين فرنك عدا توريدها .

٣٠٠٠٠٠٠	على حلب
٢٠٠٠٠٠٠	على صيدا وعكا
٩٠٠٠٠٠	على اللاذقية وطرابلس
٦٠٠٠٠٠٠	على الرملة

وجميع تلك البضائع تصل عن طريق مرسيلية ، ولا يعني ذلك ان المدن الفرنسية الاخرى الواقعة على الساحل الابيض المتوسط ، لا تستطيع شحن البضائع الى الشرق ، وانما اضطرار السفن الى الرسو اربعين يوماً في محجر مرسيلية ، يجعل سفرها الى الشرق شاقاً ومديد المدة .

ومقاطعة « لنغدق » التي تضم اهم مدن يمكث للشرق ، التفت غير مرة من اولياء الامر ان يجعلوا فيها ايضاً محجراً ، ليتسنى لها ان تتعامل رأساً مع تركية . غير انهم لم يلبثوا طويلاً ، عدراً من فتح حلة مرائي في وجه وبأء مخيف فتاك وافني به الطاعون .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تجيز للمراكب ، ولاسيما التي يعدون اليها من تركية ، انزال بضائعهم الى الارض ما لم يداوموا عشرين في المئة مكساً عليها . فهذا الرسم عدوا عنه في السنة ١٧٧٧ . بيد انهم في السنة ١٧٨٥ عادوا الرسم المذكور الى ما كان عليه ، مراعاة

لرغائب تجار مرسيلية .

ن تجارة تركية مع الهند واوربة مضرة اكثر منها مفيدة ، اذ ان ما تبعث به تركية اليها ، جميعه مواد اولية يمكن استثمارها في الصناعة المحلية بارباح طيبة . ثم ان البضائع التي تأتيها منها ، ليست من الاشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها بل ، هي من الكماليات التي تزيد في ترف الاغنياء واريحية المناصب ، ولربما آلت الى حمل حالة الشعب اكثر شقاء .

ففي دولة لا ترامي حدود رعاياها ، تؤدي رعة غلائها في الاكثار من وسائل الترفه ، الى اثارة الحسد ، وازدياد اعمال السلب والنهب . فالحصول اكثر فاكثر على الاقمشة الحريرية ، والعربات والجدل الحريرية ، والشال الهندي ، يتطلب المال الوافر ، الذي لا يتسنى للاغلب احرازه الا بالحيف وفرض المغارم .

الفنون والعلوم

ان الفنون والصنائع في سورية بسيطة ، فهي لا تكاد تبلغ العشرين عدداً ، بما فيها تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها .

عند البلاد قد حرم الصور والتماثيل ، لاجل ذلك لا صور فيها ولا تماثيل ولا ما يتفرع منها من الصنائع . والمسيحيون هم وحدهم الذين يحتاجون الى الصور ليزينوا بها كنائسهم فيجلبونها من القسطنطينية .

ثم ان الكثير من صنائع اوربة الاخر لا اثر لها عندهم ، لانهم ليسوا في حاجة اليها . فمثلاً اثاث منزل صاحبه هي مقصور على السجاد ، والحصير ، والمساند ، والوسائد ، والفرشة ، وشراشف قطنية صغيرة ، وصواني من نحاس وخشب تستعمل موائد ، وقدر ، وهاون ، ومطحنة ، صغيرة سهلة النقل ، وصحون من خزف صيني ، او نحاس مبيض . واما البسط ، والمتكآت ، والمرايا ، والمكاتب والخزائن ذات الادراج ، والكنبة منها ، والتي تحفظ فيها ادوات المائدة من فضية وغير فضية ، فذلك كله لا وجود له عندهم .

وملابسهم التي بعقائها ليست بسيطة ، لا ازرار لها ، ولا ابازيم ، ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بدّ منها الاوربيين . فهي مؤلفة من سروال كبير واسع ، يقوم في آن واحد مقام الجوارب ، ومن قطعة من النسيج يشمرون بها ، وقطعة يشدونها على وسطهم ، وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك [1] .

---

(١) يلبس المملوك قميصاً قطنياً اصفر اللون واسعاً ، وليناً من النسيج الصدفي

فنونهم وصنائعهم تقتصر على نسيج الحرير في دمشق وحلب ، وصياغة حلى النساء ، وصنع « الطرز » المرسمة ، وتزيين السروج و « الطلابين » . فلا يرى في اسواق تلك المدينتين سوى دبّاغين ، ونسّاجين ، وحلاقين ، وصيقلين ، وحدادين ، وسرّاجين ، وصناع اقفال ، وحبازين ، وجزّارين ، وباعة الحبوب والثمر والبقول ، وتجار خردوات ، « وقرداحيين » . واما البارود فان الحاجة اليه حملت معظم القرويين يلتزمون بطريقة صنعه ، وليس له معمل خاص .

ويكتفي القرويون بالصنائع الاولية التي لا بد منها وكل منهم يجتهد في ان لا يحرز الا ما هو في حاجة اليه وكل اسرة تصنع من نسيج القطن الخشن ما يلزمها لاجل كسوتها وكل بيت فيه مطحنة سهلة النقل ، تطحن بها النساء البرة والشعير اللازمين لاقتيات اهل البيت . وما يخرج

او الدمشقي الخفيف او المتين . فهذا الناس يدعى « عقدي » ويصل حتى الكعب ، ويزيد من الامام على اوراكهن ، وقد صاغ بعضهم ثم يلبسه لباس آخر من ذات الشكل والصنف ، اذ كان متدليا على اطراف الاصابع ، اسمه « قفطان » يصنع عادة من الحرير ، وهو اقصر من « السدري » ويشد زنار طويل على الوسط فوقه ثم يأتي لباس ثالث يدعونه « الجبه » ويصنعونه من الجوخ ، لا يتجاوزه ، شكله واحد ؛ غير ان كمه مفتوحان عند الكوع ، فهي اصل الشد ، واحيانا في الصيف يرتدون عليه فروة . وصنع البلوزة فوق تلك الملابس الثلاثة ، لها آخر اسمه « قُنْش » (كلمة تركية تعني بلغة كل منهما اليوم) وهو الزي الرسمي ، فيحلى به جميع الضباط الذين اطراف الاصابع التي لا يجوز اظهارها امام الكبراء . فحينئذ يشد جسم الانسان كيف يجوز به ضيق عار ، وزر ، وحنوى ، تنطيه عمامة من شاش يعمونها بشكل مقرن على القمة مقرآء اسمها « تاوق » .

(من كلام فولني على عاليك مصر) .

من ثلاث المطاحن ليس دقيقاً تاماً . وخبزهم قليل الاختمار سيء الخبز ، ولكنهم يعيشون عليه . ذلك كل ما يتمنونه

وقد رأيت كم هي تافهة نفقات عدد الفلاحة . وفي الجبال لا يشذبون الكروم ، ولا يأبرون الشجر وجميع ما تراه عالقاً بشكل لك ما كانت عليه الشعوب في العصور الاولى ، وإذا سألت احدهم عن الباعث على هذا التقهقر من الفن في الصنائع ، اجابك : ما لدينا منها جيد وكاف لنا ، فما الفائدة من ان نعمل اكثر من ذلك .

وطريقة ممارستهم تلك الصنائع لا تختلف عما كان متبعاً فيها قديماً فنسيج الحرير في مدينة حلب ليس من ابتكار العرب ، بل اخذوا صنعته عن اليونان الذين تلقوها من الشرقيين الاقدمين . والاصفاد التي يستعملونها اتخذها العموريون الاولون ، وهي ما زالت على درجة من الاتقان تشيد بعبقرية مخترعيها الاصليين . والصناع العموريون يحرصون جد الحرص على اسرارهم ، فيحفظونها سراً عائلياً ، لا يبوحون به الى احد

والطريقة التي كانت متبعة قديماً في تمييز عدد فحيل باصبع الصلد اصونها من معمول ضربة السيف ، هي نفسها المتبعة الآن في مدينتي حلب ودمشق لصنع حمائل اللحم [1] .

وقشور العصة التي يعيشون بها السيور ، تنتزع عليها بلا مساعد ، بتركيبها على الجلد باسلوب يحفظ له مرونته ، من غير ان يترك فراغاً بين قشرة

---

(١) يقول دولي في حاشية : ان رأي ذلك مصر عرضوه كل سنة في الباب ، عوض ان يحمل دروعاً ، ويسلب ، وسواعد من ازرد ، واعتدة اخرى واليه مصنوعة من ازرد ايضاً ، يرجع عهدها الى الصليبيين . ويوجد من تلك الاعتدة في جامع الدراويش ، الواقع على تل النيل على مسافة فرسخ من القاهرة .

واخرى ، لئلا يسهل على حد السيف حزه .

والملاط الذي يستعملونه ، قد استعمله قبلهم اليونان والرومان ولكي يكون مرحه جيداً ، لا يأخذون الجير الا وهو في حالة الغليان ، فيضيفون اليه مقدار ثلثه من رمل ، وثلثيه من رماد واجر مسحوق . وبهذا الملاط يبنون الآبار والصهاريج وقلما لا ينفذ الماء منها .

وفي فلسطين يبنون القسم بالحجارة من الاجر ، طول الاسطوانة ثماني اصابع او عشر ، قطرها من داخلها اصبعان ، وشكلها مخروط خروطاً جيداً ، وطرفها الواسع مفتوح ، والآخر مسدود ، فيصنعونها حاملين طرفها المسدود خارجاً ، ويملؤن بعضها بجص القدس او نابلس ، وفي وسع اربعة من البنائين اقامة جدران في يوم واحد . واذا نفدت منها الاسطوانة الاولى ، صنعوا بالوقت ثانية لا يعوزهم ماء يخلطونها . ويسندون ابوابها الداخلية بطبقة من الجص ، فيبني الجص منيعاً وخفيفاً في آن واحد .

وفي سورية يبنون بتلك الاساطين حوائط السطوح ، يحصنوا من الطير ، لان اللاتي يعملن او يشترين الثياب . وقد بدأ الفرنسيون يستعملونها في باريز بعد ما استعملها الشرق منذ القدم المعهود .

والصهريج في لبنان طريقته قديمة وسهلة ، فالمكان ان هو الا نقب له شكل مدحن ، في جنب ارض عمودية ، فمعدها بالآجر حصناً ، وشطوره بقبو عليه من اسفل ، يبقون فيه المعدن من فوهته الى ، فيسقط المعدن كتلاً الى قعر النقب ، فيحصونه حينئذ من الفتحة التي اشطت الماء منها .

وفي الشرق حتى مراوح الابواب الخشبية قديمة جداً ، وقد ذكرها سليمان في نشيده .

واما موسيقاهم فانها لم تبلغ عصر الخلفاء ، وهو عصر الاغاني الكبير

اعتناء . وبما ان اصولها اخذت عن اليونان ، فالراسمون فيها يجيدون التجزل بسيطاً للاسترسال في درسها . ولربما كانت القاهرة المدينة الوحيدة التي تتقن اصولها . ولدى المشايخ مجاميع دونت فيها الالحان بعلامات اعجازها فارسية ، لا شبه بينها وبين علامات الموسيقى العربية .

وقد جعلوا موسيقاهم باجمعها عسكرية . فهم على صواب في ذلك ، لان آلات الطرب ، على ما فيها الدي ، لم تبلغ عندهم درجة الاتقان . ثم انهم لا يعرفون من العزف سوى مطابقة الاصوات ونقر الوتر الواحد .

انهم يحبون الصياح بالصوت المفرط في جميع مقاماته ، وهو صوت لا يقوى على تحمل مجهوده الا من كان قوي الصدر مثلهم

وانغامهم من حيث طابعها وصورها تختلف عن الانغام الاوربية ما عدا الاسبانيولية منها التي يدعونها (Gitanes) . والتدحرج الصوتي عندهم اتقن مما هو عليه حتى عند الايطاليين . وتبدلاتهم الصوتية من المتعذر على حنجرة الاوربيين ترديدها . وعبارات اغانيهم تصحبها تنهدات وحركات تمثل العواطف بشدة . ويمكن القول انهم يتقنون النوع المحزن . فان رأيت احدهم جالساً في الرأس ، ويده على خده ، وعيناه دامعتان ، وصمت نغمه الحزين ، وتنهداته ، وزفراته ، لم تعد على حسن دموعك من شدة انفعالك ، وقد تكون تلك الدموع ذات حدية وموضوعاً فيه ، لانهم لا يجيدون من الانغام الا تلك التي تحمل العين على ذرفها .

والشرقيون ينظرون الى الرقص نظرة الاستهجان ، لانهم يعدون ذلك العمل شائناً . وهو من رجل يستطيع الاقدام عليه من عار ان يلحقه العار . ولا يجوز الا للنساء القيام به . فالرقص في الشرق لا يؤدي الى الحرب كما هو عند اليونان ، ولا يتألف من حركات مرتبة لطيفة كما هو عند الافرنج ؛

بل هو تمثيل محرفي بدي، ؛ هو الرقص ذاته الذي ادخله العرب في اسبانية ، وما زال فيها حتى اليوم ، وهو المعروف هناك باسم « فندنغو » (Fandango) وقد يصعب علينا وصفه وصفاً صحيحاً من غير ان نثير الاشمئزاز والكراهة . وكفى القول ان الراقصة تسقط ذراعيها بشكل عرامي ، وهي تعي وتضرب نضنيجات (نقيشات) قاصفة عليها بانامليها ؛ ومن غير ان تتنقل من مكانها تأتي حركات تحمها النعس .

فالاقدام على مثل هذا الرقص جهاراً يتطلب جسارة بل قحة لا يرضى بها الا العواهر فاسمعوا اللآي يتعبد بدعين « عوالم » ، والشهرهن عوالم القاهرة ؛ فلانة هن الصفرا ، وبشرتهن السمرا ، وحمونهن السودا ، وشعاهن الزرقا ، وايديهن المحمسة باحنا ، كل ذلك قد ذكر قولي برقصات احدى صواحي مارير التي كان الناس يختلفون الى حانتها . فاذا كانت هؤلاء النسا قطعات عايمات حتى في الشعوب الاكثر رقي ومدنية ، فكيف بهن في الشعوب التي اسهل الفنون فيها زالت في طور الطفولة عندهن .

والعلوم في الشرق ليست احسن حالاً من الفنون ؛ فهي في اقصى درجة من التقهقر ، ليس فقط في مصر وسورية ، بل ايضاً في سائر البلاد العثمانية ؛ وهنا حاول بعضهم انكار هذه الحقيقة استناداً الى مدارس ومعاهد جرا على ذكرها فهي كالاقطن ليس هو دون المدول الذي ينتسبه اليها الاوربيون .

فعصر الخطا مضى وانقضى ، وعصر الاتراك لم يبدأ بعد : فتلك البلاد ليس فيها الآن مهندسون ولا فلكيون ، ولا موسيقيون ، ولا اطبا . وقلما تجد فيها من يعرف العدد . والتطبيب هناك مقصور

على الكهنة وبعض العلماء . وكان يحكم عليهم ان يتعلموا الطب ، وليس في البلاد معهد يُعنى فيه . وقد عاد بابون الى علم الفلك ، وعده منهم في معرفة الشمس والمتنقل من حركات الاجرام الفلكية . الا انهم لا يحفلون بالعلم الرياضي الذي يشرح تلك الحركات بالاستناد الى علم الحساب .

ورهبان دير مار يوحنا الشويري الذين عندهم كتب ، وهم صلة يومنا ، لم يسمعوا قط قبل مجيء فوري واقامته بين ظهرانيهم ، ان الارض تدور حول الشمس . وكاد ذلك القول يشككهم ، لان ذوي العلم والورع منهم كانوا يعدونه مخالفاً للكتاب المقدس ، وكانوا يحسبون فوري كافراً وبدعياً يوم صدور كتاب الملك العام الذي دل لهم . يجب ان لا نكذب الافرنج ، ولو اننا لا نصدق كل ما يقولونه ؛ فان ما يروونه من فروقهم يفوق فنوننا بمراحل ؛ ففي وسعهم ان يروا ويتفهموا ما يعسر علينا من ادراكه . واما قولهم فيقول انه خرج من هذا البحث واقتنع بصحة دوران الارض على ما نقل علماء بلاده الذين يعدهم هؤلاء اعظم العالمين .

وليس ادل على شاسع بين عرب هذا العصر وعرب هارون الرشيد والمأمون ، حتى حقيقة امر هؤلاء هي دون ما نتصور ، فهم لا يدونهم في تقدم طويلاً حتى يتاح لهم ان يتقدموا في العلوم تقدماً كبيراً . فما يشاهد في بعض البلاد الاوربية ، يثبت لنا انها ما زالت تفتقر الى عدة قرون لكي تصل الى الدرجة المثلى من الثقافة

أوليس ما في كتب العرب ممزوجاً من يونان ، وصدى لما قاله او كتبه هؤلاء ؟ واما العلم الوحيد الذي هو خاصتهم دون غيرهم ومن والوا يعتنون به ، فهو علم لغتهم ، اي ذلك العلم التاريخي الذي يبحث عن اصل الكلمات ومعناها للاستدلال منها على تاريخ الافكار ، بقصد

اتقان فن التعبير الوصفي .

ودرس الصرف يستغرق عدة سنين ؛ ويليه النحو ؛ وهو علم خاص بالاحوال المختلفة المتواردة على آخر الكلمات بحسب معناها وتركيبها . فمن يتعلم ذلك يعد عالماً . ويأتي من ثم البيان ، وهذا يضاً يستوعب دراسة السنين الطوال ، لان المعلمين يحملون تعليمهم ، فلا يسمحون به الا بتقدم بطيء ، ثم يشرعون في درس الشريعة والفقه ، الخ . . .

ورجال الدين هذا ليسوا كالكهنة والقسس الذين في اوربة : فهم لا يعظون ولا يرشدون ؛ لاجل ذلك لا يشعرون بحاجة الى اللغة العامة بعد في درسهم ليس متيسراً ، لان لا قواعد لها .

وتعليم الاولاد حتى من لم يعتزم بقراءة القرآن للمسلمين ، والمزامير للمسيحيين ، وشيء من الكتابة والحساب ؛ فيبادرون بعدئذ الى تعلم حرفة ، لكي يتزوجوا ، ويكسبوا ما يقوم بمعيشتهم .

وبرأي الجهل قد امتد هناك حتى ان القليل منهم ومن الاقوال المأثورة في مرسيليا ان الشاب الاوربي الاصل ، المولود في الشرق ، جاهل كسلان ، لا يعرف سوى التكلم بعدة لغات .

وقد عزوا بعضهم هذا الجهل في البلاد الشرقية ، الى صعوبة اللغة وكثرتها . ولا شك ان صعوبة اللهجات وتشابك الحروف يزيدان في عسارة تعلم اللغة وكثرتها . غير ان الاعتياد يتغلب عليهما ، فيتوصل ابناء العرب الى القراءة والكتابة مثل الاوربيين

واما السبب الحقيقي فهو قلة وسائل التعليم ، ولا سيما الافتقار الى الكتب ، فالكتب كثيرة في اوربة ، وهي من شيء فيه اكثر انتشاراً من القرآن . واما في سورية فانهم لا يعرفون سوى مجموعتي كتب احدهما

في دير مار يوحنا الشوير التي مر بنا ذكرها ، والاخرى عند احمد باشا الجزار في عكا . وقد رأينا كيف كانت الاولى ناقصة من حيث الكمية والنوع . واما الثانية ، فالذين رأوها قالوا ان عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة ، وهي كل ما نسي الاحرار منه من جميع البلاد السورية . بما في ذلك خزانة دير المخلص الواقع على مقربة من صيدا ، وخزانة الشيخ خيري مفتي الرملة .

وفي حلب بيت البيطار هو وحده الذي فيه كتب تبحث من علم الحيوان . والقاهرة غنية بالكتب ويوجد فيها مجموعة كبيرة قديمة جداً في الجامع الازهر غير ان مداومها وقراءها محظورات على المسيحيين .

وحوالي سنة ١٧٧٢ اراد رهبان دير مار يوحنا الشوير شراء بعض الكتب ، فاوفدوا احدهم الى القاهرة لتلك الغاية . وقد اتفق له ان يتعرف هناك باحد المتعممين الذي تودد اليه . فاراه مجموعاً من علم الحيوان ، فرغب ذاك المتعمم ان يأخذه منه ، لعمل بقرضه الكتاب . فهي ستة اشهر تسنى للراهب ان يطلع على غير مئتي مجلد موضوعها الصرف والنحو والبيان وشرح القرآن ، وبعض التاريخ والحكايات ، ولم ير سوى نسخة واحدة من كتاب « الف ليلة وليلة »

فيتضح اذن ان الشرق يفتقر الى الكتب ، ولا سيما العلمية منها ، وهذا دائماً لان الكتب هناك نادرة ، فنسخ كتاب واحد عمل يطيل زمنه عادة الى اشهر ، وقد يدوم عدة اشهر . فمن الصعب في حالة هذه ان تتوفر الكتب وتنتشر بينهم . واما في اوربة فالامر ليس كذلك ، فالطباعة الواسعة فيها كانت هي وحدها الباعث على الانقلابات التي طرأت عليها منذ ثلاثمئة سنة ، وهي التي تعميمها الكتب ، ونشرها الافكار

واذاعتها الاكتشافات والاختراعات ، ساعدت على نمو العلوم والفنون نمواً سريعاً ، اذ جعلتها سهلة المنال لجميع طبقات الشعب . ومطبعة فيرمار يوحنا الشرير مع كل ما تفتقر اليه لتبلغ درجة الاتقان ، قد ادخلت على حياة المسيحيين تحسيناً عظيماً من حيث القراءة والكتابة ونشر الثقافة .

فقلة الكتب وفقدان وسائل الطباعة ، هما ، كما بدينا ، سبب الجهل المستحوذ على الشرق ، لكنهما ليسا سبب عرضي ، وانما السبب الاصلي هو الدولة نفسها التي تبذل قصارى جهدها لحنق العلوم في مهدها . فطريقة الحكم في الشرق تزين من الشعب اهمال الانتفاع من العلوم والفنون فالامر هناك ، وان كان دكتاتوراً تاماً ، ولا فرق بينه وبين امير مهندسي اوربة وعلمائها من حيث علمه وثقافته ، فانه لا يستطيع ان يعقد نشاطه بتأثير الجمهور السائد . فاذ كان العلم الذي لا يمكن الحصول عليه الا بمنتهى التعب والمشقة ، يجلب الضرر والاذى ، فالافضل الاعراض عنه . لاجل ذلك ترى الشرقيين في هذا العصر اميين بجهول ذات العامل الذي يجعلهم قرآء ، فيقولون في العلوم ، كما يقولون في الصنائع والفنون : ما الفائدة من جهودنا فيها .

عادات السوريين وبعض طباعهم

قال فرلني :

عندما ينتقل الأوربي الى سوريه او اي امة شاهية من نواحي الشرق ، يستوقفه التفاوت الذي بدا وبين سكانها ، وهو تفاوت قد يبدو كأنه قد حمل عن قصد . فنحن نلبس الثياب القصيرة ، وهم يلبسون منها ما هو طويل فضفاض ؛ نحن نحلق شعر رؤوسنا ، ونطلق ذقوننا ، وهم يتركون شعر ذقونهم يطول ، ويحلقون رؤوسهم ؛ نحن نعد حسر الرأس دليل الاحترام ، وهم يحسبون ذلك من امارات الهوان ؛ نحن نحيي باحترام وهم يحيون متكبرين ؛ نحن نقضي العمر وقوفاً وهم يقضونه قعوداً ؛ يأكلون وهم متربعون على الارض ، ونأكل ونحن جالسون على الكراسي حول الموائد .

وذلك الشاعر يراه حتى في الامور المتعلقة بالله ، فيكتبون بعكس كتابتنا ، ويعظمون الاحداث المذكرة عندنا ، مؤنثة عندهم . فعلى المتبحرين في العلوم الفلسفية ان يبحثوا عن مصدر تلك العادات المتشابهة في شتى احتياجاتهم واحدة ، وامر منشؤهم واحد .

ومما يجدر ذكره ذلك الظاهر بالمديح والاحاديث وحركات سكان تركية الدال على الورع والتقوى . فلا يرى في الطرق والاسواق الا الناس في يديهم السبح ، ولا تسمع الا التهليلات ممتزجة موجهة الى الله تعالى ، وتطرق ذلك على الدوام حتى حشرة مضغة بفمها ذكر صفة من صفات الله التسع والتسعين . واذا ما رأوا خيراً او الماء او غير ذلك ، نادوا « يا كريم » ، واذا جيعوك او شكروك ، قالوا : الله يحفظك .

وفي صناع الشرقيين امر آخر يستدعي الانتباه ، وهو هيئتهم التي تظل هادئة ساكنة ، مهما قالوا او فعلوا ؛ وبدلاً من الوجه الطلق البشوش الذي لأبناء قومنا ، ترى ملامحهم رزينة هادئة كاحة ؛ فقلما يضحكون . ويعدون مرح الغربيين من عوارض الجنون . وان تحدثوا تحكموا ببطء بلا حركة ولا عاطفة ويصغون الى محدثهم من غير ان يعاطفوه . ويداومون الصمت ايضاً كامنة . وان ساروا مشوا بخطى ثابتة وجريا ورآء عمل او غرض .

انهم لا يدركون شيئاً من عدائنا واشاطنا . ويقضون سعادة يومهم في التفكير والتأمل ، وهم يتزهون ، وحلقة الظليون في ثغرهم ، كأن الحركة تؤلمهم وتضجهم ، او كأن الجمود هو في نظرهم احد عناصر السعادة كما يظن الجمود .

ومن ثم يبحث فوري بدقة عن الباعث على ذلك السكون عند الشرقيين ، ويعتقد ان ادعاء كاتب شهير بالاستناد الى اقوال الرومانيين واليونانيين ، من حب الاسيويين لحياة التنعم ، والى رواية المسافرين العائدين من الهند في شأن بلادة الهنود وغشلهم ، وقد حيل الى ذلك الكاتب ان الغشل طبع من طباعهم ، ومصدره او الباعث عليه حرارة بلادهم ، فقال ان سكان البلاد الحارة معدومو النشاط جسماً وفكراً . وقد ذهب الى ابعد مدى في استدلاله ، وراح ان استبداد الحكام عندهم ناجم عن بلادتهم ، واستخلص من ذلك ان الحكم الاستبدادي ملائم او ضروري لهم .

تلك كانت النظرية التي جاء بها " مونتسكيو " في كتابه " روح الشرائع " . ولاظهار فساد هذا الرأي يقول فوري : هل كان الاشوريون شعباً غاشلاً ، وهم الذين اقاموا آسية بحروبهم مدة خمسة قرون . وماذا

نقول في المدنيين الذين خلفوا نير الاشوريين ، وانتزعوا الحكم منهم ؛ او في فرس كسرى الذين توطدوا في زهرة ثلاثين سنة الى الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة ما بين بحر الروم ونهر الاندوس ؛ فهل كانوا ضعاف الهمة معدمي العزيمة ؟ أيجوز ان نقول ان الصينيين الذين سيطروا عدة قرون على تجارة المسكونة ، او التدمريين الذين خلفوا للاجيال التي اتت بعدهم الآثار القديمة الخالدة ، كانوا جميعهم افئدة ، لا حماسة فيهم ولا نشاط ... اذن لماذا لم يؤثر فيهم حر بلادهم ؟

ويعتقد قوليي ان بلادة امة او نشاطها يرجعان الى خصب بلادها او جدبها ؛ فان يسّر لها ان تحيى بسهولة ما تحتاج اليه في معيشتها ، تضاءل نشاطها . « فالحاجة والفاقة هما مصدر العصبين المتمدنين ؛ فمن معظم بلاد الفراة ناحية ، تقصر عن القيام بحاجات سكانها . فلاجل ذلك كانت البلاد الخصبة تستثير فيهم عوامل الطمع .

ويقابل بين ثم سكسون الشرقيين او ما يدعوه « برودتهم » (Hegme) بحدل العربيين ، ومياههم الى المذاهبة ، ويبحث عن اسباب ذلك ، فيجدها في الاكل والشرب ومعاشرة النساء . فالخمر محرم على السرقيين شربها . والاكل الطيب الدسم يؤدي بهم الى المعيشة الخاملة التي تؤثر التبدد . واما مخاطلة النساء فهي امر تحول دونه العادات والاعتقادات . لان النساء في الشرق محجور عليهن ؛ فلا يستطعن مقابلة احد من الرجال ما عدا ازواجهن وآباءهن واخوتهن واحيانا ابناء عمومتهن . وبعدن جميع الرجال غرباء عنهن ، فلا يجرؤن على محادثتهم . ومن الامور المخلة بالادب التحديق اليهن . والمحتوم تركهن يسرن على حدة ، بعيد الاكتراث لهن او الالتفات اليهن .

ثم ينتقل قولي الى البحث عن تأثير ذلك كله في اخلاق النساء الشرقيات ، ومعاملة الرجال لهن ، ثم يقول : يحسب الشرقيون المقام عاراً ، وكثرة السل امراً مرغوباً فيه ، ويشتهون من هذا القبيل الاقدمين ؛ ومن احسن عبارات الثنا التي يمكن توجيهها فتاة ، ان تصير هزيلاً وتزل الكثير من السنين . فذلك ما يحملهم على الاسكار في الزواج وكثيراً ما يعقد زواج فتاة في الخامسة او العاشرة من عمرها ، على انها لا يتجاوز سنها الاثنتي عشرة او الثالثة عشرة من السن وقد يحملهم على الاسكار في الزواج الخوف من السقوط في عقدة العنوسة والعهور .

ثم يذكر شيئاً عن تعدد الزوجات ، ويبطل ما قيل فيه في ذلك الشأن ، ويقارن المسلمين بالمسيحيين ، فيعض اوائك على هؤلاء ويقول : ما اقضت في شرحه عن اخلاق الشرقيين يوضح بجلي بيان ان العيشة على حد واحد تؤثر في اخلاقهم ؛ فان وسائل التسلية في الاماكن التي هي اكثر نشاطاً من غيرها ، كحلب ودمشق والقاهرة ، تقتصر على الذهاب الى الحمامات والاحتفال الى الملاهي حيث يقضون ساعات يوهمهم في التدخين والتحادث عن اشغالهم بعبارات نادرة وحيرة وقد يجيئهم احياناً شاد او رقاصة او قصاص يروي لهم الحكايات ، او ينشد قصيدة من نظم احد الشعراء الاقدمين ؛ فيصغون اليه بمزيد الانتباه . وليس هنالك ، من مقار وحكام ، موسوم بالقصص والروايات ، والشعب نفسه يتلهى في ساعات الفراغ .

والمسافر الذي يركب البحر من ورنة ، يشهد العجب اذا ما رأى التجارة مجتمعين في اوقات الغذاء او وقات الاستراحة حيث يقضون ساعتين او ثلاث ساعات في الاستماع لما يقوله احدهم . ولا يحسب على

ذاك السافر ان يعرف مما يطرق اذنه من قوافٍ وقياس متتابع انهم يصغون الى قصيدة .

ويعترف قومي ان الشرقيين اسبق من الغربيين في نظم القريض ، وارق منهم شعوراً في امور اخرى . فعامة الشعب في المدن ، ولو انهم محاسون صياحون ، الا انهم ليسوا قساة الطبع كسكان المدن في الغرب ، ومما يستحقون من اجله كل ثناء واطراء ، حلمهم من تلك العادتين القبيحتين ، اعني بهما السكر والميسر . وقد يميلون الى لعب الشطرنج ، والبعض منهم يتقنونه تمام الاتقان ، ولا يعرفون من مناظر التسلية الا نوعاً واحداً مألوفاً في القاهرة دون غيرها ، وهو الذي يقوم بتمثيله مشعوذون قد حذقوا فيه : فتراهم يأكلون الحصى ، ويخرجون النار من افواههم ويبتلعون احداهم رمانة من غير ان يشعروا بألم ، ويأكلون الاعصي .

فتلك الشعوذات يقومون بها بطرائق واساليب يحمونها على الناس ، والشعب يُطلهم ويعجب من مهارتهم . والكثيرون يؤمنون ايماناً ثابتاً بحقيقة ما يشاهدون ، والشرقي ميال الى تصديق كل ما يقال له ، فهو حتى اليوم يؤمن بالسحر والجان .

ويُطري قومي ذكاء الشرقيين ، وحديثهم الحلو ، وعواطفهم الحارة ، وإلمامهم الصحيح بالاشياء التي يعرفونها ، وميلهم الى التعبير بوجيز الكلام عما هو حق وصواب ، فالامثال التي يتذاقلونها والحكم التي يُرددون قولها ، تدل على انهم يعرفون كيف يجمعون بين دقة الملاحظة وغموض المعنى ولواذع التعبير .

ويعترف هو نفسه بان عشرتهم عذبة جذابة ، وان السرّاج والتجار الاوربيين الذين عاشروهم مجمعون على الاقرار بانهم يعرفون الاوربيين

برقة طباعهم ، وكرم اخلاقهم ، وسلامة طويتهم ، ولصافة معاشرتهم .

ثم يختم قراءة هذا الفصل ، بل حكايته كله ، عن سورية ، بوصفه التأثير الذي شعر به اذ وطئت قدماه ارض الوطن ، بعد غياب دام ثلاث سنين ، فيقول ، بعد ان استعرض في الشرق بعمران بلاده ، فيقول :

لقد استحوذت على الدهشة اذ اخذت مراكبنا المتوسطة تسير داخلي البحر المتوسط والبحر المحيط ، فبعد تلك القرى الخربة والصحارى الواسعة التي امتدت رويدها ، وجدت نفسي قد انتقلت بغتة الى جنة لا نهاية لها ، فيها الحقول المزروعة ، والمدن المعمولة ، والمساكن الرائعة ، وهي تتوالى بلا انقطاع مسيرة عشرين يوماً . وبدى مقدمتي مبانيا الجميلة بالبيوت الحقيرة التي غادرتها منذ شهور ، وبدلا من القفار ، ومدنا دلت بقطر الدال على الاعتداء ، رأيت بلدان شرقية طيبة لهجة ، وبلاد الدولة العثمانية بمقدمة المصطفاة لاركان ، بلادا اتي تفيض عليها خيرات ، ويعرف في سكانها الامان والاطمئنان ، ويشير كل ما فيها الى تعلم قدرتها وثروتها ، شعرت في نفسي كأني انتقل من الانجماد الى الحياة ، ومن الحنان الى التأمل والتفكير ، فجعلت اسأل نفسي : لماذا هذا التفاوت العظيم بين ارضين متجاورتين طبيعة مواقعها على السواء ؟ ولماذا كل هذا الاجتهاد والنشاط ههنا ، وكل ذلك الجمود والخمول هنالك ؟ ولماذا هذا الفرق الكبير بين بشر انشأ جنس واحد ؟ ثم تذكرت ان تلك الاصقاع التي رأيتها مقفرة خربة متوحشة ، كانت في العصور الخوالي مزدهرة ، آهلة عامرة ، فتطرقت بفكري الى مقابلة ثانية ، وقلت : وان حكومات الدول الاسيوية الحاضرة هي ايضاً قد جارت ، في سالف الزمن ، مثل ذلك الجور والظلم ، ألا يمكن ان ما نرى بها بعد من الخراب والدمار ،

يصيب ذات يوم الدول الاوربية نفسها . فذلك الفكر اقلقني واحزنني ، لكنني رأيته لا يخلو من الفائدة . لنعرض اذاً ان نذيراً حلّ مصر وسورية اذ كانتا في اوج عزهما ومجدهما ، وارأيتها بعض مثقفيان من الرايا واللايا ما تعانيانه اليوم ؟ ولنعرض ايضاً انه قال لها : « ستدهمكما هذه الشرائع وهذا الحكم الى اسفل دركات الذل والهوان » . الس من المرجح انهما تكونان عندنا ما تـ طيقانه لاجتناب مثل هذا السقوط . والشيء الذي لم تعملاه جيشيء في وسعنا عمله اليوم . وليكن مثلهما امثولة لنا . ومن فوائد تاريخ ان ما حدث في الماضي من شأنه ان يسدد خطاه . والرحلات التي قوم بها الى هاتيك البلاد فوائدها عظيمة ، لانها تتيح لنا ان نعلم الاطلاع في أحوالها ، ونـدرك حقيقة امورها ونفهم حوادثها في مجموعها ، وان نتقصى كل علاقة من علائقها ، ونلم بجميع اطوارها ، فنتبين الادوار التي يقوم بتمثيلها نظام سياستها . فان ما يرويه الرائد عن البلاد التي اجتاز بها متفقداً ما فيها ، يصبح الدليل على عوامل ارتقائها وانحطاطها ، بل لوسيلة التي تتمكن من معرفة الحد الكامل سلطة . وتركيبة من هذا الدليل بلاد ذات فوائد جمة ؛ ومـا شرحته هنا يدل بما فيه بيان على مدى الاضرار الناجمة عن السلطة التي يسأء استعمالها ، اذ ما فقدته شعوب الافراد وتلاشي شركة الحكم . ومن اواضح الذي لا ريب فيه ان خراب امة يعود بالويل على سببه . لاجل ذلك نجد الحكام عقاب تصرفاتهم وجرائمهم في نزع وشرور حال الشعب الذي يسوسونه .

ملحق

في

بعض مظالم الجزار

[illegible] وصف بعض حوادث جرت في سوريا بعد رحيل نابوليون وكان طالما احمد باشا [illegible] وقد اشار [illegible] ذكرها هنا تأييداً لما ذهب اليه ، ومن الكتب التي اعتمدنا عليها ، هذه : « تاريخ سوريا ولبنان » لجبرائيل الدبس الشدياق ، « صاحبة الصحراء » لاسحاق موسى الحسيني ، « عصر تاريخ مصر » لسليم حسن ، وفي هذا « كشف الزهور في تاريخ الدهور » ليوحنا ابكاريوس .

عانت البلاد السورية الامرين من احمد باشا الجزار ، فهي ايام حكمه الطويل ذاق السوريون من الجور والعسف ما يعجز القلم عن وصفه . والرجل مازال ماثلا بحداثته الى يومنا هذا ، وقد رأيت لنا كتبه قومي كيف كان مولاه علي بك المصري يستخدمه للعسف على الخصوم والمعاندين ، ومع حداثة سنه كان الكبار والصغار يخافونه ملقبين اياه « بالجزار » ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد ، ولازمه كل عمره . وما كان يكفي فقط عطيل الكبد ، مجرداً من كل عاطفة شريفة ، بل كان ايضاً كسوداً صادقاً ، لا يراعي الصديق ذمة ، ولا الحليف ولاءً ، ولا للقسم حرمة .

وكان الحكام في ذلك العهد مطلقي السلطة ، يتصرفون بشؤون البلاد وارواح العباد كما يملي عليهم اهواؤهم من غير ان يحاول احد مناقشتهم

الحساب ، او يجرؤ على ان يزيدهم . ومن سوء طالع سورية ان اختار توصل بدهائه وبذل المال الكثير الى حمل الباب العالي في سنة ١٧٨٥ على اسناد مقاليد ولاية دمشق اليه ، مع ابقائه عاملاً ، في اوقات اداه ، على ايالة عكا . لكن مدة حكمه في دمشق لم تتجاوز السنة الواحدة ، لان اعيان المدينة الذين اوجسوا شراً من عزمه على احتكار جميع حنطة حوران وبعلبك ، بيدي له بيعها من السكان باسعار باهظة ، عمدوا الى شكواهم ان الاستانة ، لتوفير فرصة عيد له في الحج ، فصلت عن ايالة دمشق بعلبك وما حولها من الاقطار الجبلية ، فوالاه قاضي دمشق الى « طرابلس » ، ولما تم الامر قضى هذا بنقله الى عكا من حيث يستطيع ان يحرم على دمشق ، وقد احدث منه الطيق كل مأحدث على عكا .

وقد تمكن من ادوا جميل ثأرهم منه في اثناء توليه على دمشق ثانية في سنة ١٧٩٠ ، فكان كل سنة حين عودته من الحج ، يقضي فيه من ثلاثة ايام الى سبعة ، فيطلق العنان لنفسه ، فيملأ عاصمة ولايته صراخ المأتم والمظالم . ففي السنة الثانية لتوليه حكمه ، قتل عدداً في القلعة منهم وستين رجلاً ، وفي السنة التالية قتل ايضاً ستين رجلاً . وقد اتبع عاملاً بأوامره في دمشق عبد الرحمن المرادي ، وعلي بك حميد احد بيوت العظم ، وغيرهما من ذوي الوجاهة والمكانة .

ومن شدة مكره وحسن نيابته ، كان يأمر بعض الاحياء ، ويحرضهم على قتل بعض من يريد قتلهم ، فكان البعض من هؤلاء الاحياء يثورون حرصاً على نيل القسم المطيع الذي يأمرهم بقتله . وقد دام حكمه هذه المرة خمس سنين .

فاربت الامر في الاستانة التي لم يكونوا يدانون ما يصيب الرعايا من

احيف على يد الحكام ، جعلوا الجزار والياً على دمشق دفعة ثالثة في سنة ١٨٠٣ ، لكن مدة حكمه لم تطل ، اذ انه هلك وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وليس ابلغ مما قاله في موته احد معاصريه للدلالة على كره الناس له ، وفرحهم بهلاكه ، وهو :

والى السرور وصحّ ترجيح الأمن هلاك ظالم لا يعادله مثل

ومن مظالمه التي لا يحصرها عدٌّ شنقه للامير يوسف وكهيته هدور خوري (١) وامره بارقائهم معلقين ثلاثة ايام ، وكان اقترف مثل هذا الجرم لتطبيع هانه ، فعاد الى رشده ، وبعث الى سيف نفسه يأمره بالعدول عن قتل الامير . ولما كان قد سبق السيف العذل ، فان اوامره وصلت الى الجلاد بعد ما أُطلق الامير على اعواد المشنقة ، وقرفت روحه جسمه

وبيروت ايضاً لم تنجُ من جور الجزار ، فانه احدث فيها ضرباً جديداً من ضروب الظلم اذ الزم رجلاً يدعى « فارس الدهان » تبليض السكاكين من امواله بمبلغ قدره مئتان وخمسون الف قرش اداه اليه الرجل

---

(١) هو ثالث كهنة الامير يوسف : فاولهم سعد ، واسمهم فارس ابو هدور فهدور هذا قد توسل الى حل دولة الفرنسية هو حبيه وصار له في مدينة بيروت وعمرار الذي طرد ان الرجل قبل ذلك لاجل ما كدره ، حتى عليه ، واسعد يتحين الفرصة لايقاع به . وقد بقي امراء الامير يوسف في حكمه ونصب بدلاً منه الامير بشير بن قاسم ، عدا الامير يوسف سوء الذكر ، فعلم ان والي دمشق الذي كان آنئذ اراه عيد باشا ، والزام هو وهدور وبعض الحكام في لبنان من الاربعة من دمشق ، فدهب عبده وداود يوم الى صيدا ، فرأى الكتاس مقيمة ، والكهنة تقوم هدوس بعبادة في البيوت . وقد علم ان سعد بعث يعرد الى البطريرك دانيال الارثوذوكسي ، اعتم ، وبقي في البعد ان دمشق والتمس من الوالي اعادة الكتاس الى اصحابها الاصليين ، فكان له ما اراد .

الذي جعل من ساعته يسوم الناس خسفاً وعسفاً ليبتز منهم ما استطاع من المال . فكان يقبض على الذين يتقاعسون عن تأدية المطلوب منهم ويلقيهم في غياهب السجن ، ولا يفرج عنهم الا بعد ان يقوموا بدفع المفروض عليهم

ومن البديهي ان يحتفظ قارس بالمكان بنفسه لشطر طيب مما كان يدخل عليه على هذا النحو ، حتى عدا في وقت قصير من الثراء فاستثار ذلك حسد المدعو الياس نصير الذي طلب من الجزار ان يحله محل فارس بدل ثمان مئة قرش تعهد بدفعها فوراً . فاستشار الجزار خطار فارساً بذلك ، وقال له انه ان تدفع قيمة الاقلام الجديدة ، و تشتري من عندك . فوعدي فارس بالزيادة على ان يرد له مراده عنده . فأمر الجزار بنقل بضاعة . ومضى يشتد ساعده من وحمل بضاعة بدكان يعلوه من اعلاه ، حتى اضطر الكثيرون ان يعرضوا للبيع بأبخس الاثمان عقاراتهم ومقتنياتهم ، لكي يتوفر لهم مال المطلوب منهم ، على انهم لم يجرؤ احد على شراء شيء خوفاً من ان يطلبه فارس فاذا مال عليهم في تبليغه .

وهكذا ما ت بيوت شدة لم يستق امكانها ان يروا مثلها ومن الذين دانوا الامرين رجل من بني طراد رضي ان يضحي عقاره بأبخس الاثمان ليقوم بتأدية المال المطلوب منه ، لكن سعيه ذهب ادراج الرياح ولما فرغ صبره ، ولم يبق له طاقة على احتمال عذاب السجن ، طلب ان يسمح له بالخروج منه ليسعى لدى معارفه واقاربه ليمدوه بما كان مترتباً عليه فاذن له وظل في شاطئ البحر حتى ساعة السجان الذي كان يصحبه ، والقى نفسه في اليم ، مفضلاً الموت على البقاء في قيد الحياة ومقاساة اضطهاد البغاة .

بيد ان فارساً لم يعش طويلاً ليسمع شعر حوائه ، فانه بعد ان مات من السكتات حلق كثير ، وبعد المال من المدينة ، ولم يبق للجزار امل في الحصول على اكثر مما حصل عليه ، اطلق سبيل من كان منهم باقياً في السجن ، وقبض على فارس ، واخذ منه مئة الف قرش ، ثم اماته شر الميتات . وصاحب تاريخ « قطف الزهر » الذي ذكر ذلك قال في ختام حديثه (ص ١٢٩) : « وانكبت كربتهم (الضمير عائد الى السكان) عصبة فارس الدهان ، وتسلوا عن مصائبهم ، ونشتت به جميع الناس حتى الفرنساوية واصدقاؤه » .

ومن الحوادث الجليلة بالذكر في ايام الجزار ، حملة بونابرت من مصر في سنة ١٧٩٩ على رأس جيش كبير ، وضربه الحصار على عكا ، ثم رحيله عنها من غير ان يفوز بمأمول ، بعد حصاره لها من ٩ ايار حتى ٢٠ ايار من تلك السنة . وقد ابدى الجزار شجاعة كثيراً من العباد والمشاورة على المدافعة ، فزارته طائفة من السفن الانكليزية بقيادة (رأس سدني سميث) التي حالت دون اقتراب المراكب الفرنسية من عكا . وكان المشرف على وسائل الدفاع « فيليبو » عدو بونابرت وأحد قواده في معركة الحربية دائرة « بريين » (Brienne) .

وعكا هي المدينة التي كانت الاهوال من جور الجزار واستبداده ، اذ جعلها مقرّ قاعدة حكمه ، وهو لم يبق له على غيرها الاقامة فيها ، لان الشيخ ظاهر العمر حصن قد حشدها وحصنها ورشيد فيها قصراً فخماً . ومن البديهي ان يصيبها اكثر مما اصاب سواها ، اذ قضى فيها شطر كبيراً من سني حياته ، وكانت آثار مظالمه ماثلة للعيون حتى بعد موته . فكان يرى في اسواقها وشوارعها رجالاً جدعاً ، فالبعض

منهم كانوا بلا ذنب ، وآخرون بلا ادب ، وكثيرون كانوا شراً . فالجزار كان في ساعات الفراغ يختلف الى احدى مقاصير قصره المطلة على الشارع ، فيراقب من نافذتها ما يجري هنالك ، فان وقع نظره على عابر سبيل ذميم الخلقة ، يأمر باحضاره اليه ، واذ يمثل امامه يقول له : « لم أركَ من قبلُ » او : « لك عين تثير التشاؤم » . ثم يلتفت الى مملوكه الزنجي سيف نقمته[1] ويقول : « رجل قبيح المنظر كهذا لا يستحق ان يبقى في قيد الحياة » . ثم يأمر بدقّ عنقه ، او بتر اذنه ، او جدع انفه ، او فقء عينه .

وكان رجاله عملاً بأوامره يأتون بالذين يرون بالشارع الكبير في وقت من الاوقات . فيوقف بعضهم الى يمينه ، والبعض الآخر الى يساره ، ثم يقول : « عدوا الى المشنقة الذين من يساري ، وقرّوا بسعادة الذين عن يميني » . وقد حدث ذات مرة أن أمر جلاّة بمزق عين رجل غريب من ذوي الوجاهة ، وان بدت على وجه الخلاق امارات الحيرة والتردد ، قال له : تظهر بمظهر المشمئز ، فهل الباعث على اشمئزازك جهلك لما نحن عليه ؟ فاذن احدث العمل » . ومن عادته أن يردّ سيئاته بعين الخلاق فقلعها ، وقذف بها في وجه صاحبها .

ومن الذين شرهوهم على هذا الحد « حاييم » اليهودي الدمشقي المتشيّ في الديوان ، وكان الجزار قد كتب اسمه مع اسماء الذين عزم على

---

(١) وقع هذا المملوك في نفسه الفرنسيين في اثناء حصارهم لعكا ، فاعجب بزعرف شجاعته ، وأمر بحمايته حماية طيبة . وهو ايضاً عرف الجميل لآسريه ، فاصبح الى فرقة فرسانهم . وقاتل في موقعة ابو قير التي حاض غمارها وهو في طليعة كوكبته .

قائماً في حضرة كان يضعه تحت وسادته ؛ حتى انه عدل بعدئذ عن قتله مكتفياً بقطع عنقه ، وحدج الجنود ، وبتر اذنه . وعندما مثل جايم بين يديه وهو مشوّه على ذلك الشكل ، أخذ في الضحك والقهقهة ، وقال له : « لم يبقَ لك يا جندي الا ان ستتمنى دميماً اكثر منك » . ثم دنا منه ووضع يده على كتفه وقال : « انت لسعيد انت يا معلم جايم لانك صديقي ، فاحمد الله على ذلك ، ولولا ذلك لقطعت رأسك من جسمك » . وصار جايم بعد هذه الاخبار وزيراً لداي بشة وكاتب سره ، هذا الى أن ماتا جميعاً قتلاً ، فان عبدالله بشة والي عنابة اوردهما حتفهما في سنة ١٨١٨ .

واما اودجه حرم ريكسه الجزائر فكان يعامله بعض الاحيان معاملة حليفة يستشيرها في بعض الامور اذا كان في الامكان الحصول عليها ، ومعه مئتان من مماليكه الاربع مئة ، اعني ساعده الايمن ، وخصيان المعهود اليهم في حراستهن ، توانوا في مرافقتهن ، وبعض مماليك الذين اقامهم في مكانا تحت يد خزندار تقدم مقامه ، فكانوا من دخول محادثهن ؛ فاختار الخزندار لنفسه خطة اخرار اعني وجيهة .

وبعد ما قتل الجزار احداً من اعيان ، خط يوم سنة ١٨١٧ فيه اودجه من قصره وحريمه ، وقسم ان يطعن بخنجر كل من يحاول منعهم ولكنه يفرق بين الاوربيّ والمسيحي ، امر سليمان ، وهو نحو الخزندار بحشد الجيش في مكان يعرف بكاف حاصبايا ، متأهباً ان يريد الزحف به على الاخير يوسف حاكم بلاد وهبية لمسألة مؤمنة من عمارة والدلاتية ودرناوزوط ذهبت الى معسكرهم ، ولم يبق في عكا سوى المشي مماليك الذين عزم على اهلاكهم .

وبينما كان ذات يوم واقفاً على مقربة من احد بوابات قصره، لمح رجلاً طاعناً في السن، وفي يده باقة، يطرق باب الحريم، ثم يتناول احد الخصيان الباقة. ولما دخل الخصي بخدوع الحريم، رأى الباقة في يد وليدة الحسناء، فقال لها: «من اين جئت بهذه الازهار؟» قالت: من الحديقة. قال بلطف وتواضع: «تعالي الي، فان اكثة معرفة بمنك فقد رأيت الغصن الصغير الذي يربيك بها، فقولي لي بصدقٍ من هو عشيقك لعلي استطيع ان ارشدك اليه». فوليدة المعلمة تأبه لهذا، فباحت له بسر الخزار. فعطف عليها، وقص عليها، ونصحها بما من شأنه ان يحررها، والقاها الى الارض، وصرخ بها قائلاً: «ويلك من شقية، لقد اغتررت بذلك، ولا حاجة لك من الغصن الذي تتحدثين، ان لم تسوقي باسرع من شركائك». وعندما حاولت التأكيد له انها بريئة، ركله بصرامة بسيف قطع رأسها، وامر احد الفوارة الاربعة الذين حضروا ذلك، ان يقتلوا اللاتي في منزلك.

وعندما طرق الخزار الباب، وعلم ان البائعات المحتشدين في باحة القصر ادركوا انه حدث امر خطير، فاخذوا سلاحهم وانطلقوا الى مقر الخزندار، وهو مرتدٍ ثيابه الحربية، له ابواب مصفحة بالحديد، فسدوا جميع بوابات وابواب بحرس مسلح، فتحصنت الحريم، والخزار الذي استشاط غيظاً من رؤيتهم رجالاً، صرخ بهم الجبود وقال: «كثيراً ما طلبت يداك بالسوء، وها انت الآن تريد ان تسفك دمي؟ فتحن والحالة هذه، نأبى الاذعان لك». وبينما مستودع البارود متصل بالحريم فقد اردفوا قائلين: «لن حاولت اجراحنا بصورة من هذا المكان فسنا نعمد الى مقاومتك، وعليك بالدفاع عن نواحيك لكي ان تنقذ حياتنا».

فتصرم النار في مستودع البارود فتموت نحن وتهلك انت معنا وتمسي عكا خراباً . واما ان تركتنا نرحل من عندك بالحق فنا ادرى ، ولا نعود نفكر في احد ثأرنا بل نمضي الى حيث لا تسمع عنا شيئاً » . فارعد الحرار واربد ، ولاح في عينيه امر تطرح بعض سذاجته في حقوه كاس ، ووضع بعض الآخر في حوايج ، والقاهن في اليم . وكان سكان المدينة قد شرعوا في القضي عنهم من الخوف ، ولم يجرؤ احد منهم على الخروج من بيته .

فعني اليه من لا بي ، وسمعا حطم الهيكل وضياع الوائد الحديدية ، وذهب البحر ، آخذين معهم جزءاً من المال الذي كان في الخزنة ، وعشرا الى جان حاصيا ، ومنهم على آخر رمق ، وثيابهم ممزقة ، والدم يسيل من ايديهم وظهورهم ورجلهم على تربك حال اثار شعور سكان المدينة فسرع الى الاسوار ايوم فاتحة العصيان ، و تعصت الجنود باجمعهم على الحرار ، فحاصروا الامير يوسف ، واستولوا على صور وصيدا ، ورجعوا من ثم الى عكا ، حاملين الحرار في احرج مأزق . غير انه لم ييأس ، بل حال ثابت الجأش شديد البأس . فافرد حاشيته الذين شعروا بالتذمر الذي من الحامية ، اذ كان يجيل ليهم ان ساعة هلاكه قد دنت ، أخبرا عليه بانزال الحكم ، ليعدوا عن المدينة اهوال الحصار . لكنه اجاب وقال : « ليهدأ روعكم ، اخلائي ، فهو الذي في يده زمام الامور ، سيتيح لي عن قريب ان اعرب لكم عن شكري لنصيحتكم هذه » . واتبعها بما يجدته التحريض من التأثير ، فعهد الى جواسيس من ذوي الفطنة والاقدام ، في التسلل بين صفوف العصاة ، وحض هؤلاء على الطاعة ، مبينين لهم سذاجة تمردهم ، مرسخين في اذهانهم عدم الفائدة من مقاومتهم . ثم اجتمع اليه بعض سكان عكا من القادرين على

حمل السلاح ، فصفهم اى عمل الندية وهكذا توصل الى ايجاد جيش صغير تمكن به من ردّ المهاجمين عن اطرابهم . فرأى الهلاك الادبر ، فرجع الى ما وراء النهار . ومن ثم عاد الى النساء اللاتي يحزن من الموت فردى عليه منهن مخدعن وطرحهنّ عاريات في قعر مركب ، يُمْعَنَ في اسواق الاستانة . وبادر من ثم الى قطع الشعر الحديقة تلا يتسنى لاحد الاختباء وراءه ، حتى قطاعة دار الحريم لم تنجُ من نقمته .

وقد حدث ذات يوم ان تمرد كأ يدعى سليمان ، وهو من المهالك المتمردين ، عاد الى القصر على حين غرة ، فعند عرفه الحرار غضب غضباً شديداً ، واستل قلما يضربه بها ، وقال له : ما ذنبك من شقي ايتها ! ما الذي جاء بك الى ههنا ؟ اجاب المملوك وقال : جئت اموت على قدميك ، بدلاً من ان اعيش الموت على البيشة بعيداً عنك . قال الحرار : لكنك تعرف حق المعرفة ان الحرار لم يعفُ قط في حياته عن احد . فعاد سليمان جوابه الاول : حينئذ انحنى الرأس . وقد تكررت الاقوال فيها مثنى وثلاث في وسط سكوت رهيب ، فكان شبح الموت بسطاً ذراعيه على ذلك المكان ، والحضور صامتون ، كأنهم في حضرة رجل يجود بروحه . واخيراً رمى الحرار الفأس من يده ، وقال : هوذا الحرار يعفو لاول مرة في حياته كلها ! . .

ومن غرائب الاتفاق ان سليمان هذا خلف الحرار في الحكم ، ولا شك ان احتشاده لمحاسن رأفة حمله على ان يكون حليماً عادلا بمقدار ما كان سلفه شرساً عاتياً .

بيد ان الحرار كان يميل احياناً الى السكت . واذا طرحنا جانباً استهزاءه بالذين كان يحكم عليهم بموت ، اتضح لنا انه كان يعرف باطراف سامعيه تبع الكلام ، ولنا شاهد على ذلك ما قاله يوماً لاحد

نصارى هكذا . وتحرير الخبر ان تاجراً كان يقيم مع ابنه في بيت له طبقتان ، مشيد على شاطئ البحر . فالاب كان يسكن الطبقة العليا التي كانت جادة طبقة الهواء ، ويقيم الابن في الطبقة السفلى التي كانت رطبة وهواؤها مضر بالصحة . ولما عزم الاب على الزواج ، حمل اباه على التخلي له عن غرفه لمدة اسبوعين . غير ان الخمسة عشر يوماً انقضت والشاب وعروسه لم يجليا تلك الغرف ، فاضطر الاب الى تذكيرهما بوجوب اعادتها اليه فتوسلا اليه ان يمهلهما سبوعاً آخر حتى يعدا الشقة للانتقال الى الطبقة السفلى . فكان الاسبوع انقضى ، والشابان لم يحركا ساكناً . فالاب الذي ابتلته ارطوبة اعاد الكرة واقما بلا جدوى ، اذ قال له ابنه : سيبقى كل منا حيث هو الآن ..

فالحزار الذي كان له جواسيس في المدينة ، علم منهم بالحادث ؛ فامر باحضار الابن . ولما مثل الشاب بين يديه ، قال له بغضب : ما هي ديانتك ؟ اجابه خائفاً متلعثماً : انا مسيحي . فقال له الحزار : ارني كيف يعرف المسيحيون بعضهم بعضاً . فادر الشاب الى رسم اشارة الصليب ، قائلاً : باسم الآب ، والابن ... فقال الحزار : اذن يعلمكم دينكم ان الاب يجب ان يكون فوق والابن تحت فاطع اوامر دينك ان اردت ان يبقى رأسك على جسمك .

فهرس الكتاب

	صفحة
تمهيد	٣
ولاية حلب	٥
ولاية طرابلس	١٦
ولاية صيدا (أو عكا)	٢١
ولاية دمشق	٤٥
ايالة فلسطين	٧٠
نظرة شاملة	٨١
الملاحون والفلاحة	٨٦
الصنعة والتجارة والسفن	٩١
الفنون والعلوم	١٠١
عادات السوريين وبعض طعامهم	١١٠
ملحق : في بعض مظالم الحرار	١١٧

P. I. B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

[redacted]
فواتي ،قسطنطين فرنسوا شاسبوف(كور
سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثاد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

CA
[redacted]

CR
915.69
V92sA
v.1-2
c.1